بين ميلادين

١٤٣٧هـ.٢٠١٦م

رواية

حامد العلياني

دار رواية

لندن

ترخيص رقم: 6820617
العنوان: Address:

Dar-Rewayah limited

104 Queensway

London W22RR U.K

Website: www.rewayah.co.uk

E-Mail: Info@rewayah.co.uk

۞ لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو نقله لأي شكل أو وسيلة إلكترونية أو اقتباس جزءٍ منه.

۞ لا يُسمح بتحويل هذه الرواية لمصنف فني أو سينمائي إلا بتوقيع رسمي من الناشر والمؤلف سويًا.

الطبعة الثانية

شكرٌ مُعتلَجٌ بمودّةٍ وفَخارٍ أبعثه إلى كل من

قرّظ أو نقد أو كتب في سبيل هذهُ الرواية،

رواية «بين ميلادين»

وها هي في حُلّتها الثانية، تزدهي حروفها

وتزدان صفحاتها بك «أنت» أيها القارئ الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا عن الرواية

عمل يأسرك منذ أول وهلة، يُلقى طعمه لك فتعلَق بشراكه، إنه عملٌ يُجسِّد لك قِيَمًا كثيرة مبثوثة في بطون كتب الأخلاق والأدب، لكنك هنا تلمسها وتعيشها وتتقمّص شخصية أصحابها بل تتمنى أن تكون بعضهم، متقابلات شتى جمعَتها هذه الرواية تجعلك تحب الخير وأهله وتكره الشر وأهله، لو سألني أحد أولادي ماذا أقرأ؟ سأقول له: رواية « بين ميلادين »..

د . علي الشبيلي

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،

باحث ومتخصص في شؤون الأسرة والشباب

قالوا عن الرواية

سرني في هذا العمل الواقعية الأخَّاذَة التي تجعل القارئ يقرأ النص متذكرًا حياته وما مرّ به، كأنه يتصفحها في ورقات النص السردي.. وليس هذا فحسب بل كان هذا كلّه وِفق منظومة قيميّة متوضئة تبني الفضيلة ولا تهدمها، إنني أقول دومًا: كم نحن بحاجة إلى تكاثر الأعمال الإبداعية في عالم السرديات عامة وفي الرواية خاصة حتى لو خفضنا سقف المثاليات الفنية مرحليًّا لننتشل أجيالنا من هذا الركام الغثائي الكبير.

د . حبيب بن معلا اللويحق
أستاذ الدراسات العليا بجامعة الإمام،
مهتم بالنقد والشعر،
وعضو الجمعية الرطنية لحقوق الإنسان

قالوا عن الرواية

قصة تستوقفك وتأخذ بقلبك وتأتي على مشاعرك وتمسك بك إلى آخر فصول من فصولها، كانت مشاعري في لحظة تثور بالفرح وفي أخرى تصدمها مواقف الأحداث، وظللتُ أرقُب نهاية تلك القصة كما أرقب ولادة حلم عريض، وفي طيات تلك الرحلة دمعَت عيني وجالت الذاكرة في مواقف كثيرة في بيتي، وما أتيت على آخر حرف فيها حتى أتت على كل مشاعري.

د. مشعل الفلاحي

صاحب كتاب: «مشروع العُمُر»

الإهداء

إليك يا من أقتاتُ من مشاعرك.. وأتّصل بحنانك..

إليك يا من تتوافدين إذا رحلوا فأبث إليك بخلجاتي.. خيرها وشرها..

إليك يا «أمي الغالية» أُهدي عملي الصغير هذا فاقبليه بشروخه.

لافتة

(الرواية، لثلاثين عامًا خلَتْ..

ستعود بك للوراءِ حتمًا.. وستعيش شيئًا من أحداثها

كما لو كنتَ صاحب الحدَث)!

- ١ -

في أيام الضباب الشديد والبرد القارس، كان التلاميذ يتوافدون إلى مبنى المدرسة الابتدائية المتهالك كلٌّ منهم يرتدي معطفًا غليظًا من الصوف، وثوبًا مُلوَّنًا يبدو من تحته طول سرواله المتسخ، يشد القدمين بجوربين ثقيلين لا يهُمّ اختلاف لونيهما، ويكون مُقنّعًا بعمامته الحمراء فلا يُرى منه سوى وجهه الصغير الذي سُلِبت منه الابتسامة.

قُبَيل الطابور الصباحي بدقائق قليلة كان صوت القرآن يملأ الساحة بصوت الشيخ علي الحذيفي وأصوات الطلاب الصغار وهم يتشاجرون، تتوقف سيارة عامر فيتهادى منها ابناه سعد وعبد العزيز فيجلسان بجانب بعضهما.. كلٌّ منهما يتكور على نفسه من شدة البرد.. يتربصان رنين الجرس المشؤوم المؤذن ببداية الطابور الصباحي على تخوف شديد من المعلمين.

ويرن جرس الطابور الصباحي فينهض التلاميذ سراعًا ونبضاتهم تزداد خفقانًا ثم يصطفون كلٌّ في مكانه المحدد له لا يستأخر عنه ولا يستقدم!!

ويقف كل معلم أمام فصله مُكفهِرّ الوجه مقطِّب الجبين، يداه خلف ظهره!

بدأت الإذاعة الصباحيّة وأخطأ أحد تلاميذ الصف الثاني فضربه المعلم الواقف بجانبه على رأسه بمجموع كفه، والطلاب المصطفون جامدون ينظرون إليه خلسة!

تتابَعَ طلاب الصف الرابع إلى الحجرة الدراسية، وأخذوا أماكنهم يرقبون دخول المعلم.

وفي تلك اللحظات التي لا يسمعون فيها سوى صرير الرياح وحفيف الشجر، والنوافذ تبدو صفراء يحفها الضباب المصحوب برذاذ المطر.. حينها دخل المعلّم كالحًا، ورائحة العطر تفوح منه في أرجاء الفصل الصغير، وكان يُرى شعر رأسه حيال أذنيه يتحدّر على رقبته.. وتبدو طاقيته المُثقّبة وعليها عمامته المنتظمة فوق رأسه تُخمِّر جنبات عِقاله العريض.. وفي صمتٍ بالغ يُخرج طباشيرة ويستدير قبالة السبورة الخضراء:

المادة/ رياضيات

الموضوع/ مراجعة عامة

كل واحد منكم يُخرِج الدفتر ويفتح على صفحة الواجب، ومن لم يحل الواجب فليَقِف، بسرعة هيا..

قام عبد العزيز وأربعة من زملائه، وأخذ الأستاذ يمر على كل طالب فيجعل الدفتر في يده اليمنى والخيزرانة في يده اليسرى ممسكًا بوسطها، لا يتكلم سوى أنه إذا ما أخطأ أحدهم في الإجابة أمره بالوقوف..

الصمت في تلك الحجرة يشبه صمت المقابر عدا صوت خطوات المعلم وهو ينتقل يفتش في الدفاتر، الواقفون امتلؤوا خوفًا فهم ينتظرون العقوبة بعد فراغه من سائر الطلاب الجالسين..

انتهى إلى آخر طالب وقلوب المخالفين قد بلغت حناجرهم، نظر نظرة جحيم إلى الطلاب الواقفين.. (تعال)، قالها للطالب الأول الذي أخطأ في المسألة، ويقترب الطالب فيصفعه المعلم صفعةً على وجهه كادت أن تسقط معها أضراسه.. ائتني بالدفتر يا حيـ.. قالها بصوت عال.

حسنًا يا أستاذ، وأحضر الطالب دفتره سريعًا ووقف ملاصقًا لاستاذه مرتبكًا تؤذيه حرارة أذنه.

انظر هنا.. فنظر الطالب في صفحة الدفتر، ألم أقل لك اكتب كذا في مكان كذا ثم ضع خطًا واكتب السؤال الثاني..؟؟!

بلى يا أستاذ قلت.

افتح.. يريد يده، ويتراجع المعلم خطوتين ليَتمكن من يد الطالب، أصابت في المرّة الأولى، وأخطأت في الثانية، بكى الطالب وأخذ يتوسل ويتذلل له، ثم ضربه أسفل رجله كي يُخضعه ليفتح يده!

التفت بعدها إلى الطلاب الذين لم يُحضِروا الواجب بعد أن امتازوا جانبًا حيال السبورة.. لماذا لم تحلوا الواجب؟؟!

.. ويسكتون..

استفتح بعبد العزيز، وجعل ينظر بعينيه الحمراوين، ثم قال: كنا نتجاوز عنك بسبب الظروف التي حصلت لك، والآن قد مضى عليها أكثر من الشهرين (ويشير بيده)، وبقِي ينظر فيه بينما عبد العزيز قد احمرَّ وجهه بشكلٍ لافت..!

طفِقَ يسبّ ويُخذّل كل الواقفين أمامه، ثم عقّبَ بضربهم ضربًا شديدًا وفي حال تأخُّرِ أحدهم أو تمنُّعِه يضربه كيفما اتفق، فلا يستطيعون الجلوس إلا على مضض، ولم تأخذه

الرأفة تجاه صراخهم وتوسلاتهم، حتى إن بعضهم ليحاول تقبيل كفه رجاء أن يسامحه!

راح يسأل الجميع في مواضيع قديمة من الكتاب، يعاقب على التلعثم فضلًا عن الخطأ، والبعض ممن يعرف الإجابة قد أنسِيَها تلك اللحظة!!

خرَج من الفصل وقد أحدث شرخًا في نفس عبد العزيز خاصة، وما زالت كلماته تتردد على مسمعيه حين ذكّره بأمّه المطلقة، وطوال الحصص كان يهيمن عليه السرحان..

لحظهُ مدرس مادة الجغرافيا، وسأله: ما بك؟

- لا شيء.

- هل هناك أحد اعتدى عليك؟

- لا.

- هل أنت مريض؟

- لا.

- ففيم تفكّر؟

ويسكت عبد العزيز..

- اسمع: أنت جئت هنا لكي تتعلم.. انتبه معي مرة ثانية وإلا سأعاقبك، أتفهم؟

- حسنًا..

مع الأيام أصبح مستواه التحصيلي يتدنّى بلا أي سبب واضح، وأصبح يُعرض عن زملائه بينما يكون مرتبكًا جدًا أمام معلميه، باتت العصبية ظاهرة عليه، حصة الرياضة التي ينتظرها التلاميذ بشغف لم تعد تمثل شيئًا بالنسبة له وكان يزداد تشنجه وعبوسه أثناء أدائها لاسيما عندما يتقدم أحدٌ عليه في إحراز الأهداف، ففي أحد الأيام تدهدهت الكُرَة بين قديمه لتستقر هدفًا في مرماه وضحك زملاؤه استهتارًا فعمَد إلى حصاةٍ قريبة ورمى بها زميله الذي أحرز الهدف فسال الدم من رأسه!

وسرعان ما انطلق زملاؤه يُخبرون معلّم الرياضة فلم يجدوه.

وراحوا إلى مدير المدرسة، فجاء المدير وقد توقف الدم وبقيت آثاره، ليعود معلّم الرياضة بعد ذلك وقد وبّخه مديره لتأخره عن الطلاب، وانقضّ على عبد العزيز، يتناوله ضربًا وركلًا كما لو كان يوازيه في السن!! لم يُكتفَ بذلك، فبعد أن

أدّوا صلاة الظهر في مصلى المدرسة قام المدير وأمر الطلاب بالبقاء في أماكنهم، ثم عاقبه أمام الجميع!

(أصبحتُ بليدًا ومنبوذًا في المدرسة الكل يكرهني والكل يحتقرني) قالها عبد العزيز بعد أن استلم تقريره الشهري وكان يفيد بتدني مستواه وضعف سلوكه.

لم يستطع عبد العزيز إيصال هذا التقرير لوالده فلديه أربعٌ من المواد مكتوب في خانتها «ضعيف» بالأحمر، إضافة إلى نقص في السلوك!

في اليوم التالي- وكانوا يجمعون التقارير- اكتشف رائد الصف أن التوقيع ركيك ويبدو مُزوَّرًا، فأحاله إلى الوكيل، واعترف عبد العزيز بأنه قد تم تزوير التوقيع من قِبَل أخته.

ومن غير أن يتم استجواب الطالب قام الوكيل بمعاقبته كما يفعل مع أي طالب يحال إليه، وكتب خطابًا لولي أمره يفيد بضرورة حضوره، وتم إرسال الخطاب مع أحد التلاميذ المجاورين لعبد العزيز في المنزل!

جاء عامر إلى مكتب المدير.. وكعادته أخذ يقهقه مع المعلمين ويضاحكهم فكان صوته يتهادى إلى داخل ممرات المدرسة المستأجرة.. وبادله المدير المزاح وهو ينظر إلى بطنه

الواسع: ما شاء الله أراك أحسن حالًا يبدو أن زوجتك الجديدة تهتم بك كثيرًا.

الأب يضحك: أفكر الآن في زوجة أخرى معها.. إذا رأينا من هذه زيغًا أو تنكُّرًا وجدنا مستراحًا عند الأخرى، أما أنت وأمثالك فيبدو أنه قد سيطر عليكم الخوف.. قاطعهم مدرس الفقه بدخوله وتلاه الوكيل..

ودار الحديث..

قال المدير مخاطبًا عامرًا ويبدو أنه قد راق له الكلام الذي كانوا يتحدثون فيه: أما هذا يعني وكيل المدرسة فمنذ عرفته وهو ينوي الزواج بالثانية ولم يفعل، وهذا -وكان يشير إلى مدرس الفقه- فهو أعلى منك هِمّة.. لديه ثلاث نسوة، قال عامر وهو ينظر إلى استاذ الفقه مُعجَبًا: يُفترض أن تكون أنت المدير بدلًا منه، وتعالت أصواتهم بالضحك.

تحدثوا هنيهةَ ثم حوّل المدير نظره إلى الوكيل: هذا هو العم عامر والد سعد الذي يدرس في الصف السادس وأخيه عبد العزيز في الصف الرابع.. جاءَ بناءً على الورقة التي أرسلتها له.

الوكيل مُرحّبًا: بالنسبة لسعد فهو من خيرة الطلاب عندنا سلوكًا وتعليمًا، بخلاف عبد العزيز كان من الطلاب الجيدين وتغيّر حاله تمامًا في الأشهر الأخيرة للأسوأ،لا في تعامله مع زملائه ولا في تحصيله!

الأب يستوضح أكثر وأكثر، ثم قال: هذا الابن لا يسمع الكلام.. وأنا بدوري لم أقصِّر معه فيما يحتاج إليه، ولم تقصِّر عمته كذلك في متابعته دراسيًا، أخذ يقلّب كفَّه ويلوّي شفتيه.. ثم طلب منهم إحضاره.

وتم أثناء ذلك استدعاء عبد العزيز.. وكانوا جميعًا -الأب والمدير والوكيل- يُضمرون تضخيم الموضوع من أجل إحياء الهمة في نفسه، بخلاف مدرس الفقه، كان يحب عبد العزيز كثيرًا ويُشفق عليه ولا يريد تعنيفه بحالٍ من الأحوال.

المدير بصوت هادئ في هيئة التوبيخ: لماذا يا عبد العزيز لم تؤدِّ واجب مادة القواعد اليوم.. وبالأمس لم تحفظ جدول الضرب!؟

وتحت وطأة النظرات صرعه الصمت.

لماذا أنت الوحيد بين إخوتك يقل مستواك؟ (سأله الأب).

وهنا ماتت الثقة في داخله فهو لا يريد أن يحقره أبوه أمام أساتذته.. ويصرعه الصمت مرة أخرى.

الوكيل: ولماذا تزوّر التقرير الشهري؟

وتتجه نظرات الأب إلى الوكيل: ماذا؟

نعم قام بتزوير التقرير.. وهذا السبب الرئيسي في استدعائك (قاله المدير)، واردف الوكيل: يقول بأن أخته هي من زورت له التقرير!!

الأب يميل رأسه إلى الأسفل ثم يشخص بصره في ابنه: صحيح؟!

عبد العزيز مرتبكًا: نعم، لأنني كنت خائفًا منك!

تكلم مدرس الفقه: لعله أخطأ ولن يُكرر ذلك مرةً أخرى، والأمر بسيط إن شاء الله.

- بل لأنه بليد.. (قالها الأب) وهمَّ بضربه!

- ويخرج الأب بقرارٍ على مسمع من الأستاذة: ما دام أن الأمر هكذا فسأنتبه لك جيدًا، وستبقى مرهونًا في المنزل بقّية العام الدراسي، ولن تلعب مع أحد بعد اليوم.

انصرف الابن وتكلم المدير مع الأب: ما رأيك أن توصله هو وإخوته إلى أمهم نهاية كل أسبوع يبقون معها يومي الخميس والجمعة فيأنسون بها وتأنس بهم وتعود إليهم راحة البال؟؟!

عامر وقد تقطَّب جبينه: يكفي رؤيتهم لها في كل شهرٍ مرة.. فلقد كانت سببًا في الطلاق بعنادها وسماعها لبعض النساء اللواتي لا هَمّ لهم سوى النفاق والتحريش، وإلا فماذا عليها لو بقيت مع أبنائها ورضيت بما يُرضي زوجها فتسعد هي وتنال الأجر من الله.. ثم سكت قليلًا وقال بعد أن اتسعت عيناه: لا أذكر أن ثمة امرأةً حادّت زوجها إلا وشقيَت.

وفي الأسبوع التالي آثر الأستاذ يحيى مدرس الفقه أن يتحدث مع عبد العزيز على انفراد عله أن يساعده بما يستطيع..

سألَه: أراك زعلانًا هذه الأيام يا عبد العزيز!!

- لست بزعلان يا أستاذ.

- الحمد لله، لكنك في بداية العام كنت تضحك كثيرًا أفضل مما أنت عليه الآن وكنت تمزح معي خاصة.. أتذكر عندما كنتُ آمرك أن تقف في آخر الفصل بسبب كثرة ما

يصدر منك من الكلام والضحك أثناء الدرس وكنت تعدني بأنها آخر مرة فأسامحك؟!

- أطبق الصمت على التلميذ، وبادره الأستاذ: هل لديك مشاكل أساعدك في حلها؟!

- هزّ الطالب رأسه: نعم.

- ما هي مشكلاتك؟!

- غالَبه الحياء ثم قال: عمتي تسب أمي، وأبي لم يعُد يحبنا كما كان من قبل.

- لماذا عمتك تتكلم على أمك؟

- لا أدري.. قالت لها أختي لا تتكلمي على أمي، فدفَعتها وقالت أنتم أتعبتموني وامكم هي من تركتكم لي!

- وهل يدري أبوك بذلك؟

- لا، ولكنه أيضًا يسبها إذا تكلم مع الرجال عن قصتها ويقول بأنها ذهبت ولم تفكر في أبنائها، وأبي يكذب يا أستاذ فأمي تحبنا كثيرًا ودائمًا تفكر فينا.

- لا تحزن يا بُني فما دام أن أباك وأمك بخير فالأمر بسيط إن شاء الله زوروا والدتكم بين كل فترة وفترة ولن

يمانع أبوك، ولا تصغوا للكلام الذي يقال في أمكم، واجتهدوا في دراستكم كي تنفعوها وتنفعوا أباكم كذلك، وكل ما تريده أنت وسعد في المدرسة أو خارجها سأهيئه لكما بإذن الله.

- أستاذ..

- نعم، تفضل يا بني ماذا تريد؟

- أريدك أن تكلم أبي ليوافق وتعود أمي معنا!

- الأستاذ رغم ابتسامته المُتصنَّعة إلا أن عينيه تبدوان محمرتان: يا بني ربما لو عادت أمك لحصلت بينهما مشكلات من جديد، قد تكون راحتهما في البُعد عن بعضهما.

- لا يا أستاذ قد سمعتُ أمي ذات مرة تقول لجدّي بأنها نادمة على خروجها من بيت أبي.

- الأستاذ يأخذ نفسًا طويلًا ويبدو محتارًا: سأحاول إن شاء الله، المهمّ لا أريد أن أراك حزينًا بعد اليوم حتى وإن بقيَت أمك في بيت أبيها فهي في صحة وأمان وسوف ترونها كثيرًا إن شاء الله وتراكم.

انصرف الطالب وبقي المعلم غارقًا في التفكير..

- ٢ -

أصبح عبد العزيز طيلة بقائه في المرحلة الابتدائية بين فكّي قسوة المعلمين وجلافة الأب، لكن أخته زهرة التي باتت في المرحلة الثانوية كانت تستشعر ما يعانيه، وتُشفق عليه لكثرة تعثراته في المدرسة وكذلك الشدة الواضحة التي كانت تلمسها في أبيها عليه، فرغم أن هذه الشدة لا تستثني أحدًا منهم إلا أن تعامله معها ومع سعد يُستطاب أحيانًا لا سيما عند حصولهما على تقدير عال.

كثيرًا ما كانت تنصحه وتحاول معه بشتى الوسائل أن يكون مطواعًا لأبيها فلا يخرج إلا برضاه.. وأن يجتهد في دراسته ويُغيّر من حاله إلا أنه كان يعاندهم كثيرًا ويحب مخالفتهم في أمورٍ شتى.. فلا يستيجب لهم إلا بشقّ الأنفس! وكان يصف أخاه سعدًا بالجبان لأن الأخير لم يكن يحب الخروج من المنزل إلا في أوقات محدودة جدًّا خوفًا من والده، ويهزأ به كونه يستنسخ تصرفات والده ويقلده في مشيته وهيئة لباسه فلا يكاد ينفكّ عنه الشماغ أمام الناس، وكان إذا تكلم يبدو متصنعًا أمام أبيه كسبًا لثنائه..!

لهذا كان الأب يميل إلى سعد ظاهرًا ويحبه، ويَربِت على كتفه أحيانًا ويقول: هذا بُنَيّ! وفي نفس الوقت يواصل ضغطه ورقابته على عبد العزيز ويُشعره بعدم رضاه، طمعًا في أن يتغير حاله للأفضل خاصةً في المدرسة وبالفعل فقد تمخّض عن ذلك تحسنًا نسبيًا في أدائه الدراسي لكن ثمة جمود في التفكير، ونقص واضح في الثقة وسذاجة في بعض الأحيان تخذله أمام زملائه.

كانت زهرة تحرص على أخويها وتخاف عليهما من أي سلوك فهي الأخت الكبرى لهما.. كانت تكبر سعدًا بأربع سنوات، وترى أنها تنوب عن والدتها المطلقة، وكثيرًا ما كانت تستدعي الماضي فيعطيها بعض المواقف التي لا تُنسى لاسيما الموقف الذي سبق الطلاق فراحت تتذكر عندما كانت أمها (منيرة) تنتظر مجيء زوجها عامر (والد زهرة) وكانت أمها آنذاك غاضبة، والنساء قبلها سَمِعَتهُم زهرة يقاسمن والدتها الرأي في أن تذهب إلى بيت أبيها.. فكان ذلك، تتذكر زهرة أنه في عشية تلك الليلة جاء والدها بعد غيبة، وبمجرد أن سمعت هي وأمها السيارة وهي تتوقف ازدادت نبضات قلبها، غير أن أبيها ولج إلى المنزل وعليه أمارات السرور والفرح بينما أمها تلعنه من الداخل، ضحكاته كانت تملأ المنزل أكثر من كل

مرة، فتنظر إلى أمها فإذ بالعَبرة تخونها وينبعث معها نشيجّ متواصل. مما حدا بضحكات أبيها أن تتحول إلى استفهامات ينشد إجاباتها في عينيها وأعين أخويها حيث (مَوارِي) اللوم قد بدت في تعبيراتهم، ورأى انكسارهم جليًّا.. ثم التفت إلى أمها وأطال النظر..

ما بك؟... لم تجبه.

وأجابته زهرة: أمي غاضبة عليك.

لماذا؟

تكلمت منيرة: لست بغاضبة أريد فقط أن أزور أبي يبدو أنه مريض ولي فترة ليست بالقصيرة لم أره.

وتمَّمَ لها: حسنًا، الآن نذهب.

تتذكر زهرة أمها وهي تلملم الأغراض، والريبة تغشى أباها أكثر وأكثر..

ثم سبقهم إلى السيارة، وأمّها تجمع الملابس بشكل عشوائي، وتأخرت في ذلك كما لو كانت ستبقى فترة طويلة في بيت أهلها!

ويعود الأب بخطوات ثقيلة ويقترب من الأم قائمًا ينظر دون أن يتكلم، وشبَّك بين أصابعه ويداه مهملتان أسفل بطنه،

وتظهر عليه ابتسامة ساخرة تعبِّر عن استيائه، أخذ ينظر بنظرة فاحصة يراقب صمتها، ويتأمل عجلتها وهي تستدير نحو الحقائب المحيطة بها لتتأكد من جاهزيتها!

رأى في عينيها الغضب، وفي وجهها الكدر وشفتاها مطبقة.

لم يُحقّق في ذلك أو يسألها!

اختلست نفسها إلى الداخل ودفعت عنها أبناءها الذين لاذوا بها.

وهنا جاء الشيطان إلى أبيها وحرك كوامن غضبه فاستجاب سريعًا، بدأ هو بنقل الحقائب إلى السيارة ولملم أطراف عمامته فوق رأسه، والعزة بدت واضحة على محيّاه يتقاسم معها الصمت.

وما زال المشهد الذي حصل في السيارة بعد ذلك عالقًا في ذاكرة زهرة.. ادَّكَرَتْ يوم أن كانوا في طريقهم نحو قرية جدّها.. التي تبعد نحوًا من الثلاثين كيلو مترًا، وأبويها لا يُكلِّم أحدهما الآخر.. وبعد أن استتم بهم الطريق نظر والدها إلى والدتها بحظوظ نفسٍ واشمئزاز، ثم تكلم حيث الأطفال يسمعون:

- لعلك سمعت بخبر زواجي؟

- لم تُجبه.

أعاد السؤال وهي صامتة فاتّقد قلبه: الذي سمعتِهِ صحيح فأنا متزوج بأمرأة أخرى على كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

- هل عندك مانع فأعدل عن الزواج؟

- المرأة لا تفتأ صامتة وهي تنتشي مفارقته وتحسّ بقوة الإرادة في ذلك.

- كنتُ أنوي إعزازك وإرضاءك بما تطلبينه على أن تبقي معي، والشرع قد أحلّ لي الزواج بأخرى، لكنك تأبين إلا أن تذهبي إلى أهلك، فالباب يسع الجمل، ولتبقَي ما تبقَي!

- صرخت المرأة حينها طالبة الطلاق!!

- الرجل معاندًا: سأفعل، قالها بصوت عال، وعمّ السكوت.

وما إن توقفت السيارة وإذ بالأم تلتفتُ عنه بكليّتها، ثم صكّت الباب بعنف وسارت تمشي تاركةً كل شيء حتى الأطفال!

أخذ ينظر إليها كما لو كانت تتجرد من عاطفتها!

توارت عن الأنظار، فانعطف هو الآخر بسيارته والأطفال معه يزدادون في البكاء!!

حاول جاهدًا في تهدئة الصغار وإقناعهم بأن المياه سوف تعود عما قريب إلى مجاريها فلم تُجد محاولاته، توقف ليشتري لهم بعض الألعاب فرفضوها، قرر إرجاعهم إلى أمهم وما زالت سخطاته تتوالى عليها، وسبابه تتفلت منه كيفما اتفق، يقود السيارة بسرعة عالية!

وصلوا المنزل، قام بإنزالهم وألقى بالحقائب عند عتبة الباب ثم قبّلهم مودِّعًا ولم يقدِر على الكلام بعد أن اختلطت في قلبه مشاعر الأسى بخلجات الغضب، أشار لهم بطرق الباب واستدار قافلًا على مهَلٍ حتى اطمأن لدخولهم، ثم استتم في طريقه قاصدًا منزله.

عندما تتذكر زهرة مثل هذا المشهد وكذلك وصايا أمها المتوالية فيما يتعلق بأخويها فإنه يتعاظم في نفسها أن يضلا أو أن تتيه بهما الدروب فيحيدا عن بلوغ المأمول..

وفي السنة الأخيرة لعبد العزيز من المرحلة الابتدائية كان هناك مدرس مادة التاريخ، الطويل في قامته، خفيف اللحم تبدو عظامه كبيرة، يتكفأ أثناء مشيته، عليه نظارةٌ مستديرة

الشكل، عدساتها صغيرة، معروفٌ بتطاير لعابه أثناء كلامه لاسيما في حال اشتداده غضبه، وكان يقترب من الطالب إذا أراد سؤاله!

سأل ذات مرة أحد الطلاب في الصف الأمامي بعد أن مثُل الطالب أمامه وأجاب على سؤاله، لكن الطالب شعر برذاذة لُعاب تقع على وجنته فأزاحها بيده، ثم نظر إليه المعلم نظرة حادّة ووكزه في كتفه الأيمن: اجلس يا قليل الأدب، لم يتمالك نفسه أحد الطلاب فضحك.

التفت المعلم إلى مصدر الصوت وكان يسأل: من هذا الذي يضحك؟ أنت؟ يقصد عبد العزيز.

- لا.

- اعترِف خيرٌ لك.

- لم أضحك يا أستاذ.

- ويوزع المعلم نظرات على الطلاب المجاورين له، ثم يعيد إليه النظر:

- لن أمسسك بسوء، هل ضحكت؟ قاله وهو يقترب منه.

- اعترَفَ عبد العزيز، نعم ضحكت.

- لماذا؟

- ويصمت عبد العزيز كعادته!

- حسنًا سأسألك سؤالًا إن أجبتَ عليه وإلا فالعقاب آتيك..

س- هل هاجر المسلمون إلى الحبشة أولًا أم إلى المدينة؟

ج- هاجر المسلمون أولًا إلى الحبشة.

ويصفعه المعلم على وجه، الصفعة تصمّ أذنه اليسرى، اغرورق الدمع في عينيه..

- أنت قلته في الحصة الماضية يا أستاذ!

- المعلم كالذي يتذكر: آه صحيح، كانت الهجرة إلى الحبشة أولًا نسيت نسيت.. اجلس.

- تمتم المعلم: صحيح كانت هجرة المسلمين أولًا إلى الحبشة وبلغهم خطأ أن قريشًا أسلمت فعادوا في نفس العام ولما اقتربوا من مكة اتضحت لهم حقيقة الأمر واشتد أذى قريش عليهم.

وينظر في وجه عبد العزيز نظرة علوّ والأخير ما زال يكفكف الدمع: اسكت أيها البكّاء، فالمعلّم حتى وإن أخطأ فلابد للطالب

أن يحترمه، فنحن دائمًا لا نعاقبكم إلا لمصلحتكم وستعرفون حقيقة هذا الكلام في المستقبل.

ويسكت الطلاب على مضض كما يفعلون في كل مرة..!

وبطبيعة الحال فإن التعامل مع الناس والانشغال بالدنيا وأعباء الحياة بمزيجها السائغ والمرّ تجعل من المرء ذا نفسٍ قابلة للتكيف بما لا تهواه وبما لا تريده، لكن منيرة - رغم مضي عامين أو أكثر على طلاقها - كانت تمر بها فترات تؤثر فيها الخلوة مع نفسها، ولا يقطع تفكيرها سوى صوت أبيها وهو يدعوها، أو أمها تأمرها ببعض شأن المنزل.

تفرح بمجيء أبنائها وتغمرها السعادة بوجودهم فإذا ما تركوها فسرعان ما يتجدد الحزن في نفسها.

ظلّت على هذا الحال مدة طويلة، وفي كل مرة تحاول أمها أن تُسلّيها وتخفف من آلامها، إلى أن جاءت تلك المرة التي لم تسكت فيها منيرة.. قالت أم منيرة لابنتها: يا ابنتي أما ترين الأسى قد طال بك، وأرهقتك الأحزان بسبب هذا الطلاق، فكأن السعادة لا تأتي إلا مع عامر..!

فتسكت منيرة، وهي تنظر إلى الناحية الأخرى.. تبدو غاضبة.

- اصبري، ربما يرزقك الله زوجًا غيره وتعيشين معه حياةً سعيدة.

- وسرعان ما التفتَت إليها منيرة: أنت السبب في تطليقي.

- أنا؟

- نعم، كنت تأمرينني بعصيانه وتستبعدين الطلاق إلى أن وقع ما وقع وتظنين أن الرجل سيخضع لنا ويطلق زوجته الجديدة! وفي النهاية حُرِمتُ أنا من أبنائي لا أراهم إلا في النزر اليسير وبقي هو يعيش حياته هانئًا!!

- هذا جزائي يوم أن أردتُ لك الخير.. ثم أخذت تدعو عليها.

- أخذت منيرة تردد وهي قائمة: لكني (أنا الغلطانة)!

كان أبناؤها يزورونها في كل شهرٍ مرةً، وفي بعض الأحيان مرتين، وأبوهم هو من يوصلهم إليها.. فكان من حين إلى آخر يعطيهم مائتي ريال وأحيانًا تصل إلى خمسمائة ريال كي يعطوها والدتهم مساعدةً لها، ولم تكن منيرة في يوم من

الأيام ترفضها لأنها بالفعل كانت تحتاج، فإخوانها مشغولون وأبوها ليس لديه من الدخل سوى ما يتقاضاه من مؤسسة الضمان الاجتماعي!

كان عامر يرى اندفاع أبنائه من السيارة وفَرحَهم فور وصولهم إليها -خاصة عبد العزيز- فيزداد تجاههم رقة وعطفًا، ويعود به التفكير إلى الوراء في سنواته الخالية مع منيرة، يحدّث نفسه: هي من فرّطت في حياتها مع أبنائها.. خرجَت من بيتي ثم أتبعَت ذلك بالعناد والعداوة، واستمالت والدتها تتكلم بكلامها وتمضي في رأيها، وعاملتني بلا أي تقدير للعشرة التي قضيتها معها قرابة ثمانية عشر عامًا..!

وراح يفكر في الرسالة التي وجدها في مقبض باب سيارته أثناء ما كانت منيرة والأبناء عند أهلها قبل أن يطلقها.. تلك الرسالة التي جعلته يقرر إرجاعها هي والأبناء في منزله لكن الله قدّر أمرًا آخر.. كان مكتوب في الرسالة: «أبناؤك بحاجتك وهم في بيت جدهم لا يجدون الراحة، ويتعرضون للأذى والشتائم ممن حولهم ولا أحد يدافع عنهم»! الرسالة كلماتها قليلة لكن وقعها كان شديدًا في نفس عامر، ثم إن أيام الشتاء آنذاك بدأت تغازل قريته الصغيرة التي تقع ضمن

سلسلة جبال الحجاز، والمعروفة بتآلفها مع البرد ومعانقتها للضباب، فزادت عنده الحيرة وأخذ يفكر في أبنائه بجدية تامة.. فتلاشت حظوظ نفسه وقرر زيارتهم عاجلًا مع إسراره بالتنازل عن بعض حقه فيما يتعلق بإعراض الزوجة ونشوزها ومفارقتها له من غير مبرر شرعي.. ذلك من أجل أن يعيش أبناؤه معه حياةً كريمةً تحت نظرِه وعلى صناعته.

استطرد عامر في التفكير وتذكر عندما رتَّب كلامًا لملاقاة أهلها ولم يكن يدري ما يُبيتون له..

تساءل في نفسه: هل تغلبهم العاطفة تجاه ابنتهم فيميلون عن الحق أم أنهم سيُحكّمون عقولهم فيقولون رشدًا وإنصافًا؟! بدأ يعيش ذلك المشهد الذي حصل ولم يكن يتوقعه: «عندما مضى إليهم عِشاءً، واستقبله الرجُل الهَرِم استقبالًا حارًا وأفاض إليه في التحايا، أدخله مُدخلًا كريمًا وجلس معه هنيهة ثم خرج ليجيء الأبناء بعدها يتهافتون على أبيهم كما يتهافت الفَراش على النور، يرتمون في أحضانه ويبادلونه العناق والقُبلات، رأوا الدمع لأول مرة يتحدّر على وجنتيه!

بقي في حديثٍ حار مع أبنائه حتى ورد عليهم الجدّ مرة أخرى ومعه ابنه الأكبر إبراهيم الذي قارب الأربعين عامًا، وكان

قصيرًا في قامته ممتلئ الجسم، سلّم عليه إبراهيم سلامًا لا ينمّ عن صفاء قلب، ما زالوا وقتئذٍ يتبادلون الأخبار بعيدًا عن الأمر الذي جاء من أجله، دخلت أم منيرة وكان سلامها باردًا للغاية والشرر يتقافز من عينيها.

أصبح الوقت سانحًا لبدء الحديث سواء أحضرت منيرة أم لا، استفتح عامر الحديث وكان متحمسًا يحدوه الأمل، بالإضافة إلى ما أوتيه من النبرة القوية والمنطق الواضح، قال: لا يخلو بيت من المشكلات، والأهم هو حسن التصرف والتعامل معها بشكل حسن، كلما في الأمر أنني تزوجت امرأة أخرى بما أحله الله لي.

لتقاطعه العجوز مباشرةً: وماذا يعيب ابنتنا كي تتزوج عليها، وهي التي صبَرت عليك سنوات عجاف، وتعبت وضحّت من أجلك؟

وهنا غضب والد منيرة –وكان حازمًا للغاية– وعلا صوته، ثم أمرها بالسكوت ريثما ينتهي الرجُل من حديثه!

أشار برأسه لعامر أن يستأنف كلامه، فواصل عامر حديثه وقد بدت علامات الانزعاج عليه: ولا يصح أن يبقى الحال على ما هو عليه فقد غضبت ابنتكم وتركت المنزل

دون أن تحسب أمورًا أخرى، فلو جاءتني على وجه المفاهمة لأرضيتها.. وعلى كل حال فها أنا ذا قد جئت أنشد منكم الإنصاف وأن تعود ابنتكم وأبناؤها للبيت، ولا أعتقد بأن هناك ما يستدعي بقاءهم هنا.

تنحنح والد منيرة وكرر الترحيب ثم قال: أنت رجلٌ راشد ولا يصدرُ منك أن ترمي بأهلك هنا دون أن تطلب مقابلتي أو مقابلة أحد إخوانها، خالفت ما تمليه علينا أعرافنا وتقاليدنا، كان من الأحرى أن تقابل أحدنا ثم ننظر في الأمر بما يفتحه الله علينا، أما أن تزج بهم من غير تقديرٍ لأحد، وتأتي الآن عندما دعتك الحاجة لتأخذهم فهذا ليس من المنطق.

وعلى كل حال.. قاطعه عامر بهدوء وقد تغير وجهه: صدقت يا عم لكنه الغضب..

على كل حال منيرة زوجتك ونريد -فقط- أن تتقي الله فيها وفي مستقبلها ومستقبل أبنائك.

لكن يا أبي.. أراد إبراهيم مقاطعة أبيه، فنهضت العجوز بقوة، واعترضت على ما قال بعلُها، ثم حلفت ألا تعود ابنتها لبيت زوجها ما دام أنه متزوج بأخرى: هل بنتنا رخيصة عندك؟ هل قصّرت في حقك يومًا من الأيام؟ واختلطت الأصوات

وأمرها زوجها بالخروج، في حين استمرت هي تُوجّه كلامها لعامر وتسكت أحيانًا كالتي تتردد في إخراج مكنونها، وقام ابنها بتهدئتها ثم أشاحت نظرها إلى والد منيرة وهي تتعهد بعدم خروج ابنتها، وغادرت المكان متذمرة ساخطة!!

إبراهيم يتعاطف مع أمه: قد يكون معها الحق يا أبي ولا ينبغي أن تُسفّه كلامها!

نظر الشيخ الكبير إلى ابنه بعينين ساخطتين: وهل تريد أن يمشي كلامها على ما قلتُ أنا.. (قال ذلك وكانت الرعشة تُرى في شفتيه ويديه)!

قام إبراهيم وجلس قبالة والده: يتزوج يا أبي لا أحد يستطيع منعه، ولكن ما الداعي لهذا الزواج إذا كانت زوجته تقوم بواجباتها على أكمل وجه؟!

نظر إليه عامر حينها وقد تغير وجهه وانعقد جبينه: النبي -صلى الله عليه وسلم- تزوج بإحدى عشرة امرأة فهل معنى ذلك أن أمهات المؤمنين أو بعضهن قصّرن معه؟!

إبراهيم يكرر نفس الكلام لأبيه بطريقة أخرى: تحداه أصدقاؤه يا أبي في المقهى الذي يتسامرون فيه ففعَل، عامر يقطع حديثه: أمرٌ أحله الله!

تكلم والد إبراهيم حينها بصوت منخفض كما لو كان مُجهدًا وقال بكلام متهدج: هناك من النساء أنفسهن من لا تعارض الزواج بالثانية لأن ذلك من الشرع، فماذا عليك أنت أن تقول هذا الكلام؟ ثم تبسم أسفًا وما زال يوبخه، بينما عامر كان يفتل شاربه وينظر في إبراهيم الذي أنهكَه كلام أبيه!

صحيح لكنها جرّأته بأخلاقها وطيبتها فتزوج عليها، ولما أن أبدت اعتراضها بسبب زواجه -حالها حال سائر النساء- رماها هنا ليسومها لونًا من العذاب، ولولا أطفاله ما التفت إليها.

عدّل عامر من جلسته وقال بنبرة حادة: كن فاتحة خير يا إبراهيم ولا تتسبب في تضخيم المشكلة، فالتعدد فعله الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وفعله السلف والخلف، وليس يتعارض مع حب الزوجة الأولى، وليس شرطًا أن يكون له مبرر.. ثم إن أختك هي من طلبت المجيء إلى بيت أبيها، لم أطردها.

أبو منيرة وقد وصل به الغضب حدًا كبيرًا، كان يهز رأسه ويحدق للأسفل بعينيه التي تبدو من خلف نظارته الواسعة، مميلًا رأسه على قبضة يده!

نظر إبراهيم إلى أبيه قليلًا ثم التفت إلى عامر: يبدو أن الوالد مُتعب الآن، لعلك تأتينا في وقت آخر!

عامر بصوت خافت: لم أطرد في حياتي سوى هذه المرة!!؟

ليس طردًا يا أخي، أما ترى الوضع؟

وتفيء العجوز إلى المجلس مرةً أخرى: ابنتنا ستبقى معنا (وتشير بسبابتها إلى الأرض)، خذ أولادك إن أردتَ أو أبقِهم وزُرهم في أي وقت يحلو لك! كان صوتها يُسمع من الخارج.

خرج عامر مغاضبًا يُزبِد ويُرعد؛ إذ لم يكن يتوقع ما حصل، ابنته كانت تبكي ولم يعد يسيطر على أعصابه، وتوقف عند الباب دون أن يلتفت إليهم: ثلاثة أيام وأعود إن قدّرتم مجيئي وإلا فسأجد من يعتني بأبنائي ولتهنؤوا بابنتكم..

قطع عامر التفكير وحمد الله أن الأمور استقرت وعاد أبناؤه يعيشون معه حياةً كريمة فليسوا الوحيدين الذين طُلِّقت أمهم بل إن هناك من ماتت أمه، والنبي –صلى الله عليه وسلم– ماتت أمه وهو صغير بل إنه لم يكن يعرف أباه ولم يره – عليه الصلاة والسلام – وهو النبي الكريم أعظم رجال التاريخ وسيدهم وخير من وَطئت قدماه الثرى.

زهرة التي باتت في سن الزواج كثيرًا ما كانت تذكر أباها إذا غدت جالسةً مع أمها، وكيف أنه يُعجَب بطبخها وترتيبها للمنزل واهتمامها بشقيقيها سعد وعبد العزيز.. وأثناء ما كانت تتحدث عن أبيها فإنها تُذكِّر أمّها في نفس الوقت بعض ذكرياتها معه دون أن تشعر البنت، فتتذكر الأم عندما كانت تصنع له أكلته الشعبية المفضلة (العصيدة)، وتتذكر ثناءه على طبخها لضيوفه، وتتذكر ممازحته لها، وتعبه في سبيلها عندما تمرض، ومواساته لها عندما تُبتلى..

قالت زهرة لأمّها ذات يومٍ: عمتي غالية أصبحت تعتمد عليّ في كثير من شؤون البيت لاسيما حينما يكون الضيوف موجودين.. «قالته وهي فرحة» لكن هذا الخبر حدا بالأم لتوبيخها: إنما تريد أن تخدميها فقط وتستريح هي.. البيت مسؤوليتها هي لا أنتِ.. فلا تتعنَّي لخدمة أحد غير إخوانك وأبوك.

- لماذا يا أمي؟

- النساء أعرف ببعضهن، ولن أوصيك إلا بما يصلح لك.

- حسنًا.

في غضون ذلك.. رُزق عامر مولوده الأول من امرأته غالية.. وأحبه الجميع، اسمه (نايف) وقد ملأ البيت أنسًا وفرحًا..

* * *

- ٣ -

مع مرور الليالي والأشهُر بدأت تخف رقابة عامر على أبنائه، وأصبح ينشغل أكثر وتعددت ارتباطاته، وكان هناك جارٌ لعامر يُدعى سلمان، شاب متدين في بداية العقد الثالث من عمره تطوّع بإنشاء حلقة لتحفيظ القرآن الكريم، خاصة بأبناء القرية في المسجد الجامع، وسجّل فيها غالبية أبناء القرية، فكان عامر مسرورًا بها حاله حال بقية الآباء، وانعكس ذلك في تعامله مع عبد العزيز فقد بات يغض الطرف عن أخطائه وأخطاء أخيه، من باب تشجيعهما على الاستمرار في حفظ القرآن، وكان غالبية أبناء القرية بمختلف مراحلهم العمُرية بعد انتهاء وقت الحلقة -الذي لا يتجاوز ساعة كل يوم بعد العصر وساعة في صباح الخميس- ينتشرون في أرجاء قريتهم الصغيرة، فكان الأكثرية منهم يتجمعون ويمارسون لعبة كرة القدم ويشاركهم سلمان أحيانًا من باب كسب قلوبهم، وبعضهم يذهب إلى ضفاف الأودية والغيلان، أو يذهب لأماكن الرعي حيث الربيع والخضرة..

عبد العزيز لعب الكرة أيامًا، ثم تركها .. فكان هو وصديقه ناصر ومعهم سعد أحيانًا يذهبون إلى رجُل من القرية يقال له (العم حمود)، كان يذهب كل يوم إلى مكانه المعتاد في سفح الجبل، فكانوا يأتونه هناك.. ليصنع لهم الشاي وأحيانًا يكون معه خبز البر فيأكلون معه، وكانا يأنسان به لدماثته وبساطته، سعد حينها كان يتعلم قيادة السيارة، فكان ينطلق بعد الحلقة مباشرة إلى البيت ليقود السيارة، وفي حال انشغال والده عنه فإنه يذهب مع ناصر وعبد العزيز.

وفي بعض الأحيان كان سلمان يتكفل للأبناء المسجلين في الحلقة بإقامة رحلة من الصباح الباكر إلى صلاة الظهر، وكانوا قد أحبوه ومضى على الحلقة حوالي خمسة أشهر، كانت أيامًا جميلة لم تُمحَ من ذاكرتهم.

وذات مرة وبينما كانت الأمور في القرية تسير بسلام، والسيارات حينها قد أصبحت منتشرة بشكل أكبر والطرق باتت معبّدة لا سيما التي تصل بين القرى والمحافظات.. كان اليوم يوم جُمعة وغالبية الناس يستيقظون ويتهيؤون للصلاة منذ وقت مبكر، الكل مشغول بنفسه وبأطفاله، الأمور كانت طبيعية جدًا، لم يكن هناك ما يزعج أو يُفرح من الأخبار، ولما

أن أفاء الناس من صلاة الجُمعة، والأمهات مشغولات بإعداد الغداء، عبد العزيز حينها كان ملتهيًا بإصلاح دراجته في فناء المنزل، وأخوه (نايف) لأبيه صاحب السنتين كان معه، ووالده كان يغط في قيلولته.. وإذ هم كذلك إذ بالباب الخارجي يُطرق طرقًا شديدًا فيتجه عبد العزيز ناحية الصوت ونبضاته تسابق خطواته.. وتخرج زَهرة من غرفتها وتخرج كذلك عمته من المطبخ فزِعة تتهاه عن فتح الباب بعد أن دبّ الخوف قلبها، ونظر من الثقب وإذ بالعم حمود الذي دائمًا ما كان يضاحك الأطفال ويداعبهم بل ويضحك مع الجميع.. إذ به هذه المرّة مكفهرّ الوجه ويداه مكتوفتان، تردد عبد العزيز في فتح الباب إلى أن رأى أخاه سعد آتٍ إليه ففتح الباب وبمجرد أن وقع نظره في نظر الرجل... ألقى إليه الرجل بالسؤال- في شكلٍ هادئ كما هي عادته- أين أبوك؟

- نائم!

- أيقظه بسرعة.

وجاء الأب مكشوف الرأس، تهامَس معه بحضرة رجُل آخر وصل للتو ليس جارًا لهم لكنهم يعرفونه، صفّق عامر بكلتا يديه تعبيرًا عن صدمته من الخبر الصاعق، وعبد العزيز وسعد

يحاولان أن يُصغيا إليهم، عقَل عبد العزيز سؤال أبيه للرجُل: وأين هو الآن؟ فيجيب: هو في الثلاجة من قبل الصلاة..!!

راغ الأب إلى الداخل وهو يكرر: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتتلوه زوجته، كانت تحاول أن تستوضح منه -مفجوعةً- وأحس الأبناء بالتأثر في نبرة صوتها والأب يجيبها بكلمات مختصرة..!!

امتطى الأب سيارته بصحبة الرجُلين ومضوا..

لحظات قليلة وإذ بصوت الناعي خارجًا.. نساء الحي يتلقون خبر وفاة سلمان (الشاب) الذي يسكن حارتهم ويدرّس القرآن، ويولولون بجهشات مخيفة لا تتواءم مع الرضا بالقضاء والقدر!

عرف أبناء عامر أن سلمان قد مات، فكأن السماء حينها أطبقت بالأرض من هول الخبر.. خوف شديد يبلغ منتهاه، والحي كله قد تعاظم عليه هذا الحدث الرهيب.. يمر رجُلان يحملان المساحي.. وطَفِقَ آخرون يتوافدون إلى المقبرة.. « إنا لله وإنا إليه راجعون » كلمة كان يرددها الكثيرون.

السبيل المؤدي بين الحي والمقبرة كثُر فيه الراجلون ما بين غادٍ ورائح، والحزن قد خيّم على الجميع لاسيما أن هذا

الميت لا يزال شابًا، كان كريم السجايا حَسَن الأخلاق، معروف بنبله وخدمته للآخرين.. لم يمهله القدَر كثيرًا.

أزف الغروب وطفقوا يتوافدون إلى الجامع لأداء صلاة الميت بينما عبد العزيز يسير معهم ملتصقًا بأخيه الأكبر على تخوفٍ شديد لم يعهد مثله من قبل.

بعد صلاة المغرب قام المؤذن ينادي بالصلاة على الميت، حملوه على أكتفاهم في جنح الظلام وساروا به نحو القبر.. كان منظرًا مهولًا!

الصغار ينظرون إلى هذا الجمع من طرف خفي، معهم السّرَج وبين أيديهم شاب ميت يعرفونه معرفة جيدة كانوا يرونه كل يوم، صوت المسحاة يهيئون بها القبر، لحظات قليلة ثم أنزلوه في الحفرة وسط صمت رهيب من الحاضرين، ثم أُمِر الشباب بإحضار الطين ليصبح الشاب بعدها مرهونًا تحت الأرض.. ثم أخذ الناس يتفرقون عنه!

استوطن الخوف في نفس عبد العزيز أيامًا وأصبح يفرَقُ لأدنى حادثة.. يتذكر سلمان بين الفينة والأخرى في يقظته ومنامه فيخالجه شعور شديد بالقلق إزاء ما يستقبله من أيام ويتوجس في نفسه بقرب مصيره المحتوم كالذي حصل لسلمان!

- ٤ -

«مهند» في المرحلة الثانوية، كان يسكن أحد الأحياء الراقية في مدينة الرياض، وقد آتاه الله جمالًا وحُسنًا.. وآتاه بسطة في المال وسعة في الدنيا جرّاء ما كان يتمتع به والده من المكانة المرموقة والمنصب العالي..!

وعلى الرغم من صغر سنّه الذي لم يتجاوز السادسة عشر إلا أن أمارات التربية كانت مرسومة عليه.. وكان ذا خُلُقٍ عال تبدو عليه الفطنة والذكاء والثقة بالنفس.. كان أبوه ذا دراية تامة –بعد توفيق الله– بالتعامل السوي معه في ظل متغيرات الحياة ومراعيًا لمراحله العُمرية.. وكان يأمره بالصلاة وسائر أعمال البر ويخلق له من الفرص الدينية والدنيوية ما تُسهم في صناعته وتزيد في نمائه.

كان يُسدي إليه الكلمات التحفيزية والتشجيعية لاسيما أمام الآخرين والتي صنعت منه الطالب المتفوق الذي لا يُبارى في مراحله الدراسية، وجعلت منه المغامر الطموح الذي لا تكسره عوامل التردد وبواعث الخوف.

ولكن مع ذلك كله فمهند كانت لديه ثلمة سماع الغناء حاله حال الكثير من الشباب لا يعون خطورتها.. كان بمجرد أن يمتطي سيارته الفارهة يقوم بتشغيل الأغاني كي يتسلى بها فكانت تدعم عنده التفكير غير السوي وتفتح له آفاقًا من التخيلات الموهومة.

تعرف على زميل له في المدرسة يدعى ماجد، واطمأن إليه كثيرًا.. وعلى الرغم من أن ماجدًا قد تقدم أقرانُه عنه، ويكبُر مهندًا بعامين أو أكثر إلا أن مهندًا أُعجب بصمته وطرافته، وكان يشم فيه رائحة الصدق ويرى في محيّاه الوفاء.

لم يكن من طبيعة مهند أن يُقوّي علاقاته بالآخرين لكنه مع ماجد وجد مساحةً مفتوحةً للتواصل.. وقويت العلاقة بينهما، خرج ذات يوم من المدرسة مع انتهاء اليوم الدراسي، وما إن ركب سيارته، واستتم في الطريق غارقًا في التفكير إذ أتته سيارة فحاذته من الجانب الأيسر واقتربت منه كثيرًا، وإذ بالشابَين الذين يمتطيانها يلّوحان له يريدانه أن يتوقف..!

فكر مهند في الهرب لكن به من عزة النفس ما يأبى عليه ذلك إضافةً إلى احتمالية أنهما لا يُضمرانِ له السوء.

نظر إليهما مرةً أخرى فلم يواطئه قلبه للتوقف.. آثر أن يتغافل فصرف نظره عنهما واستمر في طريقه دون أن يبدي أي ارتباك، لكن السيارة ما زالت تجاريه.. اقترب من منزله والحال كما هو، وخشي أن يعرفا المنزل فيتعقبانه ويؤذيانه في المستقبل فبدأ بالتهدئة وهما يأمرانه بفتح نافذة سيارته المظللة ولم يعد يجدي التغافل.. وفي تلك الأثناء ارتطمت بنافذته علبة ماء ممتلئة فتوقف على الفور، بدأ يفقد السيطرة على أعصابه وأمارات الخوف تعلوه ولم يكن قد وقع في مثل هذا المأزق الذي لا يطمئنّ لعاقبته!

بقي في السيارة وترجَّل إليه أحدهما.. نعم، ماذا تريد؟

- انزل يا جبان..

- مهند يطيل فيه النظر: ماذا تريد؟

الشاب الآخر وكان في السيارة نادَى صاحبه: اصفعه على وجهه، خالد يمسك بتلاليب مهند: انزل قبل أن يأتيك ما لا يسرَك.

مهند يتسلل إليه التفكير بأنه لو نزَل فلربما سرقوا السيارة، لذلك هو لا يزال يتمنَع عن النزول.. وخلال لحظات قليلة جدًا وإذ بسيارة أخرى تتوقف.. (اتركه يا لعين)، وإذ به

ماجد ومعه ثلاثة أصدقاء لا يعرفهم مهند.. اقترب ماجد من خالد وصرخ في وجهه، وجاء شابٌّ كان مع ماجد وحاول تهدئتهم وما زال يقنع خالد والذي معه.. فانصرفا، وهكذا استطاع ماجد أن يدحرهم لينجو مهند.

لا عليك فأنت إنسان متربِ ومؤدب وهؤلاء مجرد صعاليك فارغين لا ينبغي أن تهب لهم شيئًا من تفكيرك.. وأردف: اعتبرني أخاك (قاله ماجد).

مهند: أعجز عن شكرك، هذا رقمي وأنا أدعوك الآن للغداء معي.. ولم يكن يملك جوّالًا خاصًا حينئذٍ سوى أصحاب الرفاهية والغنى!

شكرًا وسأزورك لاحقًا بإذن الله.. أستأذنك الآن.

حسنًا.. دعني- فقط- أريك منزلي فهو قريب.. اتبَعني.. ثم أراه المنزل وانصرف.

انقلبوا في طريقهم عائدين.. ولحقوا بخالد وصاحبه وأخذوا يتبادلون الضحك..!

دلف مهند إلى منزله وقد أثّر هذا الموقف في نفسه، فعلى الرغم من أنه لم يُصَب بأذى لكنه شعر بشيء من الضعف

والاستكانة، وراح يفكّر في الانتقام بالطريقة المناسبة، وفي حين ذلك فهو يخشى من تفاقم المشكلة وتصعيدها على غير أساس يستحق.

كان يرى ماجدًا كل يوم فيدَّكر ذلك الموقف الذي ضَعُف فيه أمامه.. يتناساه تارةً ثم يعود يفكّر فيه، وأما ماجد فكان يتعامل معه كما لو كان لم يحصل، ويتحدث معه في أمور بعيدة تمامًا يتظاهر معه بالنبل والخلُق الحسَن..!

ورغم اقتناع مهند بما كان عليه ماجد من الأخلاق الحسنة وصدقه في التعامل إلا أنه كان يلفت انتباهه وجوده أثناء الفسحة وخلال الأنشطة غير الصفّية مع طلاب سيئين.

بعد مضي أربعة أشهر وقد تنامت العلاقة بينهما وتبادلا الزيارات.. يأتي زميلهما أحمد –الشاب الضخم– إلى مهند ويكلمه بكل أدب.. ينصحه بالابتعاد عن ماجد قائلًا: هذا إنسان سيء، ولا يصحب إلا السيئين، وأنا أعرفه أكثر منك له سوابق داخل المدرسة وخارجها، لكني أراك مخدوعًا به، انتبه أن يؤثر عليك.

كان يكلمه ويتطابق ذلك مع ما كان يفكر فيه مهند حيث نظرات المعلمين لم تهدأ تجاهه بلا استثناء، وكلماتهم تتوالي

عليه بما لا يُطمئِن وبما يوحي عن ترسب قناعات سابقة لديهم تُنبئ بشرّه..!

في أحد أيام العطلة الأسبوعية يتلقى مهند اتصالًا من رقم مجهول:

- ألو.. نعم.

- السلام عليكم..

- عليكم السلام.. من معي؟

- أنا ماجد.

- أهلًا بك.. ويسمع قهقهات وضحكات غريبة حوله!

- سأستضيف اليوم عددًا من الأصدقاء في استراحتنا الخاصة ولابد أن تكون من الحاضرين.

- مهند وقعت في قلبه الريبة: هل أعرفهم؟

- ربما.. لكنهم يعرفونك جيدًا، وأحس مهند بحرارة في جسمه (ثم توقف ماجد كأن أحدًا يملي عليه الكلام) ثم أكمل حديثه: لا عليك، المهم أن تأتي.

- حسنًا سأحاول إن شاء الله.. وأغلَق الخط.

- لم يطمئن أبدًا مع هذه المكالمة، وأخذ يزداد إحساسه بمكرهم شيئاَ فشيئًا .. وفي وقت متأخر من الليل انهالت عليه الاتصالات من أرقام عدة.. أجاب على إحداها : ألو.. فيُسمِعَه المتصل صوت أغنية غزلية.. أحس بقشعريرة وأغلق الجوال مباشرة..!

قال في نفسه: لقد تورطتُ مع هؤلاء الخبثاء، إنني لم أُعط الرقم لأحدٍ سوى ماجد، ويجب عليّ أن أبتعد عنه وعن رفاقه لكن بطريقة مُسالِمة لئلا أقع معهم في شراك العداوة فهم أشرار، وأهل الشر دائمًا ما يألفون المشكلات ويعيشون معها بكل أريحية.

❋ ❋ ❋

- ٥ -

سعد بات يدرس في الصف الثالث الثانوي، كان أبوه يعتمد عليه في كثيرٍ من الأمور بل لا يوكل إلى غيره شيء، كان سريع الانصياع لوالده، لا يحب الخروج من المنزل كثيرًا لاسيما إذا تعارض ذلك مع حاجيات أهله فهو قريب منهم دائمًا، كان يعطيه أبوه مفتاح السيارة ويحدد له الوقت المُقدّر لكل مشوار.. أما عبد العزيز رغم أنه أصبح في سنته الأولى من الثانوية إلا أن علاقته بأبيه قد تغيرت للأسوأ وبات يختلف معه كثيرًا، ولم يكن عامر ليطمئن في يوم من الأيام ويعطيه سيارته الوحيدة، مع هذا فالابن أصبح يستشعر كونه انتقل إلى محيطٍ أوسع، وأن زمن الحَجْر والتضييق في المنزل قد ولى وانتهى أمده.

كان يعتقد عبد العزيز أن جُلّ أصدقائه يغدون ويروحون كيفما أرادوا وحيث شاؤوا، وأضمر في نفسه أن يتحرر من قيوده وأن يمارس هواياته ورغباته -دون أن يخضع لأي شخص أو عرف أو تقليد- كما هو حال رفاقه، فكان يذهب في كل يوم لمشاهدة أصدقائه بعد صلاة العصر وهم يلعبون الكرة،

وأحيانًا يجتال يمنةً ويسرة في طرقات القرية ويذهب هنا وهناك، على أنه قد عافَ الكبت لسنوات طويلة في المنزل.

وفي حال التجمعات الكروية كان يَلحظ بعض الشباب الحافين بالملعب وهم يدخنون ويتكلمون بكلمات نابية ويهمزون اللاعبين ثم يراهم في نفس الوقت فرحين تملؤهم العزة.

طَفِقَ مع مرور الوقت يخالطهم ويتعرف عليهم على أمل التحرر من شعوره بالوحدة والانقباض إلى رحابة الأمل والاعتداد بالنفس والعيش الكريم.

لم يعُد يستسيغ أوامر والده والذي لا يعطيه من المال ما يكفيه مثل غيره، إلى درجة أنه أصبح عالةً على رفاقه.. وكان يتساءل: لماذا يقرن بيني وبين إخوتي في بعض الأمور فلا يراعي الفروق العمرية بيننا ويريد أن يحجرنا جميعًا في المنزل وإذا ما اشترى لي شيئًا اشترى لهم مثله ويُكرِهنا على النوم في وقت واحد.. الخ

ومضت الشهور وتخرج سعد من الثانوية، ليتم قبوله في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود بأبها، فكان يزور أهله وأمه أثناء الإجازات القصيرة، افتقده أبوه وأحس بوجود ثغرة كبيرة بعده! عبد العزيز كان يستشعر ذلك جيدًا فيحاول جاهدًا

أن يخدم أباه بما يستطيع رغم تجدد المشكلات بينهما حيث غيابه المتكرر عن البيت، والسيارة لم يكن ينالها إلا في حال الضرورات فإذا أخذها تأخر من غير طائل، وكان أبوه يشم رائحة التدخين فيها بعد أن يأخذها عبد العزيز فلا يكاد يجزم حيث اختلاطها برائحة عطر.

وذات ليلة انتبه الأب من نومه قبل الفجر بساعة، وسمع أصواتًا خارج المنزل تشبه صوت أناس يتحدثون يخالطها بعض القهقهات والضحكات، أخذ عصاه -وكان طويلًا في قامته- ثم هرع إلى الباب الذي يشرف على الشارع ونظر من الثقب فإذ بسيارته وسط الطريق وإلى جانبها سيارةٌ أخرى.. كانوا يتحدثون مع بعضهم، والغناء يصدح من مسجل السيارة الأخرى بينما شاب يقف بين السيارات يشعل سيجارته، لم يسطع عامر حينها أن يميز الأشخاص الذي كانوا مع ابنه حيث الظلام الجاثم، ولم تكن الإنارات موجودة آنذاك، وفجأة فتح الباب وأسرع باتجاههم فلم يتحركوا، والتف باتجاه مكان السائق يظنه ابنه فإذا هو شاب آخر مكانه، ولثوانٍ يُفتح باب الراكب ويفر ابنه هاربًا، أخذ يعدو وراءه بضع خطوات لكنه ابتعد فرماه بعصاه واستطالت ظهره، أحدث صيحة ثم واصل ركضه، أخذ الوالد عصاه وعاد إلى الشباب، الشاب الموجود

بسيارته فتح الباب بشكل جزئي واقترب عامر منه وقال بصوت مخيف: انزل، ورفع عصاه، الشاب يبتسم ويبدو احمرارًا في عينيه، ثم أزاح الابتسامة: (أبشر، بس لا تمد يدك) وأخذ يفتح الباب وهو ينظر إلى عامر بنظرة واثقة كما لو كان مستعدًا لمقاومته، وعامر حينها يحملق في هذا الشاب الذي يبدو قد جاوز العشرين من عمره ثم قام بتمرير نظره إلى الشابَّيْن الآخَرَين في السيارة الأخرى، ويبدو السائق ليس غريبًا: (أنت ولد من؟!)..

السائق يبدو مرتبكًا: أنا؟

نعم أنت! ويقاطعهما الشاب الذي كان في سيارة عامر وهو ينظر إلى صديقه: (لا تقول له ما اسمك.. ما له دخل)..

ينظر فيه عامر بنظرة كراهية ويهمّ بضربه وهو يركب سيارة صديقه، لكن عامر خشي أن يُحرجوه، وقال في نفسه: يبدو أنهم من خارج القرية فلو كانوا من حولنا لاحترموني.

وما زال يحذرهم أن يعودوا لهذا المكان وهم يتراجعون عنه بسيارتهم إلى الوراء!

بدأ يشعر برعشة بما يفيد بارتفاع ضغط الدم لديه.. وركب سيارته، وهو ما زال يردد السب والشتم بصوت خافت،

وعرف أن عبد العزيز لديه نسخة أخرى من المفتاح ومعنى ذلك أنهم يسرقون السيارة كل يوم.. وأخذ يلعنه ويدعو عليه!

مرت أربعة أيام لم يجرؤ فيها عبد العزيز أن يعود للمنزل، إلا أنه كان يتحَيَّن غياب أبيه عن البيت فيأخذ بعض أغراضه ويخرج مباشرة.

ولم يكن عامر يقلق كثيرًا لغياب ابنه عن المنزل في مثل هذه الظروف لأنه غالبًا ما يكون عند أمه!

في اليوم الخامس عاد عبد العزيز بعلم والده ولم يكلمه الأخير لمدة ثلاثة أيام بعدها، وكان عبد العزيز أثناء ذلك يحافظ على صلاة الجماعة لعلمه أنها تمثل شيئًا كبيرًا عند والده.

وعامر قد أخفى شعوره بالندم تجاه الموقف الأخير حين رمى ابنه بالعصا أمام أصدقائه، في نفس الوقت هو لا يريد أن يُبدي له أي تساهل إزاء ما بدَرَ منه.

وبينما عامر يقترب من منزله بعد صلاة العصر إذ بعبد العزيز خارجٌ كعادته، ولأول مرة يكلمه منذ ذلك اليوم الذي تمت فيه سرقة السيارة، قال له: لا تبقَ إلى الغروب حيث سيفد إلينا بعضُ الضيوف من مكانٍ بعيد وسيكونون متواجدين في

وقت مبكر ويبقون معنا للعَشاء.. وحذَّره من مغبَّة التأخر، إلا أن عبد العزيز تساهل في الأمر نظرًا لوجود أخيه سعد حينها، وآثر الأُنس مع رفاقه وبقى معهم حتى انسلخت عَسْعَسَةُ الليل، وهناك امتلأ الأب غضبًا وبقي ينتظره... ولما أن أطلّ على أبيه وضيوفه بادره الأب موبخًا: أين كنت؟؟!

عبد العزيز كما لو كان متضايقًا من سؤال أبيه أمام الموجودين:

كنت مع أصدقائي، (قالها بشيء من العزة)..

ومضى يصافح الحاضرين، وأبوه ينظر إليه نظرة استهجان.. وما إن أكمل السلام عليهم حتى سأله ابوه:

- لماذا تأخرت؟!

- الابن بصوت منخفض: ليس وقت تحقيق، ثم جلس..

- لم يفهم الأب همهمته: (وش قلت)؟، أُخرُج!

- فأعاده أحد الضيوف بعد إلحاح وأجلسه بجانبه مخطِّئًا الأب، ودار الحديث ساعة فكأن نظرات الأب هدأت قليلًا، أمر ابنه بمساعدة أخيه في تحضير العَشاء..!

وعاد المجلس من جديد وأثير موضوعٌ يتعلق بالمدرسة، وحينما أراد عبد العزيز مشاركتهم برأيه نهره الأب واستصغره،

ومالت عنه بعض أعين الجالسين كذلك، فهم لا يريدونه أن يتكلم بحضرة الكبار!

أصبح منكسر الخاطر، سُلِبت منه الثقة وحُطِّمت فيه المعنويات، تقرر في نفسه أن هؤلاء الموجودين كلهم متحجرون لا يفقهون شيئًا!!

في اليوم التالي سمع عبد العزيز الأصوات قد تعالت بين أخته زهرة وأخيه سعد، كانت تطلب منه أن يوصلها لزيارة أمها ويرفض قائلًا: كلام أبي هو الذي يمشي رغمًا عنكِ ولن تذهبي إلى أمي لأنكِ ستزيدينها بهذا الموضوع همّا وغمّا..!

ويتدخل عبد العزيز يبدو متعاطفًا مع زهرة: ما الأمر؟ وكان ينظر إليها فتؤثر الصمت لا ترد عليه، فيشيح بنظره ناحية سعد:

لماذا ترفع صوتك عليها؟

سعد ينظر إليه ساخرًا: ارجع إلى أصدقائك الذين تمشي معهم، فأنت لا تدري عن أهلك شيئًا!

- اسكت يا منافق، تتقوى على أختك هنا لكنك لا تجرؤ على الاحتكاك بالآخرين!!

يقتربان من بعض: بل خرجتُ ورأيتك تدخن مع الفسقة يا فاسق.. ويشتبكان بالأيدي فما زالا يتبادلان الصفعات واللكمات وزهرة تصيح على مجيء ابوها وهو يزمجر غضبًا، لم يستطيع التفريق بينهما إلا بعد أن أوجعهما بعصاه التي دائمًا ما تكون قريبة منه، لزم سعد الصمت بينما أخذ عبد العزيز يتطاول عليه بالكلام وهو يمسح بقعة الدم التي كانت في وجنته، حاول أبوه أن يُسكته فلم يستجب فأمره بالخروج، ورفع الابن صوته: أنت تحبه كثيرًا، وتكرهني منذ كنتُ صغيرًا، وتتكلم عليّ أمام الناس لأتفه الأسباب، وتطردني.. ثم خرج.

تأثر عامر بكلام ابنه: (أنت تكرهني منذ أن كنتُ صغيرًا).. كاد الأسى أن يعتصر قلبه فعاد على سعد يوبخه، وزهرة واقفة تستمع: ما سبب اختلافك معه؟

سعد يبدو نادمًا على ما بدر منه: هذه هي سبب المشكلة تريد أن تذهب إلى أمي.

ماذا تريدين منها (يا بنتي)..؟ فهذا الوقت ليس وقت زيارتكم لها!

أريدها في موضوع خاص، قالته وهي تنظر إلى الأرض محمَرَّة الوجه.

سعد متحدثًا: إنها تعترض على ابن صديقك الذي جاء يخطبها ليلة البارحة.

الأب يطيل النظر في ابنته: لكنكِ ابديتِ موافقتُك ووعدناهم خيرًا.

البنت منزعجة: أريد أمي.. أريدها في موضوع آخر.

سعد يكذّبها: أنت قلته قبل قليل تريدين أن تشتكي إليها.

الأب يُسكت سعدًا: ألبسي سأوصلك أنا.

* * *

- ٦ -

استمرت الخلافات بين عبد العزيز وأبيه، واستمرت معها المعاملة القاسية والنظرات الساخطة من الأب.

قال الابن في نفسه: ليس أمامي من خيار مع هذا الأب الذي دائمًا ما يستلذ بالتلفظ عليّ ويكرر عبارات التخذيل والإهانة سوى المداهنة معه حتى أتخرج من الثانوية، وسأفعل ما يروق لي بعد أن أذهب من عنده.

في المسجد الصغير المجاور لمنزل عامر والذي لا يتسع لأكثر من ثلاثة صفوف يؤمهم فيه رجُل سبيعيني يُكنى بأبي سعيد، يلحَن في القراءة أكثر مما يُصيب، ويغاضب كل من ينصحه، فقيرٌ في بذل التبسم، يهرف بما لا يعرف في أمور الدين، ليس له حظّ من الأسلوب الجيد مع المخالفين..!

أتى إلى عامر قبل صلاة العشاء في بيته ليتأكد من وجوده وقال له: أريدك بعد الصلاة في موضوع مهم فلا تنصرف من عند المسجد، وكعادتهم كانوا يتحدثون خارج المسجد بعد كل صلاة، دلف هذا الإمام المُسن نحوهم بعد الصلاة ثم وقف فيهم شاكيًا جريمة السطو التي وقعت في بيته، متهمًا في ذلك

ثلاثة شبان ناصر وأحمد وعبد العزيز، وأردف رأيتهم واقفين عند عتبة الباب مُلثَّمين وكانوا يتآمرون على وشك التسلل إلى المنزل ثم انصرفوا حين رأوني، ولما استيقظتُ لصلاة الفجر وجدتُ مصراع باب الحظيرة قد اجتُثَّ من مكانه وتمت سرقة واحدة من الضأن.. قاطعه أحد الموجودين ممن ليس له علاقة بالأمر وكان يخاطب آباء المذكورين: أنتم لا تدرون عن أبنائكم ومهملين أيما إهمال في تربيتهم، وقام آخر يُغلّب الظن على أن هؤلاء الثلاثة هم الذين قاموا بتكسير سيارته إذن في الأسبوع الفائت!

لم يزد آباء المتهمين على بعض الاستيضاحات من إمام المسجد حول حقيقة ما حصل وبدت عليهم أمارات الخيبة والغضب!

رجع عبد العزيز إلى أهله سَحَرًا وتلقاه أخوه سعد وأنذره بطش أبيه، وهمس إليه يسأله: هل سرقتَ؟!!

ماذا؟!

سمعتُ أبي بعد صلاة العشاء يتسخط عليك وينعتك بالسارق ولم أستطع أن أستوفي منه شيئًا حيث كان غاضبًا، فهل سرقت مِن أحدٍ شيئًا..؟

عرف عبد العزيز أن هناك تهمةً قد رُمِيَت عليه، وهو يعلم جيدًا أن أباه سريع التأثر بكلام الآخرين ولن يَقبل منه ولن يُصدّقه في شيء..!

فكر بالذهاب إلى والدته غير أنه لا يملك السيارة التي تُقلّه إلى هناك كونه في وقت متأخر من الليل، فهرع إلى صديقه ناصر الذي فارقه للتو، هَرَع إليه راجلًا، ولما اقترب من منزله إذ بالباب الخارجي يُدفع دفعًا شديدًا وأشبه بصوت العراك بالداخل، تراجع عبد العزيز للوراء وهو يسمع استنجاد والدة ناصر ولم يفهم شيئًا مما قالته!

ابتعد أكثر واعتقد بوجود خلاف بين الأبوين.

عاد قافلًا إلى المنزل وهو يفكِّر: كيف أحصل على السيارة التي أتبلغ بها إلى أمي؟ وكان قد رُفِع الأذان لصلاة الفجر حينئذ، وما إن أصبح منزل ناصر يُتراءى له من بُعد وإذ به يسمع صوت الباب يُفتح بعنف، رأى ناصر وهو يخرج ثائر الرأس مفتوح الأزرّة، ثم امتطى السيارة وانطلق جامحًا لا يُدرى إلى أي جهة يريد!!

عاد عبد العزيز إلى المنزل ولما يدخل فيه بعدُ حيث استتر قريبًا يرقُب خروج والده للصلاة ليَخلفه إلى الملجأ المعتاد (الغرفة الخارجية) ينام فيها إلى أن ينتصف النهار.!

وتمت له كما أراد واستمر على ذلك الحال يومين، يأتي قبيل الفجر ويخرج حين يستيقظ من نومه، والغريب هو سكوت والده حيث عَلِم بوجوده ومع ذلك لم يقل شيئًا..!

كان عبد العزيز يلتقي ناصر كل يوم ولم يُفصِح له الأخير عن شيء.. إلى أن جاءت تلك الليلة التي سأله فيها ناصر:

- أشعر بأن ثمة خلاف بينك وبين أبيك، هل هذا صحيح؟!

- نعم.

- هل لك أن تخبرني بسبب المشكلة؟

- عبد العزيز يطفئ سيجارته: نعم، وبدأ يحكي ما جرى له بأن أخاه سعد قد أخبره بوقوعه في تهمة سرقة، فبدأ بالتخفي عن أنظار والده، يقول وسألته في اليوم التالي فأخبرني أنه لا يعلم سوى ما سمعه من أبي أول مرة وهو يصفني عند امرأته بالسارق، وفهم سعد حسب قوله أنني سرقت أحد المنازل القريبة.. يقول لكن أبي لم يتحدث كثيرًا في شأني!

فهذا جعلني أتحاشى مقابلته فقد وصل السيل الزبى وكل يوم وأنا معه في خلافات، أريد أن اقضي الثانوية بسلام

ثم أنتقل إلى إحدى المدن لأدرُس المرحلة الجامعية هناك وأعيش حُرًا سالمًا من التُهم والمشكلات.

ناصر يهز رأسه متعجبًا مبتسمًا: أنا وأنت يا عبد العزيز وصديقنا أحمد في ذات التهمة، والذي اتهمنا بالسرقة هو الرجل الأشيمط إمام المسجد، أتذكُر ذلك اليوم عندما كنا نتحدث على حافة الطريق قريبًا من بيته عندما خرج إلينا وكان حافي القدمين ممسكًا بعصاه، يوم أن سألنا من نحن فأجبناه ثم اعتذر إلينا وقال اعتقدتُ بأن ثمة أحد يريد أن يسرق ثم عاد منكفئًا إلى بيته... أتذكر؟؟

نعم أذكُر ذلك جيدًا وقمنا نحن بالابتعاد بعدها عن منزله خشية إزعاجه أو إزعاج عائلته.

قال ناصر: إذن فلقد استصرخ في اليوم التالي بالمصلين وقال لهم كاذبًا أنا سرقنا شيئًا من ضأنه، وضربني والدي ضربًا مبرحًا وهربتُ بعدها إلى بيت أخي الأكبر.

عبد العزيز يهز رأسه كالذي يتذكر: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، بالنسبة لي فأنا لم أعُد أطيق الحياة في هذه القرية وقد عشتُ محرومًا من أمّي بسبب هذا الأب!

سكت قليلًا ثم أردف: إنه ليتودد إلى امرأته ويتزلف إليها بخلاف ما كان عليه مع أمي.

يسمع لامرأته هذه كل ما تقول إلى درجة أنه كان يغلق علينا أبواب المنزل أحيانًا ويذهب هو وإياها في المناسبات والأسواق ليعودا إلينا بعد مضي الساعات الطوال، ولقد سمعتها ذات يوم تحرّضه على عدم إعطائنا المصروف الذي نحتاجه بحجة ألا نقع في التدليل الزائد ومن ثمّ نعتاد على استنزاف المال..!

ولم يكن يضحك معنا حتى يوم أن كنا صغارًا إلا في النادر، وبعد زواجه مباشرة عطفّ علينا بُرهة ثم ما لبث أن تغير وبات يعاملنا كما لو كنا نحن من أذنب –قاطعه ناصر– وكيف علاقتك بزوجة أبيك؟

– لا أراها إلا في النادر، ولستُ حريصًا على ذلك!

– لكن هذا التصرف ليس بصحيح!

– أنت لا تعرفها، إني لأرى كره والدتي في عينيها رغم أنها لم ترها.

– كل الضرائر كذلك.

- إلا والدتي.

- اسمح لي: بل إن والدتك هي أول من استجمعت كره زوجة أبيك، ألم تخرج مغاضبة لوالدك كما ذكرت لي آنفًا؟

- لكنها خرجت بسبب زواج والدي عليها، لا لذات زوجته الجديدة.

- لكنها لو لم تكرهها ما خرجت.. قاطعه عبد العزيز: ألا تفهم! قلت لك أن خروجها كان بسبب تصرف والدي كونه تزوج عليها!

- كل من تزوج عليها زوجها ادّعت ذلك، والحقيقة أن الدافع في ذلك هو كُره الأخريات وحسَدهنّ.. ثم نظر قليلًا في عبد العزيز ويبدو الأخير مستاءً، ولربما- أيضًا- كان حسدًا للأزواج أنفسهم لا لزوجاتهم الجُدد.

- وماذا تريد بهذا الكلام.

- ولماذا تغضب أنت عندما نتناقش!؟ ما قلته هو مجرد وجهة نظر.

- لكنها غير صحيحة إطلاقًا.

- ربما..

وأضاف ناصر: في المقابل، بحكم معرفتي القوية بك، فأنا لا أراك تذهب لوالدتك إلا في شكل زيارة! كنتُ أتردد أن أقول لك هذا الكلام، والآن سنحت لي الفرصة زوروها واذهبوا بها للأسواق وأماكن النزهة، تلمسوا حوائجها، صدقني لن تجدوا من يحبكم ويهتم بكم مثل والدتكم، لا أب ولا أخ لا صديق..!

الغُصَّة كانت قد استحكمت في نفس عبد العزيز..

في عشية اليوم التالي دخل على أبيه بعد أن بيَّت النية في التصافي معه وقبَّل رأسه إلا أن الأب لم يزل في جفوته، تباعد الابن وقعد في ناحية من الغرفة وقال:

- أنت تُصدِّق كلام الآخرين ولا تود أن تسمع مني شيئًا؟

- أتريد أن أكذّب الرجال وأصدّقك؟

- عبد العزيز مبهوتًا: وأنا؟ لقد أصبحتُ رجلًا ولم أكذب قط في حياتي..

- اسكت -هكذا قاطعه الأب عابسًا- ويمسك بالكوب الحديدي يَهِمّ أن يرميه: ولماذا تتخفى إذن يا فاجر؟!..

- عبد العزيز وهو يعبث بأصابعه: لا تسبّ.

استمرَّ سباب الأب، ورفع الابن صوته على أبيه مستنكرًا! مما حدا بالأب أن يخرج من طوره ورماه بالكوب فاتقاه الابن بيده ثم غادر من الغرفة، والأب يمشي خلفه يهدِّد ويندِّد، زوجته كانت تهدئه.. تحاول إسكاته فلا يلتفت إليها، قال الأب: لو كنتَ رجلًا لكنت مثل قريبك «حسين» الذي أصبح مضرب مثل في القرية، لكنك فاشلٌ ولا تصحب إلا الفاشلين أمثالك.

وفتح عبد العزيز الباب الخارجي ثم التفت إلى أبيه: لكن حسين لم يقصّر أبوه في حقه ولم يطلّق أمه ليّؤثِر زوجته الأخرى، قالها عبد العزيز وهو ينظر إلى زوجة أبيه.. أغلق الباب بأشد قوته ومضى!

قابله ثلاثة شبان من أصدقائه راجلين (سعيد وصالح ومحمد) وكان يعرفهم لكنه لم يكن يحب البقاء معهم لفترات طويلة فهم أشرار ومعروفون بذلك، إلا أنه في هذه الحال لم يجد بُدًّا منهم فهو يرى أن الأرض كلها لا تُطيقه وأصبح يجد من نفسه الحرية التامة في فعل ما يصلح وما لا يصلح دون أن يخشى أبًا أو أحدًا آخر..

بقى مع رفاقه بقيَّة الوقت ومضوا إلى مكانهم المعتاد في التل، والذي يقع في طرف القرية، كانوا يتسامرون فيه وقد جعلوا منه موضعًا للطبخ والشواء، وكانت الليالي آنذاك ليالِ قمرية متزامنة مع وقت الصيف حيث سكون الرياح ونقاوة الجو.

أنِس بهم عبد العزيز وأنِسوا به، وبعد منتصف الليل ألقى محمد سؤالًا غريبًا لم يفهمه عبد العزيز: ما رأيكم.. من الذي سيقوم بالمهمة اليوم؟!

قال سعيد: أنا سأتولى التنفيذ لوحدي، ولا أريد منكم سوى مراقبة المكان لا سيما من جهة القرية، ثم التفت إلى عبد العزيز وقال:

بالنسبة لك فستبقى هنا حتى نعود إذ ليس لديك ما يكفي من الخبرة في هذا المجال، قالها بسخرية.

- سألهم عبد العزيز: وأين ستبذهبون؟

- (انتظرنا هنا - ساعة - ونكون عندك) قالها محمد، وزاد: سنأتيك ببعض الغنائم... إلى اللقاء.

قفز سعيد سور مدرسة البنات الابتدائية المستأجرة يريد المقصف بعد أن أمَّن أهمّ جهتين مؤديتين للمدرسة بوضع

صديقيه مراقبين فيهما، تأخر هو بالداخل لا يفتأ يفك مزلاج الباب الحديدي وهما يسمعانه.. لحظات وإذ بصوت سيارة قادمة، ولم يكن ثمة طريق يُمكن للسيارة أن تعدل فيه، بمعنى أنه لا بد لها أن تجوز المدرسة، صاحبه صالح ناداه بأعلى صوته وهو يركض جهة السور سعيد أُخرج.. أُخرج، لم يُجبه سعيد بشيء في حين أن محمد قد سمع صوت السيارة من الناحية الأخرى ورأى أنوارها فولى هاربًا ولم يُعقِّب، السيارة تقترب وتزداد سرعتها وسعيد لا يُسمع له صوت، هرب صالح أيضًا ظانًا أن سعيد قد غاص في وسط المبنى متخفيًا.

(يبدو أن صاحب السيارة قد رآنا) هكذا فكر صالح.. ثم تناءى في مكانٍ بعيد وهو يرى أنوار السيارة تقف عند المدرسة، بقي هنيهة والسيارة تتقدم تارة وتقف تارة.

استدارت على مَهَلٍ نحوه وأشاح صاحبها بالنور العالي تجاهه فعرف أنه يقصده، انطلقت السيارة ناحيته مسرعة فاشتد ركضه رغم علمه أنها ستتوقف لعدم وجود منفذ لها في جهته التي هو فيها، وآثر الاستمرار جهة المكان الذي كانوا جلوسًا فيه.

- ٧ -

استشار مهند والده حول ما يحصل له، فهو الأب المثالي له والأخ الناصح والصديق الوفي والمربي الفاضل.. استنصح أباه وذكر له ما حصل إجمالاً دون أن يذكر الموقف الأول الذي أنقذه فيه ماجد.

عاتبه الأب: وكيف تنساق وراءه يا بني بهذه السهولة؟؟!!

- لم أرَ منه سوى الخُلُق الظاهر.
- وهل علاقتك به الآن ما زالت قوية؟
- نعم.
- هل سبق لكما التزاور؟
- نعم.

أخذ الأب يتقصَّ أكثر، ويسأله عن نظرة المعلمين لماجد وعن سلوكه داخل المدرسة، وعن أصدقائه الذين يمشي معهم، وما زال الأب كذلك حتى بدَت علامات التغير في وجهه.. ثم سأل ابنه: كيف لك أن تُبقي علاقتك معه وهو بهذا الحال؟ لا بد أن تبتعد عنه بلا هوادة؟ ثم انظر ردة فعله بعد ذلك..

في أحد أيام الدراسة وأثناء ما كان المعلم غائبًا، واللغط ينبعث من الفصل الذي يدرس فيه مهند، والفوضى كانت تعُمّ الطلاب.. سقطت أثناء ذلك بعض الصور من الثوب الذي كان يرتديه ماجد، وبعثرها أحد زملائه في عرَصَات الفصل بقصد ممازحته!

كان ذلك مع بداية قرع الجرس للفسحة، ولسوء حظه هوت إحداها عند مهند، ولَحَظها أسفل منه فإذا هذه الصورة تجمع بين ماجد وخالد الذي أراد الاعتداء عليه آنفًا.

أسرع ماجد إلى الصورة والتقطها ويبدو ساخطًا على زميله الذي بعثر الصور فمازال يتكلم عليه، ثم ألقى بنظرة هادئة إلى مهند الذي كان يشخص فيه ببصره هو الآخر.. اقترب ماجد منه وعرّض بالصورة أمامه.. وهو يقول بصوت خافت:

- هل تعرف هذا؟ وكان يشير إلى خالد في الصورة.

- أجاب مهند بصيغة السؤال: هذا صديقك؟؟!

- ماجد في نشوة: نعم، هو أعز أصدقائي، هل لديك اعتراض؟

- مهند ينهض: الحمد لله الذي أظهر حقيقتك.

أخذ مهند يغادر وماجد يتعرض له بوجهه ويصف جمال عينيه كالذي يمزح مع شيء من الجدّية، أزاحه بيده كالذي يتحاشاه وماجد يصرّ ويقترب منه أكثر وتبدو رائحة فمه.

عمَد مهند فأغلق الباب ثم أقبل إليه بوجهه وترك الباب وراءه ويبدو أكثر هدوءًا وثقة: ماذا تريد أيها الخائنُ؟!

أصبح ماجد في موقف حرج ولا يُريد أن يستكين أو يتضعضع أمام زملائه القلة الموجودين، ثم قال لمهند كلمةً تدل على تعلقه به وحبه المُحرّم له.. صفعه مهند صفعةً مسددة، أمسك ماجد بالطاولة القريبة بعد أن كاد أن يسقط وأصبح شماغه يغطي عينيه، تدخّل زملاؤه مباشرةَ للتفرقة بينهما ومهند كان يحاول انتزاع الكرسي الذي نَشب تحت الطاولة القريبة منه يريد أن يقذفه به.

ماجد لم يَزِد على الألفاظ القبيحة يسبه ويشتمه بها واتهامات سيئة جدًا كان يقذفه بها، اعتلت الأصوات ويُدخِل مهند يده في جيبه ويستل حزمة المفاتيح على غرة من زملائه الذين ألجؤوه في زاوية الفصل ويرم بها ماجدًا فتستقر في ترقوته، فيضطر الموجودون لإخراج مهند.

انتهت المضاربة وامتلأت القلوب غيظًا وكراهية..

وفي نفس اليوم أطلّ خالد من الباب في ثنايا الحصص ومعه طالب آخر لا يعرفه مهند.. وقال خالد بصوتٍ يسمعه كل طلاب الفصل مخاطبًا مهند: موعدنا بعد الانصراف يا ابن الكـ...

بدأ مهند يحس بالخطر لأنه يُعتبر وحيدًا أمام هؤلاء الأشرار الذين اعتادوا المشكلات لا يردعهم دِينٌ ولا عُرف، وتوجه إلى ربه: (اللهم تولّ أمري واحفظني من كيدهم.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل).

لجأ مهند إلى أحد المربين الفضلاء -مِن المعلمين- يستشيره ويستفيد من توجيهه ونُصحه.

وبالفعل ساعده المعلم في ذلك اليوم -كخطوة أولى- على الانصراف قبل الوقت المعتاد للخروج.

استطاع المعلم الفاضل مع المرشد احتواء المشكلة في اليوم التالي وكان للمعلم طريقته الذكية في اقناع الطلاب السيئين وإطفاء النعرة الموجودة فيهم.

لكنه لم يكن ليطمئنّ في حال بقاء مهند معهم في نفس المدرسة لعلمه المسبق بمرامي هذه العصابة السيئة

وما تفعله من المؤامرات والتحرشات بالطلاب الوسيمين خاصة، بالإضافة إلى أن مهندًا طالبٌ محافظ ومتميز تربويًا وأخلاقيًا.

أشار على الطالب بعد أن هدأت الأمور بالانتقال إلى مدرسة أخرى أدعى في سلامته وحفظه من براثن هؤلاء الشباب على أن يتم التنسيق بين مهند ووالده بطريقة مهند الخاصة في إقناعه.

عزم مهند على الرحيل من المدرسة وأخبر بذلك بعض زملائه في كلام عرضي إلا أنهم نفشوا الخبر وأشاعوه، استغل ماجد ذلك واتهم مهندًا في عرضه ورجولته.. لذلك فهو يفكر بالانتقال إلى مدرسة أخرى!!

كان يرى مهند أن نظرات الطلاب له قد تغيرت خاصة زملاؤه في الفصل وبدت علامات الريبة في وجوههم ولم يكن يدري السبب..!

انتقل بعدها بيومين إلى مدرسة أخرى وقد استفاد درسًا رائعًا في حياته وعرف حقارة أصدقاء السوء وأن الصديق المخلص لا يكون كذلك بمجرد ما يَظهر عليه من الأخلاق الحسنة كما هو ماجد.

كَرِهَ التعامل معهم والطُرُق التي يسيرون فيها والأماكن التي يرودونها، وإيمانًا منه بضرورة وجود الأصدقاء فقد اختار التوجه لصحبة المتدينين أهل الاستقامة لا غير.

وبالإضافة إلى قابلية نفس مهند للخير وما جُبِلت عليه من محبة الصلاح وأهله فقد كان لذلك المعلم الفضل بعد الله في متابعته وتهيئة الصحبة الصالحة له.

اكتسب مهند من خلال معايشته لأهل الخير محبة التغيير وعَلِم أن بداية التغيير الحقيقي إنما هي في الطريق إلى الله والدار الآخرة بتدبر كتابه واتباع نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فتَرَك سماع الغناء ثم دعته همته في حفظ كلام الله فالتحق بإحدى حلقات التحفيظ بدعم والده وتشجيعه ومتابعته.

نَهِم في حضور الدورات والدروس العلمية على أيدي العلماء والمشايخ منذ آخر سنة له في المرحلة الثانوية.. وكان إمام المسجد يقوم بتوكيله في بعض الأحيان فاكتسب بذلك التعود على ملاقاة الجمهور وزادت ثقته بنفسه.

وفي لحظة صمت وأثناء ما كان مهند في مكتبته قطعَ تفكيره طرقُ الباب..

تفضل أهلًا يا أبي.

وأثناء جلوس والده معه، كان الوالد ينظر في الكتب ثم أخذ يقلّب فيها وكان واسع المعرفة شديد الاطلاع، وكان يملك شخصية قوية، كثير الصمت وأقرب للجد في كل شيء، لا يحب أن يرى أحدًا تبدو عليه اهتمامات ضعيفة أو أن يرى شخصًا ذا همة دنيئة.

- نظر في ابنه: أتقرأ كل هذه؟

- لا، فكما ترى هذه المكتبة الصغيرة بها ثلاثة رفوف، الرف الأدنى مخصص للكتب التي تمت قراءتها، والرف الثاني قد شرعت في قراءة بعض الكتب الموجودة فيه، أما الرف الثالث، وكان يحوي مجلدات كبار، فهو مراجع فقط أعود إليها في بعض الأحيان.. لاسيما في بحث الرسائل والإشكالات.

- نفع الله بك، أريد أن أقول لك شيئًا.

- نعم.

- الأب ولثوانٍ معدودة يخفض رأسه للأرض ويشيح بنظره لليمين.. اسمع يا ابني، ثم سكت قليلًا يمرر يده على جبينه: رغم ما أراه فيك من الميول العلمية والدعوية، إلا أنني ألمس فيك روح القيادة وحُسن التصرف ومناسب جدًا أن تلتحق بإحدى الكليات العسكرية وأنا بصفتي أعمل في كلية الملك

فهد الأمنية أودّها لك وسأجد لك رقمًا فيها بإذن الله لا سيما أن المواصفات والشروط تنطبق عليك، يبقى عليك أن تبذل ما بوسعك في تحصيل النسبة العالية في شهادة الثانوية..

- قاطعه الابن: حسنًا..

- فأشار إليه الأب مباشرة أن توقفْ: لم أنهِ حديثي بعد ولم أعتد منك المقاطعة!

- (آسف).

- أكمل الأب حديثه: وفي حال أن دخلتَ السلك العسكري فإن ذلك لا يتعارض مع مشاريعك الدعوية وطلبك للعلم في الأوقات الأخرى، فتكون بإذن الله حزت على الوظيفة ذات المرتب العالي وفي ذات الوقت فأنت لم تفرط في أعمالك التطوعية الأخرى.. مع هذا كله فأنا أعرِض هذا الأمر لا ألزمك به.

- حسنًا، هذه الكلية كانت ضمن الخيارات التي كنتُ أفكر فيها وجاءت وجهة نظرك حاسمة، لكن لدي سؤال: أنت تقول بأنها لا تتعارض مع طلبي للعلم! تكلم الأب: بلا شك ولكن يتطلب منك ذلك أن تُنظم وقتك وأن تسير وفق خطة تكفُل لك التوازن والاستمرار.

- أشكرك يا أبي.

- نسأل الله أن يكتب لنا ولك الخير حيث كان، وفي حال أن تتبدى لك وجهةٌ أفضل منها أو كنتَ ترغب في غيرها فالأمر واسع.. اهتم بنفسك ولا تألُ جهدًا في تحصيل أعلى الدرجات فإن كان لك نصيبٌ في هذه الكلية فبها ونعمت وإن لم يُرِد الله فهناك المجالات متعددة ولله الحمد..

ولا أخفيك أن عمك عامرًا أيضًا هو الآخر يريد أن أشفع لابنه عبد العزيز في دخول هذه الكلية كلمني قبل أسبوعين من الآن وسأبذل جهدي في تحقيق مراده.

* * *

- ٨ -

وصل صالح المكان لاهثًا وعليه أمارات الارتباك وسأله عبد العزيز الذي يبدو قلِقًا هو الآخر فقص عليه الخبر وظن عبد العزيز على الفور أنه قد أحيط بهم.. أخذ يفكر في مستقبله حيث لم يتبقَ سوى أيام قلائل تحول دون الاختبارات النهائية للصف الثالث الثانوي.

- سأله عبد العزيز على الفور: هل سبق وأن سرقتم من حظيرة الأغنام التي يملكها إمام المسجد..؟؟

- نعم، وكيف عرفت؟

- عبد العزيز متجاهلًا سؤاله: ما الذي حملكم على ذلك؟

- صالح بعد أن أخذ نفسًا طويلًا: هكذا يفعل المحروم الذي لا يُعطى مالًا من أهله.. وعمومًا سنتحدث في ذلك لاحقًا.

فكرا في طريقة ذكية يتوصلان من خلالها لمعرفة ما آل إليه حال صديقيهما سعيد ومحمد، فاقترح عبد العزيز أن يذهب هو يتحسس منهما واستحب صالح أن يذهب معه..

ولما أن بلغا مفرق المنازل القديمة -حيث يشرف هذا المكان على القرية- رأيا سيارة الشرطة تمر من الطريق الذي يتوسط القرية ويؤدي للمدرسة، تسمرا في مكانهما وبقيا ينتظران عودة «الدورية»، قال صالح: يبدو أن صاحب السيارة الذي رآنا هو من قام بإبلاغ الشرطة وها هم ذاهبون للقبض على سعيد بلا شك وقد يكون محمد معه.

- عبد العزيز وقد اتسعت حدقتاه: سعيد أليس معه جوَّال؟

- بلى.

- صديقي ناصر لديه جوال كذلك فما رأيك أن نذهب إليه ونتصل بسعيد أو نرسل رسالة ربما استطاع الرد؟؟!

- لا أعرف رقم سعيد، وسوف يؤذن الآن لصلاة الفجر فلو ذهبنا إلى ناصر لرآنا الناس ونكون قد جلبنا الشبهة على أنفسنا، ولكن بعد الصلاة سنذهب إليه، (فكّر قليلًا وانتبَه): لكن والدَيّ سيقلقان إن لم أحضر في الوقت المحدد، وهذه مشكلة جديدة ما الحل؟؟!

- اذهب الآن إلى منزلكم وكأن شيئًا لم يكن لأن وجودك بعيدًا عن أهلك سيجعلهم يشكّون، قاطعه صالح: أخشى أن يعترف سعيد بأنني كنت معه في حال أن قبضوا عليه ومن ثم

يأتي رجال الأمن إلى البيت فنفتضح بهذا الموقف، ماذا ستفعل أنت؟

- أنا؟ الحمد لله لم أكن معكم في هذا التدبير.

- بل كنتَ مشاركٌ لنا.. وبقيت تنتظرنا في مكان العشَاء.

- عبد العزيز مغضبًا: لم أكن أعلم بشيء وهذه هي المرة الأولى التي أصحبكم فيها!!

- صالح في ثقة تامة: صحيح هي المرة الأولى ولكن لو لزم الأمر فسنضطر لقول الحقيقية بأنك بقيت تحرس المكان!

- سأقول الحقيقية أنا ولن أدان بشيء، ويقطع كلامه انتفاضة صالح وهو يشخص ببصره إلى طريق القرية حيث رأى سيارة الشرطة تتلوها سيارة أبيه، ارتعدت فرائصه وأخذ يولول بصوت خافت ثم فارق المكان.

غادر بعده عبد العزيز ترهقه الحيرة والتعب، قال في نفسه: بقي ستة أيام تفصلنا عن الاختبارات وهذه الستة أيام ستكون مراجعة مهمة لما تعلمناه، وأريد الاستفادة من وقتي ويتعين علي بذلك أن أعود للمنزل لكن بأيّ وجهِ ألقاه؟ حتمًا سيطردني.

ما زالت الأفكار تتصادم في داخله ثم قرر الذهاب إلى أمه: على الرغم من كثرة ما ألجأ إلى ناصر وأتردد عليه لكني مضطر لأن يوصلني لبيت أمي، وسأحاول رد الجميل إليه.

ذهبا إلى حيث أم عبد العزيز، وأشار إليه ناصر أثناء الطريق بأن يبقى معها يومين فقط ثم يعود مرةً أخرى ليستفيد من الأيام الأخيرة في المدرسة، واستعد باستضافته طيلة فترة الاختبارات، ولم يكن عبد العزيز يُخفي عنه شيئًا..

كانت منيرة تبدو مشغولة بأمر ما، وتردد ابنها الأصغر في سؤالها عن ذلك إلى أن بادرته هي بقولها: لا تتحدث مع جدتك بشأن اختك لانها ستعترض لا محالة وربما كدّرت في نفسها بشيء.

- لم أفهم شيئًا ما شأن زهرة؟

- أعني موضوع خطبتها.

- عبد العزيز متفاجئًا: وهل خطبها أحد.. من هو..؟!!

- كيف لا تدري عن أختك..؟

- هم لا يخبرونني بشيء، أخبريني أنتِ.

- صديقٌ قديم لوالدك جاء في جملة من الرجال يخطب زهرة لابنه، لكن زهرة كانت مترددة، فالرجُل متزوج وله اثنين من الأبناء.

واستمرت منيرة تتحدث وابنها مصغٍ جاءتني شاكية، تقول بأن أباك راغبٌ بشدة في زواجها منه، مما جعلها توافق ظاهرًا.

هنا قاطعها عبد العزيز منزعجًا: لن تتزوج به ما دام أن له امرأة! (احمرّ وجهه وهو ينظر في والدته): أبي يجامل أصدقاءه ويستحيي أن يقول لصديقه لا، ولم يفكر في مستقبل ابنته وأنها ستعيش مع رجل كبير.

- منيرة تلوي رأسها أن لا، ثم قالت: أبوك لم يجبرها ولكنه يريد زواجها منه، ثم إن هذا الخاطب لم يصل سن الأربعين.

- حتى ولو.. والله لن يتزوجها، ماذا قلت لها عندما جاءتك؟

- أشرتُ عليها بالموافقة.

- عبد العزيز يرفع صوته على أمه: كيف توافقين وهو متزوج، لماذا لم ترضي بزواج أبي من عمتي غالية!!؟

صمتت منيرة واستعبرت..

أحس عبد العزيز بخطئه وأنه قد جَرح أمه بهذا الكلام وأخذ يقبّل رأسها ويدها، قالت له وهي تغالب البكاء: إنني بقيت سنوات عدة لم يتقدم إليّ أحد فما زلت أدعو الله وأتضرع إليه أن يرزقني الزوج الذي ارتضيه إلى أن جاء أبوك، وعشت معه عشرات السنين من أفضل ما يكون، هو رجُل طيب رغم أنه سريع الغضب لكنه وقافٌ عند حدود الله ورجل صادق لا يعرف الكذب ولا المجاملات كما قلت ورأيه لا يكاد يخطئ.. كنتُ أخالفه ثم يتبين لي أنه على حق.. لكنه بعد هذه العشرة تزوج عليّ وهذا ما لم أكن أتوقعه.. وجاءتني بعض النساء يحرضنني على الذهاب لبيت أبي (عبد العزيز مقاطعًا): أذكُر ذلك.

أكملت منيرة حديثها: وكنتُ أعرف في قرارة نفسي أنه لا يكرهني وأنه رجل عادل إلا أنني كرهتُ أن أرى امرأةً أخرى تقاسمني الحياة معه فقد تستولى على قلبه..

أطعتُ النساء وقررتُ أن أذهب عنه.. وقلتُ لربما طلّقها تقديرًا لي، وجئتُ هنا فكانت جدتك تغذيني بالوساوس كل يوم إلى أن حصل الطلاق.

لكن يا أمي هذا لا يعني أن نوافق نحن.

صوت عصا الجد تقترب وما زال أثر البكاء، نظر في ابنته: مالَكِ؟

- لا شيء.

جلس الجد معهم وأخذ يسأل عبد العزيز عن حال أبيه فأخبره أنه في صحة جيدة إلا من مرض (السكري) وأنه قد رُزق بابن وابنة،.. وأنه بات صاحب تجارة في الأغنام.

أخذ الجد يدعو له ويثني عليه...

ثم سألهما: عن ماذا كنتما تتحدثان؟

أخبرته الأم بالتفصيل ثم التفت في عبد العزيز: ماذا عن صلاح الرجل؟

لا أعرف عنه يا جدي..

منيرة تنظر في ابنها: هو رجل متدين، هكذا قال لي أخوك سعد فقد استوضحت منه كل شيء.

الجد: لابد وأن عامر قد عرف معدن الرجل، وماذا عن أختك.. ماذا قالت؟!

عبد العزيز يشيح بيده: هي معترضة.. لا تريد.

الأم: لا، ليست كذلك هي أتتني مترددة وذهبَت مقتنعة إلى حد كبير.

عبد العزيز يتغير وجهه: حتى وإن وافقت هي سأَحُولُ بينها وبينه، فهي غبية.. لا تفكر جيدًا!!

الجد يخذله السمع.. سأل ابنته: ماذا قال؟ فأخبرته، ثم قال لها مستفسرًا:

- ولماذا؟

- يقول بأنه لا يريد لأخته إلا شابًا.

ضحك الجد لحماسة حفيده: يا بني الكل يبحث عن صاحب الدِّين، وأخشى أن ترفضوه فيأتيكم من لا دين له ولا ذمّة وقد لا يأتيكم أحد، أما تسمع بكثرة البنات اللاتي لم يتزوجن؟! ثم راح يدعو لهم.

❋ ❋ ❋

- ٩ -

انتهت الاختبارات، وحاز مهند على الدرجات العلى، وانقضت عدّة من أيام الإجازة وهو ينتظر بدء التسجيل في كلية الملك فهد الأمنية، واقترب الموعد ولم يسمع خبرًا عن ابن عمه عبد العزيز، سأل أباه فأمره بالاتصال على عمه عامر ليذكّره بقرب موعد التسجيل وضرورة حضور ابنه خلال هذه الأيام تفاديًا لفوات وقت التسجيل، وفي حين ذلك فإن عامر كان مشحونًا بالغضب في ساعته تلك، يفكر في ابتعاد عبد العزيز ويفكر في ضعف تحصيله وشدة عناده وكيف أنه طوال الوقت مع رفاقه لا يهتم بنفسه!

- ألو، نعم أهلًا أبا مهند.

- لا يا عم أنا مهند السلام عليكم.. ورحب به.

- يا عم نحن في اشتياق شديد لعبد العزيز وقد هيأنا له غرفة في المنزل حيث سيكون معنا طيلة دراسته في الكلية في حال أن يُقبل بإذن الله.. وأملنا في الله ثم في الوالد بما لديه من إمكانيات، ونريده أن يحضر مبكرًا، تسمعني يا عم؟ ألو.. ألو.. يا عم

- عامر كأنه ينتزع الكلام من صدره: معك معك.

- مهند أحس بتغير نبرة الرجُل..!

- يا مهند.

- نعم يا عم.

- أخوك عبد العزيز ليس مثلك، هو لا يصلح للوظيفة ولا يستحق أن يشفع له أبوك.

- مهند مرتبكًا: يا عم حتى وإن كان تحصيله العلمي متدنيًا فوالدي بإذن الله..

- عمه مقاطعًا: يا بني المشكلة ليست في تحصيله، المشكلة أنه ضّال لا يصلي، ولا يسمع كلامي، ويتأثر برفاقه السيئين، وصار يسرق بيوت الآخرين، أتعبني ونكّس رأسي بين الناس.

والد مهند يأخذ سماعة التلفون من ابنه بعد أن تغيرت ملامحه:

- السلام عليكم.. ما الأمر يا أبا عبد العزيز؟!

- عامر بصوت معتدل: ما رأيته يا أبا مهند منذ حلّت الاختبارات وقبل ذلك أيضًا حصل كذا وكذا وأصبح يجور

عليّ وعلى عمته في الكلام، ولا يطيعني، وفرتُ له كل ما يحتاجه، وإنني لأجفو على إخوانه أكثر منه..

- أبو مهند مستاءً: هل جلست معه جلسةً أبوية سمعتَ منه وسمِعَ منك فلربما استطعت أن تعالج بعض الأمور التي يخفيها؟

- عامر يضرب الهواء بظهر كفه، ويقول: لا، ولن أجلس معه ولن أستقبله في بيتي.. هذا عنيد.. لا يحترمني ولا يحترم عمته التي تعتبره ابنًا لها.

- أبو مهند يحاول تهدئته: عمومًا فأنا قد كنتُ أخطط لزيارتك الشهر القادم لبعض المآرب ولكني سأستعجل إذن بالزيارة في اليومين القادمين لنقضي بعض الأمور وسأعود ومعي عبد العزيز إن شاء الله.

استمر أبو مهند متحدثًا بعد أن أشار إلى مهند بالانصراف، وقال لأخيه: هذا السن لا بد أن ترى منهم أفكارًا غريبة، وتقلبات نفسية تظهر عليهم، وعليه فلا بد من الهدوء وسعة الصدر، وأين هو الآن؟

- عامر يبدو أكثر هدوءًا: لا أدري، إما أن يكون عند أمه أو عند أحد أصدقائه أصدقاء السوء.

- سيتغير الحال بإذن الله تعالى وسترى ابنك ضابطًا وذا مكانة عالية يعينك على نوائب الدهر وتقَر عينك وعين والدته به.

والمهم في هذا حاول أن تحتويه كي تصلح الأمور.. إلى اللقاء.

- حسنًا.. أنتظرك.

كان أبو مهند يزور القرية التي كان فيها مسقط رأسه في كل عام مرة- تقريبًا- بما يتوافق مع إجازة نهاية العام، لكنه جاء هذه المرة بعد انقطاع دام أكثر من سنتين وفي وقت مختلف ومتزامن مع وقت الخريف.

وما إن رأى علائق الضباب وهي تلامس الآكام وأعالي الجبال، والشمس تتراءى تارة ثم تحجبها السحب تارة، والرياح تنساب ببرود فتصيب اليدين والرجلين.. الناس حينها يكونون مختبئين في البيوت عدا القليل من كبيرات السن تراهن يجمعن الأبَّ والبرسيم والأعلاف لبهائمهن ومواشيهن..

عندما رأى هذه الظواهر تأجّج في قلبه لهيب الذكريات، وازدحمت في نفسه المشاعر، وعرضت له الأيام الخوالي أيام الصبا عندما كان والداه أحياء، وادَّكَر الأتعاب والشدائد التي

كانت تمر بهم، وكيف أن المدينة قد أبعدته تمامًا وأنسَته مثل هذه الأمور..!

غَشِيَهُ شيءٌ من الحنين يدعوه للعودة إلى القرية والاستقرار بها ولكن سرعان ما عارضه الضمير بأن الحياة في قريته أصبحت دهاقًا بالمشكلات التي لا مناص منها والتي تبعث على تغير النفوس وبعثرة الأخلاق.

وصل إلى منزل أخيه عامر ليجد أقاربه وبعض جيرانه مجتمعين هناك، استقبلوه ببالغ الترحيب وكريم الحفاوة وكانوا قد أعدوا له وليمة غداء، رأى فيهم من البساطة والدماثة ما يدعو للبقاء معهم وقتًا أطول غير أن الظروف لديه لا تسمح، قام بأداء ما لديه من المهمات، وبقي موضوع عبد العزيز.

ذهب بنفسه إلى بيت أمه ووجده عندها، تم إقناعه بسهولة على ضرورة السفر معه وأن وظيفة المستقبل باتت مهيأةً له، وواعده من الغد بحيث يبقى مع والدته إلى اليوم التالي ثم يأتي به ليسلِّم على أبيه ومن ثم ينطلقان إلى الرياض.

أخبر أبو مهند أخاه بأنه قد تم إقناع عبد العزيز بالسفر معه لتتم إجراءات قبوله في الكلية الأمنية، وأنه سيقدُم غدًا للسلام عليه وتصلح الأحوال بينهما قبل أن يسافر.

لكنه تفاجأ برفض أخيه حيث قال: لا أريد أن أراه الآن فلربما أنبأته الغربة بخطئه، وخَلَقَت منه شخصًا آخر بارًا بوالديه، وسأراه في المرات القادمة إن شاء الله.

ما زال به أبو مهند: إن في سلامك عليه وتوديعك إياه ما يكون دعمًا له على الاجتهاد والمثابرة بما يعود عليه بالنفع وأدعى في استقراره النفسي، وبطبيعة الحال فإن رضا الوالدين هو خير ما يبعث على الراحة ويساعد على النجاح!

– لا تلح عليّ كثيرًا.. سأعطيك ما يكفيه من المال، وأردف قائلًا: ثم إنني على موعدةٍ في الغد إن شاء الله داخل المحكمة جراء ما وقع بيننا وبين (آل فلان).. طلبوا مني أن أوسع لهم في الطريق المؤدي إلى مزرعتهم فأبيتُ.

– وما يضيرك لو زدتَ لهم بمقدار المتر أو اقل ابتغاء ما عند الله؟!

– عامر ينظر في أخيه شزرًا: ألا تعلم أنهم قد رفضوا التنازل بمثله في أرض (كذا) عندما كان والدنا حيًّا؟!

– يا أخي موقف قد عفا عليه الزمن، فلماذا تستدعيه هنا؟! ومثل هذا التنازل لن يبخس شيئًا في حقك فالمساحة لا تُذكر، بل لك الثواب الجزيل في يوم المعاد!!!

لما رأى أبو مهند إصرار أخيه على التمسك بمبادئه آثر السكوت، وأسرّ في نفسه أن هذا هو دأب الكثيرين من كبار السن وقد يصعب اجتثاث مثل هذه المفاهيم المترسخة لديهم منذ أزَل.

اتجه في اليوم التالي إلى عبد العزيز الذي كان في منزل أمه، وما إن رآه عبد العزيز حتى سارع بإركاب متاعه في السيارة، وعاد ليودع أمه وتأخر لحظات فما زال يودّعها ويسلّم عليها وهي تُغالب الدمع وتوصيه، ولو كان الود ودّها ما تركته، لكنها الضرورة ووظيفة المستقبل، لذا لا بد لها أن تزج بالعاطفة بعيدًا.

استشعر عبد العزيز تقصيره طيلة الأعوام في حقها وتَفقّد أحوالها وتساقطت دموعه بحضرتها في حين أطبقت هي عن الكلام في آخر اللحظات.

ركب السيارة وسلّاه عمه بأن هذا الفراق أمر عارض لكل أحد، ثم أعطاه الأمل في رؤيتها القريبة إن شاء الله، وأنه سيأخذها لتعيش معه لاحقًا بعد أن يحصل على الوظيفة في غضون ثلاث سنوات لا غير بإذن الله.

سأل الابن عمه: هل سنذهب للسلام على والدي..؟ فقال العم: إن أباك مشغولٌ بالمحكمة ولن تتمكن من السلام عليه ولعلك في القريب إن شاء الله تراه، ثم تفرَّغ العم إلى نصحه بضرورة الاهتمام بنفسه من أجل أن ينفع أباه وأن يُرضي أمه ويخدم مجتمعه ووطنه وأمته.

شعر عبد العزيز حينها بالحزن حيث انقطع فجأةً عن والده، ولم يتمكن من استرضائه والسلام عليه وما زالت الغُصة في نحره تنمو وأحس بشوق شديد لتقبيل يده.. كذلك زهرة وسعد والصغار نايف وسامية، قال في نفسه: كنت جافًا مع زهرة وسعد لا أراهم إلا في وقت الغداء أو حين نزور أمي.

- سأل عمه وهو يفكر في زهرة: هل تكلم معك أبي بخصوص زهرة؟

- لا يا بني.. هل بها من بأس؟ رأيتها البارحة حالتها تبدو جيدة!

- عبد العزيز مرتبكًا: لا لا.. لا شيء.

- ١٠ -

لأول مرة يفد عبد العزيز إلى مدينة الرياض، تلك المدينة التي كان يسمع عنها كثيرًا وعن نمائها وتقدمها ويرى بعض صورها في التلفاز والكتب والمجلات.. كان يتصور أن كل أصقاع هذه المدينة تشبه تلك التي في الصور.. إلا أنه تفاجأ برؤية بعض البيوت القديمة والطرق الفرعية غير المستوية على خلاف ما كان يتوقع مع رداءة في الاهتمام بالنظافة العامة..!

أخبره عمه بأن الأوضاع تختلف من مكان إلى آخر فبعض الأماكن والأحياء يوجد بها مشاريع تنموية وعمرانية مع جودة التخطيط والتنظيم والبعض الآخر يختلف لاسيما الأحياء القديمة.

الجو كان حارًا رغم أنهما في وقت الليل، قال عبد العزيز لعمه: فكيف بوقت النهار إذن؟

أبو مهند يضحك: في النهار لا يخرج أحد بسبب شدة الحر، إلا أن الله قد أنعم علينا (بالمكيفات) في البيوت والسيارات.

فكيف بالأولين؟!!

كانوا في معاناة شديدة لكنهم كانوا يصبرون ويتحملون، وهذا ما يجب على كل إنسان.. أن يوطن نفسه لتحمل المتاعب والمشاق وهكذا هي الحياة محفوفة بالأكدار والابتلاءات، ونحن لا نأمن أن تُسلب هذه النِّعم منّا في أي وقت فالذي وهبها- سبحانه- يستطيع أن ينزعها متى شاء، لاسيما أن (أكثر الناس لا يشكرون).

لفت انتباهه اتساع الطرق العامة وترامي أطرافها حيث تسير بضع سيارات في اتجاه واحد وتتداخل معها طرق أخرى في بعض المفترقات داخل منظومة بديعة على شكل جسور، يسير كلٌّ منها في اتجاه مختلف تمامًا عن الآخر..

ومع مرور الأيام لاحظ اختلاف اللَّكَنات هناك، وتمايز الطبقات الاجتماعية بشكل واضح، وكذا تعدد ألوان العلاقات، وتفاوت طبيعة التعاملات بما كان له أثر كبير في نفسه حيثُ انتقل إلى مجتمع كبير يحوي فئامًا متباينة من الناس يستدعي منه ذلك أن ينفض عن نفسه الركون إلى الآخرين والاتكال عليهم، وأن لا بد له من الثقة بالنفس وتحمل المسئولية فقد بات هو المسؤول الأول عن نفسه.

كان استقبال مهند له بوافرِ من المحبة والتقدير، وتعجب عبد العزيز من وقاره الذي يبدو عليه وهيئته الحسنة فهو لم يره منذ سنين لارتباط الأخير بالنوادي الصيفية في الإجازات الكبيرة فلا يستطيع أن يذهب مع أهله إلى القرية، ولو تقابل معه في مكانِ آخر لم يكن له أن يهتدي لمعرفته.

وتأثر عبد العزيز بأخلاقه العالية وبساطته وتفانيه في خدمته، واستطاع مهند في اليوم التالي أن يكسر حواجز الحياء والمثالية بينهما حينما أخذه بسيارته الخاصة في جولة داخل مدينة الرياض يُعرّفه ببعض ما يكون من معالمها وطُرُقها.. كانا يتبادلان أطراف الحديث بكل شفافية وسَعِد عبد العزيز به وأحبّه.

مضى ثلاثة أيام وانشغل مهند أثناءها بعض الشيء، ولم يبق على الموعد سوى يوم واحد وأثناء ما كان عبد العزيز في غرفته المخصصة له يطالع حينها الجريدة التي لا يقع منها إلا على الصور، قاده ذلك إلى التفكير: لم يعُد هناك أبٌ أو أمٌ آوي إليهما أو أجد منهما تمويلًا سوى ما لدّي من المال القليل الذي لا يكفي لبضعة أيام، ولن يمدّني أبي بأكثر من ذلك وسأحتاج حتمًا للمال، وعلى الرغم من وجودي مع عمي إلا أنه من

الصعب أن أطلبه شيئًا، وسأبحث عن مسكنٍ آخر فور قبولي سواء في هذه الكلية أو في إحدى الجامعات الموجودة هنا.

خلال هذه الأيام الثلاثة شعر عبد العزيز بوجود نظام زائد في منزل عمه وهو لا يحب ذلك.

كان يُملي لنفسه: يحاولون أن أخضع للروتين الذي وضعوه.. حتى الصلاة يحتّمون بطريقتهم أن أحضُر لها مبكّرًا فأصبحت لا أصلي إلا رياءً لأجلهم..!

ليس من حقهم ذلك وليس لهم أن يُرغموني على شيء فأنا أدرى بمصلحة نفسي، لم أعد صغيرًا.. والحقيقة أنني لم أجد الراحة بعدُ في هذه المدينة.

ثم إن مهندًا هذا لا يتوافق معي في كثيرٍ من الأمور، أشمّ فيه رُقيًا زائدًا أو غرورًا لا أدري.. وينشغل مع أقرانه أكثر الوقت أو مُطالعًا لكُتبه.. لم يلتفت إليّ سوى تلك المرّة، وكأنني ضيفٌ ثقيل عنده..!!

ويقطع تفكيره صوت قرع الباب، لملم أشياءه المتناثرة وكان لديه إحساس بأن مهند هو من يطرُق الباب لكنه لم يجد أحدًا، وعندما فتح الباب وجد جهاز الهاتف الثابت موضوعًا والسلك ملقىً عليه.

رفع رأسه بهدوء ناحية الباب المقابل الذي ينفذ إلى الداخل ورأى ابنة عمه- كانت تدرس في الصف السادس الابتدائي- وهي ممسكة بمقبض الباب قد طالته بنظراتها تقول له بنبرة هادئة خالجها الحياء: خذ الهاتف إلى غرفتك والدي سيتحدث إليك بعد قليل.

عبد العزيز متعجبًا من حشمتها رغم صغر سنها وتبدو مؤدبة للغاية: حسنًا إن شاء الله.

خفضت طرفها برفق ثم تهادت إلى الداخل..

هذه النظرة بعثرت المشاعر في نفسه، وأوقعت حب الفتاة في قلبه لولا أنها صغيرة وتجسدت صورتها قسرًا في مخيّلته وعرف حينها شيئًا من الحب الذي يتحدث عنه الآخرون..!

رنّ الهاتف..

- ألو يا عم.

- أبو مهند يتحدث من خارج الرياض: من الضروري أن تأتيا إلى الكلّية مبكّرًا نظرًا لتزاحم المسجلين هذه الأيام، أبلِغ مهندًا فقد اتصلت به مرارًا وكان جواله مقفلًا، ولا تنس إحضار ملفك.

- أشكرك يا عم على حرصك.

- إلى اللقاء.

دبت النشوة في نفس عبد العزيز وصاحبَها الأمل، وخرج يجتال راجلًا في أزقة الحي جِذلًا يتيه في أمنياته ويبحر في أحلامه.. لا يدري لماذا ..!! بل وبدأت نظرته للرياض تتغير بعد أن كاد يلفظ حبها وأصبحت شيئًا مستساغًا بالنسبة له!

أخرج السيجارة بكل أريحية حيث لا يعرفه أحدٌ ولا يعرف أحدًا، وأخذ يسير تحت المصابيح الكهربائية تحفه البيوت المصفوفة عن اليمين وعن الشمال، ابتعد كثيرا وبدأت النشوة تذهب شيئًا فشيئًا، حيث أخذه التفكير إلى أمه، استشعر كونها قد سِيمَت ألوانًا شتى من الشقاء في هذه الحياة وتعذرت عليها مَعِيناتُ الراحة، لم تنعم بالعيش مع أبنائها فكانت مرمى للهموم والأوهام.. تلتاع لرؤية أبنائها فلا تراهم إلا غِبًّا، وتحتاج إلى أشياء تخصها فلا تقدر على استيفائها.

تذكّر أباه وما كان بينهما من خلافات ووجد من نفسه فاقة في الجلوس معه والاعتذار منه، تذكّر إخوانه الذين لم يقابلهم منذ فترة، ولم يسلّم عليهم قبل سفره.. تذكر أصدقاءه وتفكّر كيف كانت حياته هناك.

على الرغم من كَونه حديث عهد بمدينة الرياض إلا أن الفرق بات جليًّا في نظره بين المدينة والقرية، نظر إلى البيوت التي تحاذيه لا يسمع فيها أحدا، ولم يرَ سوى بعض السائقين الواقفين عند عتبات غرفهم.

نفذ من الحي إلى الشارع الكبير الذي توجد به المراكز التسويقية ولفت انتباهه فتاتان ذواتا نقاب على حافة الشارع لوحدهما، استوقفتا صاحب أجرة ثم ركبتا معه وليس معهما محرَم!

ولج إحدى البقالات واشترى منها مشروبه الغازي الذي لم يكن قد اعتاد على غيره وقام يفتش عن البيسكويت المفضل لديه فلم يجده، احتقب بيسكويتًا آخر ليجده أبهظ مما كان يتصور، فما زال يماكس البائع ليخفض له السعر، وينظر إليه البائع بنظرات تفيض بالغرابة ثم أعتقه دون أن يأخذ هللةَ واحدة، أحس حينها بحرج شديد وهو يغادر خاصة وأنه رأى شابين يقفان جانبًا أحدهما يهمس للآخر وينظران إلى شعره الذي يبدو غير مرتب...

عاد يمشي الهوينى متجهًا صوب منزل عمه، وأثناء عودته وقبل أن ينعطف على الحي رأى تجمعًا كبيرًا عند أحد محلات

الحلويات وآثر الذهاب إليه، وما إن اقترب حتى انفضَّ الناس فسلّم على أحد الموجودين ليسأله عن ماهية هذا التجمع بينما كان الآخر يتحدث بالجوال سلّم عليه فاستدار عنه الرجُل ولم يرُد عليه السلام، سأل أحد العمّال فأخبره أن ثمة أحد المفحطين قام بصدم أحد المارة وهرب..!!

أمور وأحداث في المدن لم يعهدها عبد العزيز في قريته الصغيرة التي كان يغلب فيها الهدوء وتقارب الأفكار وتوحد الروتين وتشابه الأنماط في التعامل.

انتبه عبد العزيز وإذ بالطرق قد تشابهت عليه وضلّ الطريق المؤدي لبيت عمه، أحسّ بمداهمة الوقت وزادت عنده الحيرة وبدأ يهيم في الطرقات لا يملك جوالًا ولا يحفظ أرقامًا للاتصال، راح يستوقف كل من يبدو عليه الرشد، ويسأله عن بيت أبي مهنّد فلا يعرفونه، الوقت يسابقه، والحالة المزاجية تتعكّر والسيجارة تلو السيجارة، وانتصف الليل ولا يفتأ يبحث، حاول الاهتداء للشارع الكبير الذي توجد به مراكز التسويق فلم يهتد إليه أيضًا واختلفت عليه الجهات الأربع وفجأة رأى سيارة غريبة في شكلها تتوقف في نهاية الشارع الذي يسير فيه ونزل منها ثلاثة شبّان يرقصون في قارعة الطريق، وصوت

الأغاني قد بلغ مداه، واحتجزوا عددًا من السيارات وتوالت عليهم الصرخات واللعنات ولم يبالوا بأحد..!

قَفَل من مكانه عائدًا إلى حيث لا يدري والمحلات التجارية باتت مُقفَلة وانزوى إلى إحدى الصيدليات على مجيء رجل طويلٌ بائن، يبدو في نهاية الثلاثينيات من عمره، وباشره عبد العزيز بالسؤال عن الشارع الذي توجد به الأسواق الكبيرة والتي من صفتها كذا وكذا، عرف الرجل أنه تائهٌ ضنَك الحال، هشّ وبشّ في وجهه وقال له أبشر، وأوعز إليه بالانتظار في نفس المكان ريثما يفرغ من الصيدلية.

أقبل إليه وأركبه في سيارته.

- الرجل وهو يُشغل السيارة: يبدو أنك لست من هذه الديار..؟

- نعم، لستُ من هنا.

- أين تريد تحديدًا..؟

- أريد أن أعود لمنزل عمي وتهتُ عنه، وهناك شارع كبير ربما أهتدي من خلاله.

- الشوارع كثيرة يا أخ.. قلت لي ما اسمك؟

- اسمي عبد العزيز، ويستأنف قصته راجيًا أن يكون هذا الرجل يعرف عمه: عمي هو أبو مهند يسكن في هذا الحي.

- الرجل يهدّئ من سرعة السيّارة كالذي يتذكّر: لعلك تقصد العميد أبا مهند؟ له ابنٌ متدين يقوم بإلقاء الكلمات في المساجد؟؟

- نعم، أتعرفهما؟

- ليست بتلك المعرفة القوية، لكنّ سمعتهم طيبة في الحي.. وأعرف المسجد الذي يصلون فيه.. هو في الناحية الأخرى تمامًا.. قاطعه عبد العزيز فرِحًا: حسنًا أريد المسجد فالبيت محاذٍ له.

- إن شاء الله، ولابد أن يكون لديك رقم الهاتف الخاص بعمك، احتياطًا لمثل هذه المواقف.

شكره عبد العزيز ودعا له.

ولج عبد العزيز المنزل ثم دلف إلى غرفته والكل غاطٌّ في نومه، استدعى النوم هو كذلك فأبى النوم أن يأتيه، بات عبد العزيز أسيرًا للتفكير ما بين أمنيات وأوهام..

واقترب الفجر والنوم لا يفتأ بعيدًا، أخذ التفكير مجالًا واسعًا أفضى بصاحبنا إلى الملل، وتمنى طلوع الفجر ليذهب مع ابن عمه إلى بغيتهما التي جاء بسببها وولّدت له أماني شتى كان يخفيها في نفسه.

أثناء ما هو كذلك إذ به يسمع صوت أحد الأبواب بالداخل يُفتح، نظر عبد العزيز في ساعته التي تشير إلى الساعة الثالثة والثلث، ولا يدري ما إذا كان وقت صلاة الفجر قد أوشك أم لا، عمد إلى التقويم الموجود فإذا وقت أذان الفجر الساعة الرابعة تمامًا.

عاد إلى فراشه مستلقيًا.. دقائق معدودة وإذا هو يسمع صوت القرآن في الغرفة المجاورة، عرف أنه مهند فتارةً يسمعه يصلي وتارةً يسمع همهمته وتأثره بالقرآن ومناجاته، وأسرّ في نفسه بأن هذا هو سِر تميزه.

اعتلى صوت الحق في كل أرجاء الرياض وفي وقت واحد وتراتيل متقاربة ترتاح لها القلوب، وكان المسجد الذي يصلون فيه قريبًا من المنزل حيث دوَّى صوت المؤذن في كل أصقاع البيت وعليه استيقظ من فيه.

(يا له من بيتٍ مبارَك أهله طائعون لله) هكذا أضمر عبد العزيز، وقال: التلفاز أسمع صوته بالداخل احيانًا لكني لم أسمع أغنية واحدةً كما كان عليه حالنا هناك، الهدوء غالبٌ في هذا المنزل، ويبدو أن لديهم طموحات عالية فهم ناجحون.. لكني أكره المثالية الزائدة في بعض نظامهم.

* * *

- ١١ -

مهند وعبد العزيز يغادران المنزل بعد صلاة الفجر مباشرة صوب الكلية الأمنية، وأثناء الطريق قال مهند لعبد العزيز، وكانت تبدو عليه قوة الأمل.

- أراك كئيبًا يا ابن العم، ونحن نعتذر أولًا على التقصير، فأنا كنتُ مشغولًا مع بعض الصحب بتجهيز المخيم الدعوي الذي سيبدأ بمشيئة الله بعد أربعة أيام وسيحاضر فيه عدد من الدعاة والمشايخ.

- لستُ كئيبًا!

- إذا لم يتم قبولنا في هذه الكلية فالفرص كثيرة جدًا ولله الحمد، المُهم أن نتفاءل وأن نُحسن الظن بالله.

- عبد العزيز ينظر إليه وإذا شفتيه تتحرك بأذكار الصباح.

- مهند يسأل عبد العزيز: هل لك أن تصحبني الليلة في متنزّه خارج الرياض؟؟

- عبد العزيز يتعتع قليلًا لأنه لا يجد ارتياحًا كبيرًا تجاه المستقيمين ثم غمغم: إن شاء الله.

- حاول أن تبدأ في التعرف على الأصدقاء هنا فقد أصبحتَ واحدًا من أبناء هذا المجتمع وكما تعلم أن المرء لا بد له من أصدقاء يختلط بهم فيكتسب العديد من المهارات النفسية والاجتماعية..

- عبد العزيز فكّر في كونه لا يستطيع أن يسلو عن التدخين.. قال: سأحاول الذهاب معك، وإن لم يتيسر فسأكون معكم في تالي الأيام إن شاء الله.

في الكليَّة الأمنية كان هناك أمّةً من الناس مصطفين في شكل طوابير لا يَرى آخرهُم أولَهم وبقي مهند وابن عمّه في جملة الطابور، اتصل والد مهند على ابنه ليعرف حالهما ووجدهما متذمرَين كغيرهما يقاسيان الحر والنصب، كرر الاتصال بعد لحظات وأمرهما بالانصراف إلى النقيب في مكتبِه، وجاءا إليه، أخذ ملفيهما وواعدهما إلى حين موعد الفحص وقياس الطول والوزن، وسأله مهند أليس من الممكن أن نُعطى قبولًا فوريًا؟

فنظر إليه الضابط النقيب باشمئزاز وكأنه يرى فيه بعض الغرور: ليس هناك شيء مضمون فالقبول المبدئي لا

يعني القبول النهائي، وما زال ثمة إجراءات نظامية تسير على الجميع، ويتلوها ما يُعرف بالفرز النهائي، في حفظ الله..

انصرفا قافلَين والأمل ما زال لديهم خاصةً مهند.

توقف مهند عند أحد المطاعم وكانت هيئة المطعم على نسَق التراث القديم من الداخل والخارج، عبد العزيز- أثناء دخوله كان يّدوِّر عيناه في الأسقف والحيطان، وتمتم: يشبه بعض البيوت في القرية!

تبوأا مكانًا في المطعم، استفتح مهند يسأله عن حاله مع أبيه وقد سبق لهما التحدث مِن قبلُ في ذات الموضوع: هل الجو ما زال غائمًا بينك وبين أبيك؟ أم أن الأحوال صلحت..؟

بدأ يفضفض عبد العزيز عما في نفسه تجاه أبيه، ويقول بأنه أخطأ يوم أن تزوج على أمّه.. حيث أدى ذلك إلى تطليقها!

مهند وهو يرتشف الشاي: لكن عمي لم يكن ينوي الطلاق، أخبرني والدي بذلك، وإنما حصل بسبب نشوب الخلاف بينهما -ولتسمح لي- كان الاولى بوالدتك ألا تخرج من بيتها حتى وإن تزوج بالثانية والثالثة.

صحيح، لكن النساء- بطبيعة الحال- لا يُرِدن أن يتزوج أزواجهن عليهنّ.. قاطعه مهند: ليسوا كلهنّ، فالنساء اللاتي يتقين الله يعلمن أن هذا من الشرع فلا يعارضنه.

- لماذا لم يتزوج أبوك بأخرى؟!!

- هذا الأمر يعود إليه.. وأظنه لو خلا من الارتباطات التي تكبله كل يوم لتزوج.. واصل مهند حديثه: انظر للعوانس من لهن بعد الله؟! صدقني لو كان لدينا أخوات جاوزن الخامسة والعشرين أو الثلاثين من اعمارهن لعرفنا فضيلة التعدد.

- صدقت.

- ترى المرأة عندنا تغضب عندما يتزوج زوجها لكنها لا تغضب عندما يتقدم أحدٌ إلى ابنتها العانس..! فما أجمل أن ينظر الشخص رجلٌ كان أو امرأة للأمور بعين واسعة.

- عبد العزيز يفكر بعمق كما لو كان منزعجًا.

أردف مهند: بالإجمال فحق الوالدين يبقى عظيمًا مهما حصل منهما أو من أحدهما، أنصحك أن تغدق على أبيك بالاتصالات وتسترضيه، حينها سترى طرق الخير تتفتح لك..

– إن شاء الله، لكن غاليتُه هذه هي من غيّرته للأسوأ.. كانت وما زالت سليطة اللسان.. والغريب استكانته أمامها!!

– هذا أبوك لا يجوز..!!

– لذا فدائمًا ما يرمي صبابة غضبه علينا نحن، ولا نذكر أنه حاول إيناسنا في يوم من الأيام بخلاف إخوتنا الصغار «نايف وسامية» فكثيرًا ما يَحفِد من أجل إرضائهم.. توقف لثوانٍ ثم تكلَّم: ومع ذلك فلن يستطيع إسعادهم في السنوات القادمة لأنه رجُل ستيني ويريدهم أن يعيشوا على طرائق القدامى.

– مهند واللقمة في يده لم يرفعها وقد شخص ببصره نحو عبد العزيز: أنت آثم بهذا الكلام، كل أب حريص على أبنائه ويختار الطريقة التي يراها مناسبة، ولربما كان هناك بعض الدواعي لا نعلمها نحن ولا أنت جعلته يستخدم هذا الأسلوب.

– يسكت عبد العزيز كما لو كان غير موافق.

– ادع له واستغفر له وستقَر عينه بك إن شاء الله، والحمد لله فالأمر بسيط.. هناك من مات أبوه أو ماتت أمه وهناك من أصبح أحدهما أو كلاهما عاجزَين عن الحركة والكلام قد رُدّا إلى أرذل العمر.

اتجها قبل صلاة الظهر إلى مجمع اتصالات واشترى مهندٌ جوالًا لعبد العزيز.. تمنّع الأخير في الظاهر، لكنه قوبل بالإصرار من مهند وأقنعه بضرورة ذلك، وأنه سيكون بهذا الجوال على اتصال بوالديه وإخوانه وأصدقائه لاسيما والدته فكثيرًا ما كان يذكرها ويشتاق إليها.. لكن عبد العزيز مهما أوتي من دواعي الفرح لم يكن يستطيع الاستمتاع كغيره، التشاؤم كان يحالفه أكثر من الأمل، وكان هادئًا يحبّ الانطوائية ويرى من نفسه نقصًا في كثيرٍ من القدرات، قد بدا ذلك في كلامه وأسلوبه وتصرفاته، وهذا بالفعل ما لاحظه مهند!

وصلا المنزل.. مهند يؤكد: سنذهب بعد صلاة المغرب إن شاء الله كن مستعدًا

- إلى أين؟ مع أصدقائك؟

- نعم، أنسيت..؟!

- عبد العزيز يطيل النظر في مهند وكأن ثمة أمر يشغله: حسنًا إن شاء الله.

لم يكن يملك عبد العزيز التصور الحقيقي إزاء هؤلاء الأصدقاء.. يعتبرهم متشدّدين لا يجدون الأنس والفرح ولا

يُحصِّلون من اللذائذ شيئًا، لذلك هو يتردد في الذهاب مع ابن عمه!

وصلا إلى المكان ورمى عبد العزيز بنظره إليهم قبل أن ينزل من السيارة وإذا هم على حال واحدة.. متحلقين ويتوسطهم شيخ يتحدث، يبدو عليه الوقار والمهابة استعظم عبد العزيز ذلك ووجد من نفسه صدودًا عن الجلسة معهم قال في نفسه: أنا لا أحافظ على الصلاة كما يجب، وأدخن، وأتعبت والدي كثيرًا، وهؤلاء المستقيمون يختلفون تمامًا، ويبدو أن لديهم متانة علمية وصلة قوية بالله.

- همس إليه مهند: لا تصافح أحدًا الآن.

- عبد العزيز مستوحشًا يقلِّب يده: لماذا؟

- لئلا نقطع مجلس الذكر، فقط نُلقي السلام ونجلس.

قعد كلٌّ منهما في مكانه واستمر الشيخ في حديثه، كان الموضوع عن « مُعوقات التوفيق » وبدأ عبد العزيز يتفحصهم بنظراته واحدًا تلو الآخر، لفت انتباهه توقف الشيخ للحظات يستذكر حديث أبي بكرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: « اثنان يعجلهما الله في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين » [صحيح الجامع]..

أخذ عبد العزيز يسترجع بعض ذكرياته المريرة مع والده وكيف أنه غادر وهو غير راضٍ عنه، فكيف يكون التوفيق حليفه إذن!!

وقال لنفسه: قد يوافيني الأجل وهو لم يرضَ عني

عاد منصتًا لكلام الشيخ.. وكان الأخير يقول: ما منا من أحدٍ إلا وقد قصّر في حق والديه لكن الله قد أتاح لنا التوبة ما دمنا في زمن الإمكان، وأخذ يوصي باغتنام ما بقي من الحياة والازدياد من الطاعة قدر المستطاع وأن ذلك سيكون سببًا للتوفيق في الدارين، وخلاف ذلك فإنه سيكون شؤمًا وخذلانًا.. إلى آخر ما قال.

أنهى الشيخ حديثه وفُتح المجال للأسئلة، وجاء من ضمنها سؤالًا على مراد عبد العزيز:

السائل: هناك بعض الآباء فظاظًا في أساليبهم وتعاملاتهم مع أبنائهم وربما حرموهم بعض ما لهم، فكيف يكون موقف الابن هنا وما هو التصرف الصحيح في التعامل مع هذا الأب؟؟!

أجاب الشيخ: لو كان الأب مشركًا لما وسع الابن أن يعامله بجفوة، قال الله: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥]، هذا ما أمر الله به، فكيف إذا كان الأب مُسلمًا؟! ثم إن ما يراه الابن من غلظة الأب لهو نابع من حرص ومصلحة، ولا يُمكن لأب أن يأمر بما يراه هو الأصلح، قد يسئ الابن الفهم أحيانًا وقد تختلف وجهات النظر بينهما، وكأين من أبناءٍ لم يعوا ذلك إلا بعد أن أصبحوا آباءً، وندموا اشد الندم على ما كان منهم تجاه آبائهم، وتمنوا أن لو كانوا قد بروهم قبل أن يوارَوا الثرى.. قالها الشيخ وهي تقع موقع السهم في قلب عبد العزيز!!

كان لكلمات الشيخ وقعها في قلب عبد العزيز وانشغل بالُه، وتشرَّد ذهنه، فما كان منه بعد أن سلّم عليهم وصافحهم وتعارفوا على بعضهم إلا أن قام بالاتصال على أبيه من جواله الجديد، ورحب به الأب، ليس بالترحيب الحار لكنه استبشر به وسأله عن حاله مع الكلية العسكرية التي جاء ليسجل فيها، ثم دعا له، فاكتسى الابن حماسةً وأملًا بالقبول، وهَدَف أن يسعده لاحقًا.

ثم اتصل بأمه ولاطفها، فرحت كونه يملك جوالًا تتواصل معه متى شاءت.

عاد من اتصاله مسرورًا.. جلس مع هؤلاء الصفوة وأحبهم، لم يكن في حسبانه أنهم على هذا المستوى الرفيع من الدعابة والمرح والتودد.

أكبَر فيهم معاني النبل وأمارات السمو والاحترام التي تبدّت منهم، كذلك التواضع ولين الجانب فكأنه يعرفهم منذ أمد.

لفت انتباهه تنوع الوقت وتنظيمه وهو يرى كل واحدٍ منهم موكولًا بأمر من الأمور.. قال في نفسه:

ما أكثر فوضوية أصحابي الأولين! وكم كان يتخلل تلك الجلسات من السباب والشتائم والمشاحنات.. بخلاف هؤلاء حيث الإيثار وبذل الودّ.

طال الليل على عبد العزيز رغم متعته ونفد الصبر فكان يختلس نفسه إلى مكانٍ بعيد ليدخن متظاهرًا بأن لديه مكالمات!

ولما حان موعد الانصراف وقبل أن يتفرقوا أظهر لهم سروره العميق بمناسبة التعرف عليهم وأسرّ في نفسه الرغبة بالتواصل معهم...

تفرقوا ...

قال عبد العزيز لمهند :

رفاقك يُشعرون المرء باحترامه وتقديره، وبالمناسبة فقد اتصلتُ بالوالد بعد حديث الشيخ وقد زال ما بيننا.

- الحمد لله، هذا خبرٌ سارٌ، ولا بد أن تعلم أن كبار السن - مهما بدر منهم- فإنهم يحتاجون منا تعاملًا خاصًا مراعاة لمشاعرهم وتوقيرًا لهم.

- إن شاء الله أرجو ألا يحصل خلاف بيننا بعد اليوم.

بعد أسبوعين ظهرت النتائج الأولية في الكلية الأمنية، وكان القبول حليفًا لمهند وعبد العزيز كليهما، واستكملا إجراءات فحص الطول والوزن والنظر.

وشاء الله أن يتم قبولهما بشكل نهائي، وكان لأبي مهند دورٌ كبيرٌ في ذلك..

التبريكات والتهاني تترا على أبي عبد العزيز لقبول ابنه في كلية الملك فهد الأمنية، خاصة أن هذا القبول جاء على غير المتوقع فعبد العزيز لم يكن مستواه يخوّله..

عامر ومنيرة كان كلّ منهما يعيش فرحتين.. فرحة قبول ابنهما عبد العزيز وفرحة زواج ابنتهما زهرة، وهذا الأمر الأخير الذي لم يُعجب عبد العزيز.. إلا أنه ما زال يتبادل مع أخته التهاني والتبريكات مجاملةً..!

مع الأيام.. ومن خلال اتصالاته بوالدته وكذلك أخته كان يحس بارتياحها الكبير تجاه هذا « بندر » زوج أخته، الأمر الذي خفف من حدة رأيه حول منعها من هذا الزواج.

* * *

- ١٢ -

بعد مضي شهر يجئ اتصال من رقم مجهول على جوال عبد العزيز وإذا هو صديقه الحميم (ناصر) الذي كان معه في القرية!

استهلّ المكالمة بالتهنئة ثم عرّض برغبته في المجيء إلى الرياض بحثًا عن فرصة وظيفية بعد أن انقطعت به المحاولات في أماكن عدة دون جدوى.

وبادره عبد العزيز بقوله: تأتي.. ونستأجر سويًا، ولكن هناك مشكلة واحدة!!

– ما هي؟

– لا بد لنا من سيارة هنا، فهل تستطيع.. قاطعه ناصر: معي سيارتي.

– عبد العزيز في حماسة شديدة: سأكون الأكثر دعمًا من الناحية المادية فلديّ مكافأة كل شهر.

انتهت المكالمة ولكن هناك شيئًا بقيَ في نفس عبد العزيز، حيث عَزّ عليه أن يفارق مهند وأهله ونازعته نفسه واختلط في داخله ألم فراقهم بأمل الحرية مع صديقه.

مرت الأيام والليالي وانتقل عبد العزيز مع صديقه ناصر (أعزب) في إحدى الشقق القديمة وسَط الرياض بعد ممانعة شديدة من مهند وأبيه خوفًا عليه من الضياع، لكنه آثر الانتقال، وكان بذلك قد ابتعد أكثر عن مقر الكلية التي سيداوم فيها.

استُهِلت الدراسة في الكلية كالعادة بالتدريب المكثف أربعين يومًا لا يستطيع الطلبة الخروج منها، ثم أعطي بعدها إجازة قصيرة ليفاجأ بعدها بأنه طيلة أيام الأسبوع سيبقى في الكلية عدا يومي الخميس والجمعة، تكلم عبد العزيز مع ناصر في ذلك يعرض عليه الأمر وكأنه يستجديه لينظر في الأمر، حيث لا يستطيع المجيء إلى الشّقَة سوى يومي الأربعاء والخميس ثم يفيء إلى الكُلية كل جُمعَة!!

أجابه ناصر: أنا لم آتِ إلا لأجل الوظيفة.. وسواء أكنت معي أم لا سأكون راضيًا بالواقع.

استمر عبد العزيز على هذا الحال، بينما كان صديقه ناصر يقاسي الغربة ومداهمة الفراغ..

لم يطل الحال حتى بدأ ناصر بالتعرف على بعض الأصدقاء، وفي حين ذلك فإنه لم يألُ جهدًا في البحث عن

وظيفة، وأحسَ بتعايشِ أجمل بعد أن تعرف على جملة من الأصدقاء.

مرّت حوالي خمسة أشهر وقام ناصر خلال تلك الفترة بإسكان اثنين آخرَين في الشّقة وأصبحوا أربعة: ناصر وعبد العزيز من قبل وانضم إليهم هذان الاثنان، ولم يكن منهم أحدٌ قد توظف بعدُ سوى شخص واحد فقط يُدعى خالد، كان يعمل جنديًا في قطاع الأمن العام بالإضافة إلى كون عبد العزيز يدرُس في الكليّة الأمنّية.

وكان يفد إليهم دائمًا صديقهم ماجد الذي كان يطيل النظر في عبد العزيز بين الفينة والأخرى، ويسأله بعض الأسئلة التي لم تكن تعنيه إطلاقًا؛ لذلك فعبد العزيز لم يرتاح له منذ أول لقاء، ماجد كان يُكثِر التلفت يمنةً ويسرة كما لو كان يشعر بالخطر، وعيناه المتقاربتان كانت توحيان بالغدر، ونظراته في الآخرين كانت باحتقار، وإذا ما ضحك فسرعان ما يقطع ضَحكَه..

كانوا يقضون أوقاتهم في الغفلة والضياع، وكان إذا خرج إليهم عبد العزيز في يومي الخميس والجمعة يزدادون تيهًا وطيشًا ويزداد معهم.. يلهون ويتمتعون كيفما أرادوا لدرجة أن

عبد العزيز أصبح يستثقل الرجوع للكلية أحيانًا.. لكنه يأطر نفسه في الذهاب إليها أطرًا.

بعد مضي سنة كاملة وفي جملة ما يمارسونه من الضلالات والأخطاء عرض عليهم خالد فكرة الذهاب لأحد الأسواق المعروفة بعد أن ضمن لهم عدم دخول رجال الهيئة هناك!!

مضوا إلى هناك في اليوم التالي وهم يحتقبون نية السوء..

أخذوا يتجولون في السوق، وهو عبارة عن مجمّع كبير يوجد به عدد من المداخل.. بداخله دكاكين صغيرة تفتح جميعها في الممر الكبير وهي تحفة من جهتيه كلتيهما، هذا الممر يجلس فيه الباعة فيحصل بعض الاكتظاظ عند أفواه الدكاكين.

كان هؤلاء الشبان يرتدون ألبسة لا تتواءم مع الألبسة الدارجة والمعتادة، وتبدوا عليهم قصات شعر غريبة..!

هناك عند أحد البوابات كان الباعة بالداخل يجلسون ولديهم أصنافٌ من السرابيل الملونة والقبعات والجوارب حيث اقترب فصل الشتاء.

وهناك كان ثلاث فتيات يتنقلن من مكان لآخر لوحدهن يقهقهن ويتخافتن، وهن يرتدين نقابات يظهر معها نصف الوجه وعباءات ضيقة تصف أجسادهن، بينما الحُليّ تُزين أكُفهنّ وكذا الأصباغ الحمراء في أظفارهنّ.

تهامس الشبان الأربعة وانتدبوا ناصرًا بالتحديد ليقوم بعملية التعرف على الفتيات، كان السوق مزدحمًا بالنساء، ولا يُدرى ما إذا كان ذووهن موجودين أم لا، كان يمشي ناصر متآخمًا لهن في الناحية المقابلة ممسكًا بالجوال كالذي ينظر فيه، وما زال يختلس الفتيات بنَظرِه ويتجول ببطء..

اقترب منهن ورأينه وبادلنه النظرات.. اتجهن إلى الطابق الثاني ولم تكن تبدو عليهن أمارات الاحتشام أو الخوف!

توقفن.. واقترب هو، وكلما اقترب منهنّ شعَرَ برعشة وارتباك، قال في نفسه: لابد أن أجوزهنّ وألقي بالرقم فأنظر ردة الفعل لديهنّ.

إحداهن كانت تتحدث بالجوال وهي تنظر إليه، وبعد لحظات وقعت رسالة في جواله أرسلها عبد العزيز تفيد بأن سيارة الهيئة موجودة عند باب السوق، دبّ الذعر في قلبه مباشرة، اتصل بعبد العزيز فلم يرُدّ فاتصل بماجد:

- أين أنتم؟

- مرقنا من السوق، ولا نعلم عن خالد.

- أين هم الآن رجال الهيئة؟

- سيارات الهيئة بالخارج وهم الآن داخل السوق.. حاول أن تخرج من أقرب مكان.

نظر للفتيات وقد أقبلن إليه فوقف مكانه وتجاهل أمر الهيئة، آثر السكوت وبقي يعبث في جواله، اقتربن وهو محدّق في جواله، مررن بجانبه على مهَل ورائحة العطر تفوح منهن، همست إحداهنّ إليه بكلمة الحُب، وأراد أن يعطيها الرقم وكانت قريبة جدًا فأربكه اتصال ماجد وأحس بالخطر:

- أين أنت.. بسرعة؟

- ناصر منزعجًا: في الطابق الثاني.

- اهرب.. اهرب، ادخل في أي محل.. حاول أن تختبئ.. هاهم يصعدون السلم.

- حسنًا.

جُزن الفتيات قليلًا وأشارت الفتاة نفسها تلوّح له بيدها فاضطرب في داخله ولم يدرِ ما يصنع، قرر سريعًا إن يلقي إليهن بالرقم ويهرب مباشرة، وبالفعل اقترب منهن كثيرًا وأسقط الرقم قريبًا من إحداهن وهو مرتبك جدًا، ثم انبرى هاربًا فصرخت الفتاة بأعلى صوتها تسبه وتقذف إليه بالتهم وتعالت أصواتهن..يا قليل الحياء..يا حيو... على مجيء رجال الهيئة واجتمع الناس، أمسك به العسكري المصاحب لرجال الهيئة، حاول أن يفلت فأوثقوه، الحاضرون كانوا ينظرونه وكأنما شفِيت صدروهم بذلك وهو يقسم بالله أن الفتيات هنّ من أتحنَ له ذلك.. كذّبه أحد الموجودين قائلًا: رأيتك عندما ألقيتَ بالورقة.

سأل أحد رجال الهيئة الفتيات: أنتن اللاتي اتصلن بنا؟

فأجبن: نعم، وهذا هو الشاب الذي يضايقنا!!

قدموا إلى مقر الهيئة وتفاجأ ناصر بأن خالد قد سبقه ثَمَّ، رآه خالد فلم يكترث له، واستأنف في إلحاحه على الشيخ يرجوه ويسأله بالله أن يعفو عنه فقد بات متأخرًا عن عمله.

أشفق ناصر من الحالة الرثة لرفيقه وحاول أن يفهم أكثر، لكنهم أدخلوه هو إلى أحد المكاتب وانتظر قليلًا، حتى

جاءه اثنان من الموظفين وقاموا بتفتيشه.. لم يجدوا سوى الجوال ومحفظة النقود وعلبة سجائر!

لحظات حتى جاءه رجُل يظهر عليه الوقار ونورٌ في الوجه.. سلَّم عليه، ثم استهل حديثه بالثناء عليه بما يظهر له من سيما الخير الموجودة فيه، تجاذب الحديث معه حول المشكلة التي جاء بسببها.

قطع الحديث دخول أحد الموظفين يبحث عن بعض المستندات في المكتب، وسأله الشيخ:

- هل أُدين الشاب الموجود بشيء؟!

- نعم، اعترف واعترفت الفتاة كذلك أنها كانت معه في خلوة.

- وهل ستحال قضيتهما إلى جهات أخرى؟!

- أظن أنها ستحال، والأمر يقرره الشيخ يوسف بعد قليل!

ظهر الارتباك على محيّا ناصر وطفِق كعادته يلوك أظفاره، ونظراته غير هادئة تمامًا، استأنف الشيخ حديثه وألقى سؤالًا إلى ناصر:

– أرى علامات الخوف عليك، هل سبق وأن أُخذ عليك أي تعهد في مركز هيئة؟

– ناصر يجيب والشر يتقافز من عينيه وبنبرة حادّة: لا ..

– حسنًا، بما أنها أول مرة فسنأخذ عليك تعهدًا بعدم العودة، ولكن قبل ذلك أود أن أهمس إليك:

أعرف بأنك من أسرة محترمة ومن أصل طيب.. تصور لو وُجِد أحدٌ يتتبع أختك أو قريبتك في السوق لا قدّر الله أو يحاول التقرب منها..

– ناصر محمرّ الوجه مهمهًا: احترم نفسك!!

– الشيخ ينظر في ناصر باسمًا: إذن فلتحترم نفسك أيضًا أنت، فالناس لا يرضونه لأخواتهم وبناتهم.

– أخذ الشيخ نفسًا طويلًا وقام من مكانه: سأُحضر ورقة التعهد، دقيقة وآتيك.

اتصلَ ناصر برفاقه وأخبرهم بما حصل لخالد وأنه سيحال ربما للشرطة أو لهيئة التحقيق والإدعاء العام..

عودة الشيخ قطعت المكالمة فأغلق ناصر الجوال مباشرة..

استأنف الشيخ: « تفضل اكُتب ما أمليه عليك » وبعد أن انتهيا من كتابة التعهد والتوقيع أخذ الشيخ الورقة ثم قال:

- لديّ سؤال.. وكان الشيخ يريد أن يَعِظه، ما الذي دعاك لهذا الفعل؟

- هذا حال الشباب في كل مكان!

- الشيخ يغمض عينيه: لا، فهناك شباب فضلاء تأبى عليهم مروءاتهم وأعرافهم وقبل ذلك دينهم من أن يقعوا في مثل هذه الأمور... لماذا لا تقتدي بهم؟؟!

- ناصر متأففًا: متى سأخرج؟ ألا تكفي هذه الورقة؟

- هل أنت موظف؟

- ليس من حقك أن تسأل هذا السؤال.

- بل من حقي أن أسأل..!

- ناصر يضع يده على خدّه وينظر فيه يبدو متضايقًا: لا، لست موظفًا.. ما زال البحث جاريًا عن الوظيفة.

- الشيخ لا يُعلم ما إذا كان جادًا أو هازلًا: لدينا مكان شاغر هنا.

- لا أحب أن أعمل معكم.. أنتم متشددون!

- الشيخ وهو يمرر يده على لحيته: من قال لك هذا؟

- الناس يقولون.. وطريقتكم في القبض علي وانتهاري ثم تقييدي بهذه الطريقة أثبتت ذلك.

- نحن يا أخي الكريم جهة حكومية.. ونعمل باسم السلطة، هل من المجدي أن نَعظ كل من يفعل هذا الفعل المشين في السوق ثم نتركه؟ إذن لعَمّ الفساد!!

ما زال الشيخ يحدق في ناصر: أرأيت لو شاورناك في المجيء معنا بعد أن رأينا منك ما رأينا وبدون فرض أو إلزام هل ستأتي معنا؟!

- ولماذا.. قاطعه الشيخ: أجب على سؤالي أولًا هل ستأتي معنا؟!

- ربما.

- إن كنت ستصدُق أنت وتأتي معنا فهل كل الشباب سيأتوننا؟

- لا أدري لكن لماذا لم تُمسكوا بالفتيات وهن والله اللائي سوغن لي ذلك بضحكهن وتمايلهن ولباسهن الفاضح غير المحتشم!!

- أهو كذلك؟

- نعم، بل إحداهن كانت تشير إلي بيدها وتكلمت معي!!

- لو ثبت لنا شيء مما ذكرت لأمرناهن بالركوب وما ترددنا في ذلك..

- هذا الشاب المقبوض لديكم إذا كان سيحال لجهة أخرى فهل ستحال الفتاة معه؟ أم أن الشباب هم فقط من تحيط بهم العقوبة؟

- هذا الشاب ليست المرة الأولى له فقد تم أخذ تعهد عليه من قبل هو وصاحبٌ له!

وبالنسبة للفتيات فنحن نستر الواحدة منهن قدر المستطاع، إلا من ولي أمرها وننذرها ونَعظها، لأنه لو كُشف أمرها لأحد من الناس غير وليّها لذهبت سمعتها مباشرةً وسمعة أهلها ولضاع مستقبلها، بخلاف الشباب فالأمر أوسع من ذلك!

سمع الشيخ وهو يتحدث مع ناصر تمتمةً بالأسفل وأحس بوجود حركة غير عادية في المركز، لفت انتباهه الخروج السريع لموظف الصادر وذؤابته كانت مسدولة على ظهره.

توقف الشيخ عن الحديث حين سمع بعض اللغط بالأسفل وعلامة التوجس قد بدت عليه، وفي ثوان معدودة دخل الموقوف الآخر (خالد) عند ناصر وبحضرة الشيخ، تجرد من الأدب.. وهتف بصاحبه:

هيا، قم بسرعة.. استغرب الشيخ فكاكه كما استغرب معرفته بناصر..!!

نهض الشيخ ممانعًا فأخذا يهدّدانه وكان في يد خالد حديدةٌ يَهِمّ أن يرميه بها!

لحظات ويدخل ثلاث شبان آخرين على غِرة- من جملة أصدقائهم- ويمكّنا صاحبيهما من الخروج وبقعة دم كانت تظهر على ثوب أحدهم، الشيخ أحس بالخطر، لم يُحدِث أي ردة فعل.. خرج الخمسة في منَعةٍ وعزّة أمام ناظريه.

أمسك بالهاتف الثابت واتصل بكل المكاتب الموجودة في المركز لم يرُدّ عليه أحد، تضاربت الأفكار في عقله بأن ثمّة مكروه قد حصل لرفاقه، أراد الخروج غضبة منه، وإذ بناصر قد عاد إليه يرمُل، دخل عليه كالمجنون- لا يُدرى ما به- أخذ التعهد بسرعة خاطفة وكان مطروحًا على المكتب ثم مزّقه فأمسك الشيخ بآلة الدبابيس ورماه لكنها أخطأته وولى هاربًا.

احمرّ وجه الشيخ وفقد السيطرة على أعصابه، نزل للأسفل ورأى كافة زملائه موجودين، لا يدري ماذا يصنع!! كأنه في حلم، أشار إليه اثنان من أعضاء الهيئة كما لو كانا يأمرانه بالهدوء وألا يُحدث شيئًا، أشاح بوجهه تلقاء السيارات التي أمامه وهي تغادر المكان متكدّسة بالشباب..!

* * *

- ١٣ -

قال مدير الهيئة للأعضاء: الحمد لله على سلامتكم وأشكر لكم حسن التصرف في عدم مناهضة هؤلاء الأحداث، وأبشركم بأن بيانات البعض منهم موجودة لدينا ولن يفلتوا.. قالها وهو ينظر إلى العسكري المُقعد بزيه الرسمي في الناحية الأخرى والدم يسيل من رجله.

أمارات الهدوء كانت على بعضهم، وبعضهم الآخر كان مضطربًا، وتكلم أحدهم: أهم ما في الأمر أن الفتاة في وضع آمن ولم تًصب بمكروه.

حضَرت الشرطة: وأثناء استجواب الفتاة تبين أنها كانت ذات علاقة وطيدة مع خالد، وباحت لرجال الشرطة والهيئة ببيانات أكثر عنه.. وتبين من قولها ادعاؤه بأنه يعمل نقيبًا في جهة عسكرية!

لم يجد رجال الأمن بعد ذلك عناء في القبض على البقية وأتوا بهم لفيفًا، كل هؤلاء الشباب الذين ساعدوا على إخراج ناصر وخالد إنما جاءوا بدعوة من ماجد الذي لا يتوانون عنه.

أودعوا في السجن عن بكرة أبيهم وكان عددهم ثلاثة عشر شابًا أعمارهم تتراوح ما بين الثامنة عشر إلى السادسة والعشرين!

وفي حين أن ماجد هو من قام بضرب العسكري ومعه شابٌ آخر فإنه قد اتّهم عبد العزيز بذلك أثناء التحقيق، وما كان من الأخير إلا أن أقرّ خوفًا من رجال الأمن وأملًا في العفو.

لم يكن هناك بُدٌّ من طي قيودهم سواء من كان يعمل منهم أو يدرُس فالجريمة نكراء! اعتداء على موظفي جهة رسمية حكومية بالإضافة إلى المساس برجل الأمن التابع للهيئة وهو بزيّه الرسمي بالإضافة إلى بعض السوابق الأخلاقية والسلوكية التي اعترفوا بها أثناء التحقيق.

عبد العزيز صاحب الفطرة السوية والذي لم يكن له يد طولى في أسباب تلك العواقب الوخيمة إلا أنه جارى الرفقة السيئة وصَحِبَهم وكان يفعل من الأمور ما ليس يؤمن بها وإنما تقليدًا ومحاكاة لهم، بات اليوم مفصولًا من الكلية العسكرية التي بني عليها أمنياته وارضى بها والديه.. وأصبح في القائمة السوداء على المستوى الأمني لا تقبله أي من الدوائر الحكومية بعد ذلك.

مهند أخبر أباه بما حصل لابن عمه فاستاء والد مهند ولم يُبدِ تجاوبًا، لسان حاله:

هو من آثر أن يعيش مع رفقة السوء.

من باب الوضوح وتبرئة الذمة اتصل أبو مهند بأخيه عامر وأعطاه الكلام مفصّلًا، وما كان من الآخر -وكان سريع الغضب- إلا أن أقسم بالله جهد يمينه ألا يُسلِّم على ابنه ما دام على قيد الحياة حتى يعود إلى الكليّة العسكرية أو يجد وظيفة أخرى تضاهيها.

الحُكم عليهم كان متفاوتًا بحسب ما ظهر من الأدلة والاعترافات فأقلهم ثلاثة أشهر في السجن مع الجلد..

وأما عبد العزيز وأربعة معه فقد حُكِم عليهم بثلاث سنوات في السجنّ!!

وصل الحال به في كثير من الأيام إلى حد البكاء، وكان عمره آنذاك زهاء العشرين عامًا، وكان دائمًا ما يتوسل للسجَّان الذي لم يكن بيده شيئًا!

كان يتصل بأمه كل جمعة ولم يكن يشغل بالها فصله من دراسته بقدر ما كانت تقلقُ من الهمّ الذي يساوره لا محالة داخل جُدر السجن وما يعانيه جرّاء قلة العناية ورداءة الأكل..

كان أصحابه في السجن أربعة أحدهم كان معه في ذات القضية وآخر ابتُلي بالمخدرات واثنان متهمان بعملية سطو، وكان صاحب المخدرات قد آذاهم بالسباب واللعن وألفاظ السوء، لكنهم لم يكونوا يأبهون به كثيرًا نظرًا لما يمر به من الحالة النفسية والعقلية، وكذلك يفعل مع القائمين على شؤون السجن يرميهم بأبشع العبارات -أفرادًا وضباطًا- ولم يكونوا يكترثون له.

في أحد الأيام تفاجأ عبد العزيز بوجود مهند ووالده ضمن الزوّار، وفرح فرحًا عظيمًا برؤيتهما.

بقيا معه شيئًا من الوقت، وعلى الرغم من تصنع والد مهند في اخفاء امتعاضه جرّاء التصرفات التي وقع فيها ابن أخيه وأودت به إلى هذا الحال إلا أن عبد العزيز نفسه كان يقرأ الاستياء وعدم الرضا في سكتات عمّه كما كان يقرؤها في عينيه.

أخبره أبو مهند بأن ليس له قدرة في مساعدته البتة، ثم طمأنه ظاهرًا وخلَقَ له بعض الأمل في حياةٍ أفضل بعد خروجه..

وكذلك فعل مهند معه حيث جعل يرفع من معنوياته.. وقال له هامسًا مع وهلة انصراف والده: لعل هذه القضية تكون نقطة تحول بالنسبة لك وتستفيد منها درسًا عظيمًا.

- عبد العزيز كالذي يسترضيه: الخطأ خطئي يوم أن تركتكم ولكني استحييت من صديقي الذي قدم إلى الرياض يبحث عن وظيفة ولا يعرف فيها أحدًا غيري، ثم أخذ نفسًا طويلًا..

- وهل وجد وظيفة؟

- لا، هو موجودٌ الآن في عنبر آخر، وكذلك صديقنا الآخر ماجد قريبٌ منه كانا معي في ذات المشكلة، وهناك -وكان يشير إلى جهة أخرى- عددٌ ممن كانوا معنا!

لم يكن يخطر ببال مهند إطلاقًا أن ماجد هو صاحبه الأول.. فكم في الناس من ماجد؟! بينما ماجدٌ قد استبان له الأمر منذ وهلة تعرفه على عبد العزيز!

مهند يأخذ نفسًا عميقًا: لولا مداهمة الوقت لذهبتُ وسلمتُ عليهم.

أوصاه بالصبر في عجالة شديدة ثم انصرف يريد اللحاق بأبيه على أمل زيارة أخرى..

بقي عبد العزيز على هذه الحياة الضنكة واعتادها قسرًا، وبطبيعة الحال فنفسه كانت تسوء يومًا بعد يوم، كان بعض الزوار والمصلحون ينصحونهم بحفظ القرآن أو قراءة كتاب والاشتغال بما يفيد لطرد الفراغ والذي سيجلب لهم الكثير من الأوهام.. وكثيرًا ما كان يحاول صاحبنا أن يقرأ أو يحفظ لكنه ما إن يبدأ حتى يمل سريعًا فيترك كل شيء ويستسلم للتفكير.

مرت الليالي والشهور في السجن ثقيلة جدًا وانتهت نصف المُدّة (عام ونصف) تقريبًا، زاره خلالها شقيقه سعد الذي قدم من أبها، وخلال الزيارة وفي معرض حديثه بشّره قائلًا: لقد أصبحتَ خالًا، رُزِقَتْ زهرة بمولودها الأول وفرح عبد العزيز لأخته، لكن ثمة شعور بالندم قد خالط فرحَه ذلك، وتمنى أن لو كان طليقًا فيزورها ويرى ابنها.

يتحدث سعد ومع كل كلمة ينكأ جراح أخيه.. أخبره بعظيم شوق أمه لرؤيته، وذكر أن أمنيتها الوحيدة هي زيارته والسلام عليه لكن حاجة أبيها إليها أصبحت أكثر من ذي قبل، وهنا تحشرج عبد العزيز وغص بالبكاء شوقًا لأمه وندمًا لكونه قد حطم آمالها في الوظيفة التي كانت تنتظرها له.

بقي معه طوال وقت الزيارة.. وسأله سعد:

- هل يزورك أحد هنا في السجن؟!

- نعم يزورني عمي وابنه مهند وأصدقاء مهند، واستمر سعد ينظر إليه قبل أن يقول عبد العزيز: الحقيقة أنني عرفت قيمة أهل الخير وعرفت قيمة الأصدقاء الحقيقيين.

- أوَليس لك أصدقاءُ أنت يزورونك ويُسلّونك؟؟!!

- نعم، ولكن أكثرهم في السجن.. وأسرّ في نفسه: حتى لو كانوا خارج السجن لا أظنهم سيزورونني أو يهتمون بي!

- سعد يخفض صوته متوددًا، لا تعد إليهم اسمع نصيحتي هذه المرة، إنَّ رفاقًا ورّثوا لك السجن ليسوا بصادقين، قاطعه عبد العزيز: مستحيل أن أعود إليهم لقد استفدتُ درسًا رائعًا.

- في آخر اللقاء طلب عبد العزيز من سعد أن يحاول استرضاء والده عنه وأن يبذل كل ما بوسعه في سبيل ذلك، وقال: «أبلغ أمي السلام وقل لها إنه في صحة وسعادة ولسوف يخرج بإذن الله فتَرَي منه ما يُسعدك وتقرّ به

عينُك».. ثم طلب منه أن يعتذر له من زهرة، قائلًا: «ليس بمقدوري الاتصال عليها طيلة بقائي في السجن فهم لا يسمحون بالاتصال إلا لوقت وجيز خلال الأسبوع كاملًا أجعله لأمي».

بعد ذلك بثلاثة أسابيع وفي الجُمعتين الأخيرتين منها لم تعد منيرة ترُد على اتصالات ابنها عبد العزيز المتكررة مما زاده توجسًا!!

* * *

- ١٤ -

وفي أحد الأيام بعد صلاة الفجر بينما عبد العزيز نائم في سجنه دخل والد مهند إلى مكتب الضابط المناوب، معه بعض الأوراق، وبقي معه حوالي عشر دقائق ثم انصرف، توجه الضابط مباشرة إلى غرفة السجن التي يقبع فيها عبد العزيز ومعه أحد الأفراد، استخلصاه من السجن وكان نائمًا فرأى الضابط -فور استيقاظه- يهمس إلى العسكري المرافق له..

أوجس عبد العزيز في نفسه خيفةً واستنكر نظراتهم، أمره الضابط باحتقاب أشيائه الموجودة وأخذه بيده.

سأله عبد العزيز وهو يزيل آثار النوم عن عينيه ويبدو عليه الخوف:

- ما الأمر؟

- أبدًا... جاءنا أمر بالإفراج المؤقت عنك لمدة ثلاثة أيام تزور فيها والدتك لأنها مريضة وتود رؤيتك!

- عبد العزيز مندهشًا: وما هو مرضها؟! قالها وهو يتحسس أزرار ثيابه يريد إقفالها.

- الأمر بسيط إن شاء الله ولعلها رغبت في رؤيتك أكثر من كونها مريضة.

رن هاتف الضابط والتقط السماعة، عبد العزيز كان ينظر إليه بتركيز شديد ويقول في نفسه: لم أعهد أسلوب الرفق من قِبَل هذا الضابط!! الأهم الآن أن أرى والدتي وأطمئن عليها فلعل الله استجاب دعائي ودعاءها بالخروج من هذا المكان الكئيب، ولعله- سبحانه- أن يُحدث بهذا الخروج خروجًا نهائيًا.

الضابط بعد أن فرغ من المكالمة: هذه الورقة جاءتنا من جهة عليا تتضمن الإذن بذهابك كما قلت لك ثلاثة أيام فقط ولا بد أن توقع هنا.

عبد العزيز لا يريد التأخر: هات الورقة، ووقّعَ عليها دون أن يقرأها، وكانت يده ترتعش.. وفي داخله أملٌ كبير بأن هناك تغيّر ما سيحدث.

الضابط: الآن تتوجه مع العسكري إلى المطار.. ثم دعا له.

سأله العسكري المرافق له وهما في طريقهما للمطار سؤالًا زاد من تفاؤله، قال: هل انت قريب للعميد أبي مهند؟

- أجاب عبد العزيز على الفور: نعم، إذن أنت تعرفه؟

- لا، ولكنه هو من أتى فجر اليوم ليتمم إجراءات خروجك وأعطى هذه التذكرة للضابط وحتّم بضرورة خروجك في هذه الرحلة تحديدًا، ثم ناوله التذكرة وناوله ورقة أخرى وقال بأنها صورة للإذن بخروجك.

أضمر عبد العزيز في نفسه فرحًا عظيمًا، وقال: إذن فهذه خطة حكيمة من عمي لكي أخرج وفقه الله! وسوف أتصل به فور وصولي عند الوالدة بإذن الله.

ما زال يتصل بشقيقه منذ أن خرج فلا يجيب، ويتصل بشقيقته وجوالها مُقفل.. وصل المطار الأقرب لقريته وكانت تبعد نحوًا من الساعة والنصف، ركب في سيارة أجرة قديمة يقودها رجُل خمسيني يسير ببطء شديد ويصاحبهما اثنان آخران، توقفوا لأداء الصلاة، وما أن كبّرَ الإمام حتى أخذ عبد العزيز متاعه وأبَقَ إلى حافة الطريق واستوقف أحد المارّة ومضى معه.

أبهظ عليه السعر مقابل أن يوصله بيت أمه، واقتربا من المنزل في الطريق الضيق، ونبضات قلبه تتسارع شوقًا ليفاجئ أمه بمجيئه، الغريب أنه بعد تلك الأثناء وكان يوشك أن يصل

أحس بأن العَبرة تخنقه، وبدأت في نفسه بعض التوقعات والأفكار المشوبة بالقلق تتضارب في مخيلته.. وشريط ذكرياته بأمه استعرضه سريعًا في تلك اللحظة.

أطلّ على بيت أمه فرأى عدد من السيارات عنده وحولها أطفال يلهون خارجًا، أمَرَ السائق بالانصراف ثم ترجل يمشي ببطء شديد والتفت ذات الشمال ورأى رجُلين في الفلاة قادمَين أحدهما محسور ثوبه والآخر في يده أشبه بالمسحاة، كان يراهما من بُعد، فبدا مضطربًا كمن يمشي في وُحْل، ثم سار خائفًا نحو الباب وهو يهمهم مرددًا يُسمِع نفسه أمي أمي.

دفع الباب.. أين هي؟ ونساءٌ كُنَّ بالداخل أخذن يتلفَّعْنَ بأيديهن وجلابيبهن.

لم يجبنه، وتقدم خطوات للأمام يهيم كالمجنون، لا يسمع إلا البكاء.

رأته خالته التي تكبُر أمه فاستبق إليها يقبّل كفيها ورأسها وانصرف النسوة اللاتي كن معها.. واستعجمت هي عن الكلام!!

كلمته إحدى النساء الكبيرات أن اذهب إلى أهلك.. وأشارت إلى إحدى الغرف.. قابله سعد وعانقه قبل أن يرى

أمه ممدة على طاولة الغسيل، وأخذ يقترب منها ويتهدج صوته بالبكاء وتناولَه أخواله يُهدِّئونه ويأمرونه بالصبر بينما كان جده يجلس على الكرسي الموضوع له ممسكًا بعصاه يذكر الله ويسترجع بنبرة الصابر.

كانوا قد أتموا غسيلها وتكفينها وأصبحت مسجاة ببطانية ينتظرون صلاة العصر أن تحين ثم الصلاة عليها ومن ثم دفنها..

أشاحوا بالبطانية ليراها ابنها الأصغر، فأجهش بالبكاء وانكبّ عليها يقبّلها ويعتذر لها في موقف يدمي القلب، يتكلم معها كما لو كانت تسمعه أو تراه أو تعقل عنه!

كان وجهها حسَنا نقيًا تعلوه علامة الرضا والطمأنينة وتنبعث معه رائحة الكافور.

وعلاوةً على ذلك فقد طمأنه إخوته وذووه ممن كان حاضرًا بحسن خاتمتها وأنها كانت تذكر الله كثيرًا منذ بداية مرضها ونطقت الشهادة قُبيل أن تموت في الليل.

بصوت الغاضب: لماذا لم تُخبروني بمرضها..!!

سكت الجميع، ولا يزال يمسك بجسدها وقرُبت الصلاة وهو واقفٌ عندها يتحسسها ويشمها ويقبلها، فلا يطيق أن يتصور بأنها ستوارى الثرى بعد قليل.

كانت عيناه تجودان بالدمع يتذكر شقاءها وتعبها، ثم يحيل نظره إلى سعد وزهرة وهما ينتحبان.. فيكاد يتقطع من الحسرة لا سيما أنه لم يحقق شيئًا من آمالها فيه.

في لحظات سريعة ادَّكَر كيف كان فرحها بزيارتهم فلم تكن تملأ عينيها منهم ولا هم يملؤون أعينهم منها.

أخرجوا النساء من الغرفة كي يتسنى للرجال الدخول ومن ثم حملها على النعش فكانت أخته ترفض وتمسك بطرف الطاولة وصوتها يعلو بالبكاء.. أُخرجت، ودخل الرجال فوضعوها على النعش ثم حملوها بشكل سريع وكذلك في مُضِيِّهم نحو المسجد كانوا يحثون الخُطا، ولا يفتأ صوت ابنتها مسموعًا.

عبد العزيز وأخوه كانا يشاركان الرجال في حمل والدتهم، وأخذ يشعر عبد العزيز - رغم هول الصدمة - بشيء من الطمأنينة يدبّ في داخله أخذ يتمتم بمزيج من البكاء: اللهم ارحمها اللهم ارحمها.

ركنوها جانبًا ريثما أُدِّيَت صلاة العصر ثم وضعوها في المحراب وصلوا عليها، ولم يكن عبد العزيز يعرف صفة الصلاة على الميت لكنه لم يزل يدعو لها مع كل تكبيرة.

ثم حملوها واندفع الناس يمشون خلفها، يراه الشخص فيربت على كتفه والبعض منهم يقبّل رأسه ويدعو لها بالرحمة، عيناه شاخصتان في النعش حيث لا حراك لأمّه!!

وفي منظر رهيب.. وحيث كانت والدة عبد العزيز على شفير القبر.. وهم يهيئون القبر سقط ابنها الأكبر مغشيًا عليه رغم أنه كان الأكثر تماسكًا وصبرًا، حملوه إلى ناحية أخرى.

عبد العزيز تسمّر في مكانه ورفرفت أشفار جفنه من الهلع.. لم يُصب بمصيبة قبلها فغصة الأسى ما زالت تتعقد في حلقه وتكبر.

أخذ الناس في تدلية منيرة في القبر، وأمواج الخوف تتقاذف في نفس ابنها الذي يراها وهي تغيب للأبد، يكاد قلبه يطير من صدره ليرتمي معها في القبر، وباتت محبة الحياة تنتحر في داخله.. إنها تُغادر الحياة فيغادر معها الحنان والدفء والنعيم..!!

أخذ يقتربُ من الحفرة التي ستُؤوي أمه وكان يمد عنقه في تخوف شديد ليراها وهي تنزل القبر، خاله إبراهيم كان في القبر يتلقاها ليتم تمكينها.. وضعوا اللّبِن وسدّوا به ما تخلل من الحجارة، كاد أن يصخب بأعلى صوته.

دُفِنت المرأة واختفت عن الأنظار، وستبقى إلى قيام الساعة مرهونة تحت أطباق الثرى، لم يتبق سوى ذكراها تُمثّل هاجسًا أليمًا في نفوس أبنائها.

طَفِقَ الناس يُعزُّون أباها وذويها، وكان الأب متوكئًا على عصاه وله خنين، أتوا به رغم تدهور حالته الصحية ليشهد دفن ابنته التي كانت تقوم بشؤونه في السنوات الأخيرة.

عاد الأبناء وهم مُثقلون بالأحزان حينما تركوا من كانت تملأ شعورهم وأحاسيسهم حبورًا ونعيمًا.. تركوها وحيدة بين الجنادل..!

قضى عبد العزيز يومين بعدها في بيت جده حيث مكان العزاء، كان مرهقًا للغاية يستغل الأوقات التي لا يكون فيها أحد فينام، كان لبعض المعزّين ممن شاطروه المصيبة أثرًا في تصبيره وتسليته والتخفيف عنه.

وجد اتصالات عدة في جواله لم يتمكن من الرد عليها، كان من ضمنها رقم مهند ورقم أبي مهند وأرقامًا شتى...

فكر قبل أن يسافر بالسلام على والده وإخوته الصغار، لكن ثمة موانع..

أحدها: مخافة أن يطرده والده أو يرفض استقباله بسبب فصله من الكلّية!

والثاني: مخافة كلام أهل القرية وازدرائهم له جراء السجن فيلمزونه به!

بالإضافة إلى ما هو فيه من الضيق والضنك.. فقرر أن يعود إلى المكان الذي جاء منه، ودّع شقيقه وشقيقته وأخواله، وكذلك ودّع (بندر) زوج أخته الذي لم يكن قد رآه من قبل.. وكان الأخير واقفًا معهم في كل لحظات الحدث، وسُرَّ به عبد العزيز.

تم إيصال عبد العزيز إلى المطار في صباح اليوم الثالث حيث موعد الرحلة بعد أن استودع ذويه أحياءً واستودع أمه وهي غائبة في جوف الأرض.

وعاد وهو مُثقل بالانكسار..

وفاء إلى السجن المَقِيت ليتجرع الضيم من جديد بعد أن تجرع كأسًا من الأسى أعظم بكثير.

* * *

- ١٥ -

عزَّاه بعض الأفراد والضباط وقد تغيرت معاملتهم تمامًا، ولم يَر منهم بعد ذلك سوى الإحسان!

بعد يومين أو ثلاثة جاءه مهند وأربعة من أصدقائه، وكانت تلك الزيارة قد دملت شيئًا من جرحه في فقد أمه حيث أبانوا له معنى كثيرٍ من الأمور والتي خففت عنه مصابه.

من ذلك قولهم أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى.

ذكروا له بأن ما أصابه لم يأت من عدو، وإنما جاء بتقدير أرحم الراحمين.

ذكّروه بأن الله أرحم منه بأمه وأن رحمته وسعت كل شيء.

ذكّروه بأن الحياة مجرد معبر ووسيلة إلى الآخرة وأن كل المخلوقات التي على وجه البسيطة إنما هي لفترة مؤقتة ثم تزول.

وأن هذه الدنيا هي دار ابتلاء.. مملوءة بالأكدار والأحزان وكما قال الله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

أبانوا له أعظم ما يعين على المصيبة متمثلة في قوله الله -عز وجل-: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

فتحوا له باب الأمل وبشروه بما يحصل للصابر على المصيبة وأعظمه دخول الجنة بغير حساب بالإضافة إلى معية الله له ومحبته ورضاه، وتكفير السيئات وحصول الصلاة من الله والرحمة والهداية ورفعة الدرجات.

- سألهم وهو يستشعر تفريطه معها أثناء حياتها: هل أستطيع أن أبرّ بها بعد موتها؟؟!

- نعم تستطيع، ويحصل ذلك بالدعاء والصدقة، بل تستطيع أن تجعل لها وقفًا يدرّ عليها الأجر وهي في قبرها.

كان عبد العزيز ينصت لما يقولونه وأحس بسريان السعادة والأمل إلى قلبه.

شكرهم، وودعهم ممتنًا لما بذلوه معه ووقفوا إلى جانبه هذه الوقفة الصادقة.

وتعاظمَهم بعد ذلك في نفسه، وبقي يتسلى بكلماتهم كلما تذكر أمّه!.

راح يفكّر في التغيير الإيجابي وأعظمه ما يكون في سبيل الدار الآخرة وأن تتبدل حياته من الشقاء إلى السعادة ومن الظلمات إلى النور لاسيما أن السجن قد حال بينه وبين التدخين وأبعده عن الرفقاء السيئين، بل وأعاد إليه بعض التوازن وأضاف إليه تجربة سيستفيد منها طيلة حياته.. هكذا كان يفكّر وينوي.

تصرمت الشهور ومازال عبد العزيز في حبسه، وأمانيه تنمو وتخبو، تارةً يفكر في صناعة مستقبلة الوظيفي وتارةً يتحمس للتغيير، ثم ما يلبث أن تزاحمه الأفكار التي ترسم له خُطى نحو عالم التجارة لضعف أمله في الوظيفة وفي النهاية يصرعه اليأس حيث لا يجد رأس المال الذي يبدأ به.. وفي حالٍ من الضعف يصل به التشاؤم أحيانًا إلى احتقار ذاته والاستسلام من كل شيء.

هكذا أصبح يتخبط في الأفكار يتيه يمنة ويسرة لا يجد الرؤية الواضحة، قاربت مدة السجن أن تنتهي حيث لم يتبق سوى أشهر قليلة وقد بلغ به السيل الزبى، وبات يعدّ الثواني

دقائق والدقائق ساعات، زاره مهند في المرة الأخيرة قبل خروجه وزف إليه البشرى بوجود مكان شاغر له في إحدى الشركات يعمل مُعقّبًا ريثما يُكمل الدراسة أو يجد وظيفة أعلى منها، اتفقا على أن يتصل عبد العزيز بمهند فور خروجه، وقال له مهند: البيت يتسع لك وصدورنا أوسع، وعده عبد العزيز خيرا وتفرقا..

وقبيل أن يخرج بأيام بسيطة دلف إليه ناصر يزوره بعد أن قَدِمَ الأخير من القرية إثر نشوب خلاف كبير مع أبيه، ولم يكن يدرِ عبد العزيز بخروجه من السجن أصلًا، فضلًا عن كونه قد سافر للقرية.

الشيء الذي أثر في نفس عبد العزيز هو تغير ملامح ناصر واحمرار عينيه وشحوب وجهه!

- ناصر يخاطب عبد العزيز: أنا ذهبت إلى القرية فور خروجي من السجن ولم أر سوى الثبور والتنكيل والتعيير من أهلها، وأنت تعرف مجتمعنا جيدًا لا يلوي أبناؤُه في الوقوف على الأخطاء وتتبع العثرات.

- عبد العزيز مقاطعًا: ولماذا تبدو هزيلًا حزينًا؟.. ما الذي حصل لك؟

– ناصر يقترب أكثر من القضبان: أبي جاء ليضربني وحاولت دفعه عني فسقط وشُجّ رأسه ووليت هاربًا .

– عبد العزيز مستاءً: كيف لك أن تدفع أباك؟

– رفعت يدي محاولًا اتقاء العصا فلم أشعر إلا وقد تلَّيته، ووالله لم أكن أتوقع سقوطه..! هالني ما رأيت وأنبني ضميري وأحسست بنفسي مخنوقًا عندما رأيت الدم يسيل منه، وراحت أمي تلعنني وهي تساعده على النهوض، وولّيت هاربًا إلى الرياض لا أدري ماذا جرى بعدي..

– استغفر يا ناصر واستفسر سريعًا عما جرى، ولابد أن تكلمه وتطلب رضاه في أقرب وقت.

– وأنت؟!! أما نسيت غضبة والدك عليك التي لم تنطفئ بعد منذ ثلاث سنوات؟

– لكن فعلي أهون من فعلك بكثير..!

– ناصر يخلل شعره ببنانه: متى ستخرج؟؟

– أسبوع واحد فقط وأخرج بإذن الله.

– لقد قمتُ باستئجار شُقّة ودفعت قيمتها كاملة طيلة العام.

– وكيف حصلت على المبلغ..؟

- ناصر يبدو كالذي يكذب: موَّلّني إياه أخي.

- أعتذرُ إليك فقد اتفقت مع ابن عمي مهند أن أقضي بقّية أيامي معهم، وعلى أمل أن أنتسب إلى وظيفة قد وعدني إياها.

- ناصر يمتلئ بالحقد والحسد: لك ما أردت، ولكني أنصحك بألا تفيء إليهم مرة أخرى فلئن تعفّ نفسك خيرٌ لك من أن تتكففهم، أو يكون لهم فضل عليك حتى وإن كانوا أقرباءك.. أنت إنسان حر.. وأنت كبير لست بالصغير، قم بزيارتهم بين الفينة والأخرى لكن لا تبقَ معهم على الدوام.

- عبد العزيز يجول بنظره ناحية السجين الجديد الذي وصل للتو وكان العسكري ممسكًا بيده يقوده للغرفة المقابلة، ثم أعاد النظر إلى ناصر: بل سأذهب إليهم وأسكن معهم، فأنا لم أصل إلى هذا السجن إلا بسببكم أنتم.

- ناصر يقهقه ضاحكًا: أو تزعم النزاهة؟!.. كلنا سواء في الخطأ، أستأذنك وأرجو أن تفكر جيدًا في أن تسكن معنا ولن نمنعك من الوظيفة التي وعدك إياها ابن عمك، فنحن نتمنى لك الخير، وإذا لم تتيسر فهناك بعض الأعمال الحرة ستجعل منك تاجرًا كبيرًا، والأمر إليك.

انصرف ناصر مستاءً من عبد العزيز، فلو ذهب الأخير ليسكن مع ابن عمه ربما لا يجد هو وماجد الشخص المناسب الذي يحل مكانه، وبنفس سذاجته، ليقوم بمساعدتهم في الترويج!!

انعطف ناصر إلى ماجد مرةً أخرى في عنبره، وعرَض عليه ما قاله لعبد العزيز، وهناك استطاع ماجد أن يخلق فكرة خبيثة من شأنها أن ينصرف عبد العزيز عن ابن عمه (مهند) (الذي ما زال كرهه متقدًا في نفس ماجد ..!!).

قال ماجد لناصر: سبق وان قلتَ لي بأن مهند هذا على وشك التخرج، أليس كذلك؟

– بلى..

– اُكتب رسالة إلى عبد العزيز باسم والد مهند تتضمن اعتذارًا عن استقباله له في المنزل واذكر فيها: « مهند سيأتيك يقنعك لتعيش معنا في المنزل وسيلح عليك، الرجاء لا تتبعه فأنا مشغول ولديّ أعباء كثيرة وأسفار، ومهند سيتخرج بإذن الله وسيكون مشغولاً بوظيفته وقد لا يتم تعيينه في الرياض أصلًا، وإذا ما أردت الزيارة فلك ذلك، ولا تخبره بهذه الرسالة ولك مني وافر التقدير ».

– من سيقوم بتسليمها؟

– لا عليك الأمر أبسط مما تتصور، أعطها لأحد عمال النظافة الذين يعملون هنا بعد أن تتفق معه، وأغرِهِ بالمال كي يقوم بتسليمها لهذا الغبي على أتم وجه فإذا ما جاء ابن عمه ليأخذه سيعتذر إليه، وسيأتينا صاغرًا فهو لا يعرف أحدًا سوانا.

– في نهاية فترة السجن وبعد ثلاث سنوات قضاها عبد العزيز بين الجدران وبين ما كان الشوق يحدوه ليخرج إلى الدنيا فيرى الشمس ويشم الهواء ويتحدث مع الناس، في تلك اللحظات التي كان فيها جذلًا منتشيًا يؤمل أن يعيش من جديد في ظلال الصحبة الصالحة، صحبة الأخيار مهند ورفاقه.. بينما هو كذلك إذ جاءته هذه الرسالة التي كدّرَت خاطره كثيرًا وضيّقت أمله وأصبح بين نارين..!

– هل يعيش لوحده فيكون مرمى لبراثن الفراغ، وأنياب الهمّ وضيق العزلة، وانعدام المال؟

– أم يعيش مع رفقة المكر والخديعة، الذين جلبوا له المذلة، وأقحموه في غياهب السجن، وحرموه من الوظيفة حتى سخط عليه أبوه وتحطّمت آمال أمّه فيه قبل أن تموت..؟؟

- أيبقى مع تاركي الصلوات وتُباع الشهوات وعَبَدَة الأهواء.. كلا!.

- هكذا فكَّر وقدَّر.. سيعيش وحده على أمل أن يجد الوظيفة التي ذكرها له ابن عمّه وسيكون على لقاء دائم بأهل الخير!.

- جاء مهند بعد صلاة الظهر على موعد خروج عبد العزيز من السجن وكان معه اثنان من رفاقه، جاءا لمشاركته فرحة الخروج بقيا ينتظران خارجًا ودخل مهند في حين أن عبد العزيز قد ترحل من العنبر إلى مكان الجلسة التمهيدية للخروج.

- تفاجأ مهند برفض عبد العزيز السكن معه واستاء منه أيّما استياء فبعد هذا الدرس الذي قُدّم له يعود في ذات الخطأ..!!

- هكذا أضمر مهند، وتساءل: لماذا وافق في الزيارة الماضية ورفض الآن..؟!

بقى يتودد إليه ويلح عليه في أن يذهب معه:

- أعطني سببًا مقنعًا يمنعك أن تذهب معي في المنزل وتسكن معي.. في بيت عمّك؟

- لا شيء يمنعني سوى رغبتي في أن أبقى وحيدًا.. (قالها بحزم).

- أخشى أن يتردد عليك أصدقاؤك الذين كنت معهم.

- لا، فقد عزمت على أن أتغير للأفضل بإذن الله، والتغيير لن يتحقق إلا بتركهم.

- مهند يسكت قليلًا، قال بحزن: فلتبق إذن قريبًا منّا وسأختار لك الشقّة بنفسي.

- عبد العزيز وهو يطيل النظر في مهند بعينين ضيقتين: حسنًا.

- إذن اليوم تكون عندنا، وغدًا أبحث لك عن الشقة التي تناسبك إن شاء الله.

- عبد العزيز يَظْهَرُ مرتبكًا ويلوّي رأسه: لا لا.

- لماذا؟

قاطعهم العسكري باستدعاء عبد العزيز في مكتب النقيب وتم أخذ تعهّد عليه وتكلم معه زهاء الساعة ثم خرج معه مهند، والغريب أن عبد العزيز لم يكن على قدر كبير من

الفرح بنفس ما كان عليه في الأيام الأخيرة قبل خروجه، يبدو مشغولًا بالتفكير وأسيرًا للقلق..! وهذا ما لحظه رفاق مهند الذين كانوا ينتظرونه بالخارج.

استأجروا له الشُقَّة التي ارتضاها هو وكانت قريبةً من منزل مهند ودفع عنه الأخير قيمة الإيجار لمدة ثلاثة أشهر، وأعطاه ثلاثة آلاف ريال يتبلّغ بها فترة من الزمن.

* * *

- ١٦ -

باشر (الملازم) مهند عمله في مدينة الخرج وكان لا يفيء إلى الرياض إلا في نهاية الأسبوع وينشغل كذلك مع والديه وأهله بما لا يسمح بزيارة عبد العزيز إلا في النادر، مضى على ذلك حوالي الشهر والنصف وما زال عبد العزيز يتابع مع مهند في الوظيفة التي وعده بها.

كان عبد العزيز يكرر على مهند: ما رأيك أن أبحث عن وظيفة أخرى فقد لا تتحقق هذه؟

ومهند كان يمنعه لعظم أمله في الحصول عليها ولرغبته القوية في أن يكون مع صاحبه المتدين في ذات العمل، ولم يألُ مهند جهدًا في تحقيق ذلك.

وكان أصدقاء مهند يصطحبون عبد العزيز معهم في اللقاءات والمحاضرات ويتخللونه بالزيارات كما أوصاهم بذلك مهند، لذلك لم يُصب بالملل وأندمج معهم وأخذت تشتد أواصر الصداقة معهم، لكنه -بطبيعة الحال- لم يزل يشعر بالنقص كونه لم يحصل على وظيفة!

كان يخفي الشعور بالذل عندما يكلمه مهندًا متفقدًا لأحواله المادية، أخذت الوساوس مأخذها في نفسه، ينتابه سوء الظن تجاه مهند بين الفينة والفينة كونه قد تأخر في إيجاد الوظيفة ورأى بأنه قد استغنى بوظيفته فلم يعد يبالي به.

وَرَدَ إلى مهند اتصال من صاحبه يفيد بتعذر الوظيفة رغم الجهود التي بذلها، وكان ذلك بمثابة الصاعقة عليه لأنه قد علّق ابن عمّه بها فلا هي بالتي تحققت ولا هو بالذي أتاح له البحث عن وظيفة أخرى..!

وفي ذلك الحين فقد أوشكت النقود التي مع عبد العزيز أن تنفد وقد مرّ على ذلك حوالي الشهرين، بات يتيه في الأفكار ويبحث عن قرار سريع يقيه الحاجة للآخرين ويمنع ذل الدّين.

في أثناء تلك الفترة جاء أحد أصدقاء مهند لزيارة عبد العزيز وتفاجأ بوجود ثلاثة من الشباب معه في الشقة تفوح منهم رائحة التدخين وتظهر عليهم أساليب سيئة في التعامل، ومما زاد الطين بِلَةً أن عبد العزيز نفسه لم يكن كما هو معهودٌ عنه في طيبته وسماحته..!

كان يرى منهم الهمز واللمز جميعًا ويقرأ فيهم الشُبهَة ويحس منهم المكر، يسأل عبد العزيز فلا يرُد بسرعة ويحاول أن يجاذبهم الحديث فينشغلون عنه بالتقليب في القنوات والمجلات..!

اضطر للاستئذان وتبعه عبد العزيز في الخارج معتذرًا منه جراء ما حصل قائلًا:

هؤلاء أصدقائي أتوا لزيارتي، وعذرًا إليك فهم لا يملكون الأسلوب الحسن في التعامل، وهم مقصرون جدًا في طاعة الله ويحتاجون النصح منكم والتوجيه..

واستقر في نفس صديق مهند أن عبد العزيز إنما كان يحاكيهم خوفًا منهم أو حرصًا على إرضائهم..!

تلقى مهند اتصالًا من صديقه الذي لم يتوانَ في إبلاغه وقصّ له ما رآه..

ثم خاطبه بقوله:

- أدرِك ابن عمك فهذه والله بداية الانحدار، انظر في الأمر سريعًا ونحن سنشد عضدك ونقف إلى جانبك، وعبد العزيز عرفناه ذا نفس طيبة وذا نفس قابلة للخير وحرامٌ أن يضل.

- مهندًا متحسرًا: هناك مشكلة أخرى ستسهم سلبًا وتؤثر عليه بشكل أكبر تتمثل في فوات فرصته الوظيفية التي كان يؤمّل فيها، لن أعجل في إخباره بذلك لعل الله أن يحدث أمرًا، وسأخبر والدي فور وصوله من سفره بعد ثلاثة أيام إن شاء الله علّه أن يجد له من العمل ما يُشغله ويغنيه عن الآخرين.

- حسنًا! فلتبادر إذن ولابد أن تزوره بنفسك وتتفقد أحواله خلال اليومين القادمين.

- اتصلتُ عليه مرارًا وكانت حاله حسنة في كل النواحي حسب زعمه.

ماجد يرسل رسالة إلى عبد العزيز:

« هل من الممكن أن أزورك الليلة؟! »..

رد عليه عبد العزيز بردٍّ يُعرِّضُ فيه بالحاجة إليهم، وهكذا يصنع الفقر أحيانًا: لكنني لا أستطيع استضافتكم في الوقت الراهن على أمل أن تتحسّن أوضاعي في الأيام القادمة..!

فرح ماجد حين أحس بحاجته، وردّ عليه: بل سنأتيك ونُحضر لك مفاجأة.

أخذ ماجد يشرح لناصر ألاعيبه التي سيمررها على عبد العزيز، قال: ما دام أنه محتاج للمال فسيسهل علينا إقناعه بالسكن.

ناصر لم يتواطأ مع ماجد هذه المرة حيث ثارت في نفسه كوامن المروءة ومعاني الأخّوة تجاه رفيق دربه وابن قريته، أخذ يحاجّه في ذلك ويوضح له أن عبد العزيز ليس لعبةً في يده يتصرف به كيف يشاء.

تفاجأ ماجد بتغير ناصر السريع والمفاجئ، لكنه ظهر بصورة ذكية حينما أحس بوقوف ناصر ضده هذه المرة، قال سنعرض عليه الأمر ونوضح له المكاسب التي سوف يتحصّل عليها أثناء دخوله معنا في الترويج، ونظر في عينَي ناصر ولم يزل الأخير يتحفظ على كلامه.. فتمتم بقوله:

- منذ فترة طويلة وأنا في هذه المهنة ولم يحصل لي ما أكرهه من المخاطر، بل كانت الأمور تسير بيسر وسهولة وأنت تعرف ذلك، والمقصود أنه في كثير من المرات كنا نحتاج أنا وأنت إلى شخص ثالث كي نصل إلى بُغيتنا من خلال تجارة المخدرات، والآن بتنا نحتاج إليه أكثر..

- ناصر يمطط شفتيه وينظر إلى الأرض: أشعر بأننا أصبحنا أسارى بسبب هذه المهنة!

- ماجد يتمنى أن يوقع ناصر في التعاطي مثله لا مجرد الترويج، قال ماجد: كيف تقول ذلك وقد أصحبت ذا مال بسببها؟!

وأردف: لن تكون ذا قيمة إلا بالمال.. لاسيما أنك لا تملك حاليًا أية وظيفة..!!

- ناصر يأخذ نفسًا طويلًا: وكيف سنُقنعه بالدخول معنا؟

- دعه لي.. ولا أظنه سيمانع البتة لأن هذا المشروع سيدرّ عليه من الأموال ما يفوق تصوره.

- حسنًا، بشرط ألا تجبره على ذلك وأن تبذل له كافة التصورات التي تفيده حيال هذا الموضوع وأن تختار له ما يناسب قدرته في الترويج، لئلا يقع بعدها ضحية للتبعات وهو في غنى عنها.

ما زالت الظنون السيئة تتقاطر نُكتا سوداء في نفس عبد العزيز تجاه مهند ووصل به الحال إلى اعتقاد أنه يتعمد إقصاءه عن الوظيفة ليبقى أقل منه وليبقى محتاجًا إليه.

قال في نفسه: لقد ألح عليّ مسبقًا بأن أسكن معه ليبقى متفضلًا عليّ، فلو كان صادقًا لاستطاع ولو بطريق والده إيجاد وظيفة، لكنني سأعود لأصدقائي الآخرين وأسكن معهم وسأجد وظيفة.. (قالها وقد اغرورقت عيناه بالدمع واستشعر الغربة والذل وأحس بضيق الحياة).

لقد كانت أمّي هي الحبل الوحيد بعد الله في هذه الدنيا تعطف عليّ وتسأل عني، وبعدها أصبحت اشعر بأنني قد كبُرت وتجردت حتى من كنَف والدي وانقطع وصالي بأهلي.

كان يتساءل: أنّى لماجد وناصر هذه الأموال؟!

حسنًا سأعرف عما قريب.

مضى أسبوعٌ وتلاه أسبوع آخر وماجد وناصر لم يأتيا إلى عبد العزيز بعدُ، ولم يكونا يجيبان على الجوال رغم كثرة اتصالاته..

زاد بذلك توتُّره، ونفَدَ ما تبقى لديه من المال سوى أن هناك بقّالةٌ قريبة كان يُسجل فيها احتياجاته ويقوم بالتسديد بعد الفترة والفترة، والعامل الموجود فيها -يمني الجنسية- كان يُقرضه ويتسامح معه إلى حد كبير!

خلال هذه الفترة التي تأزمت فيها أحواله جاءه شخص غريب لا يعرفه، اسمه « رامي » يبدو في العقد الثالث من عمره، طرَق عليه الباب بعد صلاة العصر، وسلّم عليه، رحَّب به عبد العزيز مجاملةً ثم أدخله في شقته الصغيرة وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث.

كان الرجل بشوشًا لبِقًا تفوح منه رائحة عطرٍ زكية ويبدو في لباس رسمي للغاية ومع ذلك فعبد العزيز كان مرتابًا إلى حد كبير كونه لم يفاتحه في الموضوع الذي جاء من أجله.

رشف رشفةً من الشاي الذي صنعه عبد العزيز لنفسه قبل أن يأتيه، ثم أخرج له مبلغ عشرة آلاف ريال!!

– عبد العزيز راح يُقلِّب الدراهم وقد تَفتَّحَ وجهه رغمًا عنه وبدا نشيطًا: ولماذا جئتني بها أنا تحديدًا؟!

– أرسَلني إليك أحد أصدقائك، قاطعه عبد العزيز: مهند؟!

– أخذ الرجل يضحك وأطال الضحك حتى خشي عبد العزيز على نفسه: ماجد ماجد ويكرر ثم يضحك، (يبدو أنه مريضٌ هذا الرجل) هكذا أسرّ عبد العزيز في نفسه، وقال: ماجد! لماذا لم يأتِ هو؟

- قال بأنه سيقابلك في الغد ويتحدث معك رأسًا لرأس.

انصرف الرجل بعد أن ودع عبد العزيز بابتسامته العريضة، ولم يكن مطمئنًا عبد العزيز حيال مجيء هذا الشخص لكن فرحة المال غلبت عليه لاسيما أن الرجُل جاء من طرف شخص معروف.

في اليوم التالي وبينما كان عبد العزيز ينتظر مجيء ماجد أو على الأقل يتصل به وإذ بشاشة هاتفه تضيء.. ألو.. نعم..

- السلام عليكم أنا مهند.

- سكت عبد العزيز قليلًا ثم نطق: لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

- مهند يشعر بحرارة في جسمه: عذرًا، هل أنت عبد العزيز؟!!

- بشحمه ولحمه.

- مهند أسِفًا: أنا مهند ابن عمك اتفقت أنا ووالدي على أن نزورك هذه الليلة.

- عذرًا، أنا مشغول.

- نأتيك من الغد إذن؟!

- تم إقفال المكالمة!!

لأول مرة يُقفل الخط في وجه مهند، كان هذا الموقف كالصاعقة بالنسبة له، ليس لذات الموقف فحسب ولكن بسبب التغير الجذري والنكسة المخيفة التي حصلت لابن عمه.

بقي مهند يومًا كاملًا والأفكار تتصارع في داخله والحسرة تكاد تقطّع نياط قلبه لتفريطه في حق عبد العزيز، وإهماله في التواصل معه، كان يشعر بأنه هو السبب في ضياع الوظيفة وفواتها على ابن عمّه.

لم يجد مهند بُدًّا من إخطار والده، اصطحبه في سيارته وأبان له الأمر مُفصَّلًا، شكر الوالد ابنه على حرصه واهتمامه بابن عمّه وسُرَّ كونه عَرض عليه السكن في بداية الأمر، أخذ الوالد نفسًا طويلًا وقال:

أولًا- فشفاعتي له في الكليّة الأمنية لم تكن في محلها.

- لماذا يا أبي؟

- عرفتُ لاحقًا بأنها لا تصح من الناحية الشرعية لأن بدخوله سوف يُحرم من هو أفضل منه سواءً من الناحية التحصيلية أو من ناحية استيفاء الشروط الأخرى.

- كنتُ أشك في كون هذا النوع من الشفاعة لا يجوز لأنه سيكون سببًا في حرمان غيره بالفعل (قاله مهند).

تكلم والد مهند بهدوء وكان عميق الفكر، واسع النظرة، كان يحكي لابنه موقفه مع عبد العزيز.. يقول: قابلته وجهًا لوجه قبل أسبوعين في أحد المراكز، كنت خارجًا من النادي الرياضي، وسرتُ إلى البقّالة لأشتري منها بعض الأغراض فوجدته ينازع البائع بالكلام محاولًا أن يخفض له السعر في إحدى السلع، ووافق له البائع بشرط أن يعطيه المال حالًا، كنت واقفًا أنتظره أسلِّم عليه ولم يرني بعد، استغربت من رفضه لكلام البائع وكأنه يطلب منه أن يبيعه بأجل، تراجعت خشية أن يراني فأنا لا أريد إحراجه، تسللت لواذًا إلى السيارة وبقيت فيها، فلما رأيته خارجًا وابتعد عن البقّالة عدتُ إليها وسألت البقّال عن شأنه، فأخبرني أنه يستدين منه بشكل دائم ويقوم بتسديده أحيانًا ويماطله كثيرًا، سألته متعجبًا ولماذا تديّنه ما دام أنه بهذا الحال؟

فأجاب: لقد علمت منه بأن حالته صعبة وأمّه ميتة وأن الأسباب منقطعةٌ عنه في هذه المدينة.. فأنا أشفق عليه وأمهله وأسامحه أحيانًا في بعض الدّين.

يستأنف والد مهند يقول.. فقلت: كم الدّين الذي عليه الآن؟

يقول: فقام بجمع الأرقام الموجودة في الدفتر وكانت بحاصل ألفين وثلاث مائة ريال، يقول أبو مهند فرُغت إلى الصرّاف لآخذ منه المبلغ، وأعطيته للبقال ثم طلبتُ منه ألا يأخذ شيئًا من عبد العزيز بعد ذلك على أن أقوم أنا بمراجعته في كل شهر لأسدّد المبلغ، وقلت له بأنني فاعل خير، سرت إلى داخل البقَّالة والتفتُ فإذا عبد العزيز قد عاد ووقف إلى جانب البائع ويبدو أنه أشار إليَّ البائع قبل أن أراه وأخبرَه هداه الله بسداد الدّين، وقع نظري في عبد العزيز وتقدمت إليه خطوات فلم يتحرك وغلبه الحياء فسلّم عليّ سلام الخائف المستعجل، ثم تغير وجهه فجأةً ونظر للبائع وقال له بصوت عال: لا أريد أحدًا أن يسدد عني، أفهمت!؟ لست في حاجة أحد.. لست في حاجة أحد، ثم غادر المكان وهو يلّوح بيديه يخفضها ويرفعها، نظرتُ للبائع فإذا هو يتبسّم بشيء من السخرية.

- مهند يقاطع أباه: لابد أن نتصرف سريعًا يا أبي لننقذه من وطأة الفراغ الذي هو فيه ومغبة أصدقاء السوء فردود الفعل لديه باتت سيئة وتصرفاته حمقاء.

– الوالد: هناك وظيفة لكنها تتطلب منه أن يلتحق بإحدى معاهد تعليم الحاسب الآلي لمدة ثلاثة أشهر فقط.

– حسنًا سأفاجئه بالزيارة هذا اليوم حتى وإن استثقلني، فليس لديّ فرصةٌ أخرى، وسأتفقد أحواله، وأبحث معه عددًا من الأمور وأزفّ إليه بشرى الوظيفة..

– وأنا أوافقك وأدعو لك، وجميلٌ أن تصطحب أحد أصدقائك فقد يفتح الله عليه مالا يفتحه عليك.

– لا يا أبي، أبقى لوحدي أدعى في حصول المزيد من الشفافية والصراحة..!!

فَرغ مهند من عشائه ثم توجه إلى عبد العزيز متوكلًا على ربه، وقبل ذلك اتصل ناصر وماجد بعبد العزيز أيضًا وأخبراه بمجيئهما في ذات الليلة..

❋ ❋ ❋

- ١٧ -

خطوات مهند كان يُسمع وقعها في مدخل العمارة المؤدي إلى شقة عبد العزيز، اقترب مهند وتوقف عند الباب لحظات وهو يسمع صوت إحدى المغنيات في التلفاز!!

وإذ يطرق مهندٌ الباب يا رب أن ترده إليك ردًا جميلًا، سَمِع الترحيب بصوت عال ويبدو عبد العزيز في غاية السرور.

فَتح الباب ولما أن رأى مهندًا فَغَرَ فاه مندهشًا للحظات، وأطال فيه النظر باتساع ويبدو احمرارًا في وجنتيه ثم تلعثم وتمتم.. هلا هلا.. ووضع يده في يده ثم انتبه للتلفاز فأطفأه وعاد مُرحبًا به ترحيب المُكرَه، عانقه مهند عناق المعتذر ثم دلف إلى الداخل ويبدو التمعر في وجه عبد العزيز وهو ينظر إليه كما لو كان غير راضٍ من دخوله بهذه الطريقة فهو لم يأذن له بالدخول بعد!

- بادره مهند: أعرف بأنك مشغول ولتسمح لي فقط بخمس دقائق من وقتك.

- عبد العزيز ينظر في ساعته وهو يزمّ شفتيه: حياك الله.

– مهند يتبسّم وقال في شموخ: أنا مهند، هل عرفتني الآن؟! أم أنك لا تعرف أحدًا بهذا الاسم؟!!

– عبد العزيز يهز رأسه – نعم – وكان متكئًا بكلتا يديه خلف ظهره.

– ما صدر منك أثناء ردك في الجوال لا ينبغي أن يصدر من أمثالك.

– عبد العزيز مقاطعًا له بنبرة الكاره أو المستثقل له: هل جئت للتحقيق أم أن لديك أمرًا آخر.

– أتيت لثلاثة أمور: أولها – بالنسبة لتقصيري معك في الفترة الماضية فالله يعلم بمدى حرصي على مقابلتك، وأنك لم تغادر ذاكرتي لكنّ بُعد العمل هناك وازدحام المشاغل هنا هي من أبعدتني عنك.

ثانيها- هناك أحد الإخوة وهو رجل فاضل من أهل الصلاح نحسبه والله حسيبه يسكن لوحده حافظ لكتاب الله ولديه سيارته الخاصة أريدك أن تسكن معه ولا أظنك ستمانع في هذا.

ثالثها- أزف إليك البشرى وجود وظيفة مضمونة بإذن الله عن طريق والدي.

شخَص عبد العزيز فيه بنظره ثم أحمّرت عيناه وتكرر رمشُها لتفيض حينها بالدمع، وكان فكّه يرجُف!

تأثّر له مهند وتغير وجهه: مالك؟

استعجم الكلام على عبد العزيز ونكّس رأسه، يفرك عينيه بطرف أصبَعَيْه السبابة والإبهام، وكان متربعًا في جلسته.

ما زال به مهند يُسلِّيه تارة ويتفرَّع به عن الموضوع تارة.

وفجأة بدّل عبد العزيز من حاله واستجمع قواه كالثائر يخالطه البكاء: أنت كاذب وأبوك كاذب، أنت تريد لي الخير في الظاهر وأبوك يرسل إليّ الرسائل في الخفاء، وكلاكما باتفاق.

- ماذا؟ رسائل؟

- واصل عبد العزيز ينثُرُ ما في داخله ومهند يُنصِت، كان الأَولى ألا أحتاج لأحد هنا ما دام أنكم موجودون، ولكن هيهات! لقد عرفت أقاربي على حقيقتهم!

مهند متعجبًا من تسلط الشيطان: نعم، (يريده أن يكمل).

استأنف عبد العزيز: وتأتي الآن معتذرًا بعد أن كذبتَ عليّ بزعمك أن هناك وظيفة تنتظرني وكنت تمانع أن أبحث عن

وظيفةٍ أخرى، لأبقى قانعًا أو معترًا!! أبشرك فقد تصدّق علي الآخرون ولله الحمد والوظيفة قريبًا إن شاء الله.

فجأة.. طرق الباب ونهض عبد العزيز مُسرعًا يغسل وجهه وكان مهند مشدوهًا ينظر إليه متأثرًا بما قاله.!

فتَح الباب وإذا هو ناصر في قارعة المدخل لوحده يشير له بصمت أن تعال، تقدّم إليه عبد العزيز ولم ينتعل.

- سأله ناصر في همس: يبدو أن عندك أحد، فهل نؤجل الزيارة لوقت آخر؟

- لا، سيخرج بعد قليل.

- سننتظر في السيارة حتى يخرج إذن؟

- أُدخلوا، عله أن يغادر.

- أراك متاثرًا.. ما الأمر؟

- لا لا، لا عليك هذا ابن عمي مهند، بيني وبينه بعض الأسرار فقط نقلّب الذكريات والمواجع، وسيخرج حالًا، ثم إنه لدي بعض الزكام.

- حسنًا، سأخبر ماجدًا ونأتيك حالًا.

– أريدكم أن تُلمحوا إليه أن المجال لم يعُد له.. سأبقى هنا إلى أن تأتيا، بسرعة.. هيا.

ماجد يتلقى ناصرًا: ماذا قال لك؟

– يقول: لديه ضيفٌ ثقيل وطلب أن نزاحمه بالكلام من أجل أن يخرج.

– ماجد يبدو مُمتقع اللون: هل قال لك ما اسمه.

– نعم، يقول بأنه ابن عمه (مهند) أما تذكر كان يزوره في السجن ويحاول أن يستميله عنّا، هيا لنراه، فأنا لم تسبق لي رؤيته، ثم لننابزه بالكلام– إن لزم الأمر– حتى يخرج كما فعلنا مع ذلك الشاب المتدين الذي قابلناه في المرة الأولى.

– يبدو منزعجًا ماجد: لا لا، اذهب أنت.

– لماذا.. ما الذي جرى يا ماجد؟

– لديّ اتصال هام جدًا وسألحق بكم.

– حسنًا.

عاد ناصر إلى عبد العزيز وسمعهما مهند وهما يتهامسان عند الباب، وفَهِم أن ثمة شخص آخر سيأتي، وكان حريصًا على أن يرى أصدقاء عبد العزيز.

دخل ناصر، وتفاجأ عندما رأى مهند وتعاظمه لِمَا رأى عليه من المهابة وأمارات الصلاح وامتلأ حياءً وإجلالًا له.. واستطاع مهند بأسلوبه العالي في التعامل وبلباقته وانتقائه للألفاظ والعبارات أن يكسب وده أكثر وأكثر.

ناصر يريد إنفاذ ما قاله له عبد العزيز، ولكن الحياء غلبه، ثم إن مهندًا كان يسأله عن حاله ويجاذبه أطراف الحديث ولم يدع له الفرصة في شيء..!

مشى عبد العزيز للداخل وسأل مهندٌ ناصرًا: هل سيأتي أحد؟ فقال: نعم سيأتي بعد قليل صديقٌ لنا كان معي قبل قليل، ذهب لبعض شأنه وسيعود.

عاد عبد العزيز ويبدو أنه غير مستقر ذهنيًا، نظر في مهند وقال: نعتذر إليك فأنا وصديقي نريد أن نخرج إلى حاجة لنا، وحينها سكت ناصر وهو متضايقٌ جدًا من هذا التعريض الغبي!

اعتذر مهند بشموخ وقال إنما بقيت لأسلم على صديقكما الثالث.. (وبهذا اتضح كذب عبد العزيز وأن ليس لديهم نية في الخروج).

ثم عَرَض عليهما مهند هما وكافة أصدقائهم الغائبين استضافة في منزله إكرامًا ومحبةً، وزيادة في التعرف عليهم..

أحس ناصر بوضاعته ووضاعة عبد العزيز وماجد وكافة أصدقائه أمام شموخ هذا الرجُل، ووعده خيرًا وقال: (سنبادلك الزيارة، لنزداد معرفةً وتشرفًا بك)، وكان ناصر ينوي ذلك بصدق.

قُبيل أن يخرج مهند وصلت رسالة جوال إلى ناصر صدّرها ماجد يقول فيها: « لقد ذهبتُ لظرف طارئ وسوف أتأخر ».

قرأها ناصر على مسمع صاحبيه فاستشاط عبد العزيز غاضبًا وتوجه بعينين غاضبتين إلى مهند وكأنه يلقي باللوم عليه، ففهِم مهند ما ترمي إليه نظرات ابن عمّه، وأن صديقهم الذي ينتظرونه كان يتحاشى رؤيته، فاستأذن مهند من ناصر ثم طلب منه كذلك الإذن في أن يخلو بعبد العزيز بضع دقائق.

خرجا إلى الشارع ولم يكونا يتوقعان أن ثمة أحد يراهما نظرًا لخلو المكان عدا وجود بعض السيارات، تحدث معه قليلًا ثم عرَض عليه أن يصحبه إلى مدينة الخرج في ذلك الأسبوع

حيث مقر عمله، وتحدث معه في أمر الوظيفة التي عرّض بها أبوه فرفضها وحقّر من شأنهما..!

مهند يقترب منه أكثر ويحدّ فيه النظر: عيبٌ عليك ثم رفع يده يريد أن يمسك بكتفه فظن عبد العزيز أنه سيضربه، فضربه عبد العزيز بمجموع كفه على رقبته، فتسمّر مهند مكانه وهمّ أن يرُدَّ الضربة ضعفين لولا أنه اعتذر عبد العزيز فورًا كونه قد أساء الفهم وأراد تقبيل جبينه، فعرف مهند أنَّ ضربته إنما جاءت بحماقة ثم دفعه ومضى معرضًا، ما زال عبد العزيز يهتف به معتذرًا ثم أشار إليه مهند كما لو كان سامَحَه..!

كان ماجد مختبئًا خلف حائط قريب ناحية الظلام وسمع ورأى كل ما حصل بين أبناء العم، ثم سمع عبد العزيز وهو يهتف بمهند مرةً أخرى بعد أن ابتعد عنه قليلًا يقول له: سأذهب معك إلى الخرج.. ورغم أن مهند متغيرًا وجهه كالغاضب بسبب الضربة، لكنه قال لعبد العزيز: حسنًا سيكون الانطلاق غدًا بعد صلاة العصر مباشرةً، وهذا ما لا يريده ماجد!

غادر مهند ورجع عبد العزيز إلى الداخل ثم امتطى ماجد سيارته ولحق بمهند...

لم يعد ماجد متأكدًا من كون مهند هو نفسه ذلك الصاحب في الثانوية فالشكل يبدو مختلفًا عما كان عليه في السابق، لم يميزه من قُرب، أصبح ذا لحية كثّة وصار سمينًا ويبدو ذا وجه مستدير تملؤه الراحة والثقة.

كان يُرجّح أنه هو، لذلك فقد ازداد له حَسَدًا وشنآنًا، مشى خلفه بسيارته حتى إذا ما وصلا إلى الإشارة القريبة من بيت مهند تجاوزها الأخير، فيما لم يستطع ماجد أن يدركها، وحالت السيارات دون أن يقطعها لكنه لا يفتأ يذكر المنزل جيدًا، وبمجرد أن فتحت الإشارة يمّم نحوه بسرعة جنونية.

وصل ماجد على نفس امتداد الشارع الذي يقع عليه منزل مهند، وولج مهند المنزل فيما بقيت أنوار السيارة يراها ماجد من بُعد إلى أن انطفأت تمامًا وسكنَت، أخذ يقترب في هوادة وبُطء وكان متلثمًا بعمامته البالية، وصل السيارة وأخذ يتفحصها وحَفِظ رقم اللوحة جيدًا ثم غادر المكان..

عاد إلى رفاقه وكان أول سؤال سأله ماجد لعبد العزيز: من هو الشخص الذي كان موجودًا هنا؟

– ابن عمي «مهند» ضابطٌ في مدينة الخرج.

- لماذا لا أراك تتواصل معه وتذهب إليه؟ عرفتك من فترة طويلة وهذه أول مرة أعلم بوجود أقارب لك هنا..!!

- كنت معهم لكن بمجرد مجيء ناصر من القرية آثرت أن أسكن معه.

- ناصر يتحدث بجدّية: الآن بعد أن عرفتُ مهندًا أقول لك: «لو كنت مكانك لما وسعني أن أسكن مع غيرهم».

- ماجد يبتسم ابتسامة المغضب: ربما لا يريد أن يبقى معهم، وأعتقد أن السلامة إنما تكون في البعد عن الأقارب، وقد قيل: الأقارب عقارب.. يأتي منهم الحسد وإساءة الظن.

- ناصر: ليس شرطًا فهناك من الأقارب من يكون بلسمًا على الجرح.

- عبد العزيز ينظر في ناصر: بالنسبة لي فقد وجدت من أقاربي هؤلاء ما لا يسر، فمهند كان باستطاعته أن يجد لي وظيفة بسهولة، لكنه ما زال يماطل ويتجاهل حتى فاتني القطار، وأبوه يعرف كل المسؤولين ولم يراع قريبه المقطوع.

- ناصر: أنا أسمع بعمك جيدًا، الكل يحبه ويحترمه وما زال ينفع الآخرين بما يقدر عليه، وأعتقد لو تكلمتَ معه لهيأ لك ما تريده.

- ماجد: كم من الأشخاص يخدم الآخرين ويرتاحون له لكن أهله وذويه وأقاربه يكرهونه لسوء خُلُقه واعوجاج تعامله، أقول هذا الكلام وهو واقعٌ عندنا وعندكم وفي كل مكان!!

- عبد العزيز يخفض صوته ويدير نظره إلى ناصر مرةً أخرى وكأنه يوافق ماجد: عمي رغم أنه ذو منصب عالٍ فقد أرسل لي رسالة حينما كنتُ في السجن مفادها ألا أسكن معهم!.. فهل هذا العم يستحق الاحترام والتقدير؟

- ماجد يظهر عليه الارتباك خشية أن يهتك ناصر سر الرسالة لاسيما أنه أصبح متعاطفًا مع عبد العزيز، قال: دعونا من هذه الأمور، ولتأذن لنا بالمغادرة.

- عبد العزيز مستغربًا: لا، ليس بَعدُ، فقصة العشرة آلاف التي أتى بها صديقك لم أعرف سرّها حتى الآن.. ما الأمر؟

- ماجد بعد إن استتم واقفًا: ما رأيك أن تذهب معنا هذه الليلة؟! فإذا أصبحنا من الغد أخبرناك بكل ما تريد! فالموضوع يستدعي بعض التفاصيل.

ماجد كان يختلس النظر تارةً في ناصر وتارةً في عبد العزيز..

- قال عبد العزيز: سأسكن معكم إن شاء الله لاسيما أن إيجار هذه الشقة على وشك الانتهاء، ولكني غدًا سأذهب مع مهند إلى الخرج وسأبقى معه أسبوعًا كاملًا ثم آتيكم.

- ماجد: حسنًا لك ما أردت.

ناصر لم يرضَ بهذه المستجدات فهو يعرف جيدًا المكر الكُبّار الذي يدبره ماجد، بل إن ماجدًا هو من استطاع التفرقة بين عبد العزيز وأقاربه، وقد لاحظ ماجد عدم ارتياح ناصر لكنه آثر السكوت حينها.

استأذن ماجد وناصر على أمل أن يكون معهم بعد أسبوع..

ما زال عبد العزيز ينتظر مهند بعد صلاة العصر في يوم الجمعة استعدادًا للذهاب معه إلى مدينة الخرج والتي تبعُد نحوًا من الثمانين كيلًا عن مدينة الرياض.

مر وقت العصر كاملًا.. لم يأت مهند ولم يكن يرد على جواله رغم تكرار الاتصالات!

استراب عبد العزيز كون مهند لا يردّ، فهو يعي تمامًا اهتمام الأخير بالمواعيد وصدقه فيها، فهو لا يتوقع أبدًا أن يتركه إلا لظرف طارئ!

اتصل ماجد بعبد العزيز قُبَيل المغرب..

- ألو.. عبد العزيز.

- مرحبًا..

- كيف الأجواء لديكم في الخرج؟!

- لم نذهب بعد.

- ماجد بتركيز شديد: لماذا؟.. هل قررت البقاء؟!

- لا، لكن مهند لم يأتِ بعد، فإن كان قد غادر فهذا سيكون مَفرِق الطريق بيني وبينه وسيكون آخر عهدٍ لي معه.

- ماجد تتزايد نبضات قلبه: فلتتصل به أو لتذهب أنت بنفسك إلى منزله لتستبين حقيقة الأمر.

- اتصلتُ به فلم يرد ولا أود الذهاب إلى بيته.

- ماجد في قالب النصيحة ولحاجة في نفسه قال: اذهب إليه فإن رأيت سيارته وإلا فارجع ومعنى ذلك أنه قد ذهب وتركك.

فكَّر عبد العزيز في الأمر وقرر أن يذهب بنفسه فركب مع صاحب أجرة، ولما وصل ثمّ رأى عددًا من سيارات الدفاع المدني ورجال الإطفاء والأمن وجمعٌ كبيرٌ من الناس متجمهرين حول سيارةٍ غَلَب على ظنه أنها سيارة مهند، اقترب فإذا هي هي بالفعل قد باتت سوداءَ في بعض جنَبَاتها وحواشيها!

أخذ عبد العزيز يتوسط الجمع دون أن يشعر والخوف يساوره راجيًا ألا يكون قد أصيب مهند بمكروه، فكان يسأل من يَلُونَه وكلهم يقولون احترقت السيارة فقط والسبب مجهول!!

ناداه مهند إذ كان واقفًا مع العساكر في ناحية أخرى وإلى جانبه والده واثنان آخران، تقدّمَ إليهم عبد العزيز وتطلّقا في وجهه وانبسطا إليه وعانقه عمّه معاتبًا إياه على الانقطاع، فعلى الرغم من أن عبد العزيز تذكر الرسالة مباشرة أثناء سلامه عليه، وتذكَّرَ صمتَه تجاهه خلال الفترة الماضية إلا أن هذا الاستقبال الحار في مثل هذا الموقف الصعب ليدل على محبة عمّه له وأنه ذو قدرٍ عالٍ في قلبه.

هنّأهم بالسلامة ودعا الله بأن يُعوّضهم خيرًا من هذه السيارة.

كانا راضيين بما قدّره الله وكان مما قاله أبو مهند حينئذ وهو يتحدث إلى عبد العزيز: الحمد لله يا بُني هذا خيرٌ من الله قد يكون في طياته رفعةٌ لنا وتكفيرٌ من خطايانا ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة:٢١٦]، ولا تحصل مثل هذه الابتلاءات إلا بسبب ما نحدثه نحن الآدميون من المعاصي تجاه الخالق -جل وعلا- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورَىٰ:٣٠].

التفت العسكري إلى مهند: بإذن الله سنبذل ما بوسعنا في القبض على أصحاب الجريمة ولن نألو في ذلك جهدًا.

أحد الحاضرين ممن كان واقفًا: قد لا تكون مقصودة هذه الفَعلة.

مهند وكان يبدو حسيرًا: بل هي مُتعمَّدَة، ولكن لن نَعجَل في إلقاء التُهمة على أحد.

عبد العزيز كان ينظر في سيارة مهند وكيف استحالت جُفاءً لا قيمة لها، وأثناء ذلك همس إليه والد مهند يسأله عن حاله ثم قال له مشفقًا ويبدو أنه قد تحدث مع مهند في شأنه:

كنت أتمنى يا بُنَّي ألا تقطع وصالك عنّا فنحنُ أهلُك، وإني لأبوء بتقصيري لكنها المشاغل!!

وما كان من تقصير رأيته مني فإما لانشغالي أو لكثرة أسفاري كما تعلم..

كان يتكلم وعبد العزيز يقول في نفسه: يحسَب أن رسالته لم تصلني في السجن، ويريد الآن أن يرقِّع الخرق الذي أحدثه.. كلا، لن أُصدّقه في ما يزعم ويقول.

استأنف أبو مهند: تحدثت مع صديق لي قبل أيام، وأخبرني بأن لديه مكانٌ شاغر في شركته، لا يتطلب منك سوى الحصول على دورة معتمدةٌ في الحاسب الآلي لمدة ثلاثة أشهر، وسيكون لديك بعدها مرتّب طيب بإذن الله.

قطع مهند حديثه والده: لتأذن لنا يا عبد العزيز، والتفت إلى أبيه: سنذهب الآن إلى قسم الشرطة يريدون منا بعض الإيضاحات والمعلومات والتي من شأنها أن تعينهم فيما يخص القضية!

التفت أبو مهند إلى عبد العزيز مستأذنًا وقال له: سأبحث لك بنفسي عن المعهد المناسب لتعلُّم الحاسب.. قاطعه عبد العزيز كاذبًا:

- أشكرك يا عم لقد وجدت الوظيفة المناسبة لي.

- أبو مهند يهز رأسه للأسفل.. كأنه يستوضح أكثر.

- عبد العزيز يتلعثم: وسأخبرك بإذن الله عن التفاصيل لاحقًا!

- وفقك الله..

* * *

- ١٨ -

قرر عبد العزيز قراره الغاشم وانتقل مع رفيقيه ماجد وناصر وسارت الأمور كما يريدها ماجد.

ناصر لم يكن راضيًا تمامًا بانضمام عبد العزيز معهما، لعلمه التام بأن ماجد سوف يستغل سذاجته أيما استغلال ويصل إلى بغيته بسهولة عن طريقه، كما هو الحال مع عدد كبير من المروجين الذين هم تحت إمرته.

على الرغم من أن ناصر نفسه يعمل مع ماجد في نفس المهنة إلا أن ناصر كان منتوجُه قليلًا جدًا ولا يمكن أن يروج إلا وفق تحرٍ شديد لمن يعرفهم فقط ممن سبق له التعامل معهم.

إضافة إلى ذلك فإن ناصر ينوي التخلص من هذه المهنة بأي طريقة، فقد أبعدته عن ربه، وبعثت فيه الوحشة، وجعلت منه شخصًا خائفًا في كثيرٍ من أحيانه، وأذهبت استقراره، وكان يشعر بأن حياته هامشية لا طعم لها، وفي نفس الوقت فهو يشعر بورطة كبيرة مع ماجد، ذلك أن ماجد كان يملك

شخصية قوية ولديه من الحِيل وطرق المكر الشيء الكثير والتي يستطيع من خلالها إدانة كل من يخالفه، ويستطيع بذلك توريطه...!!

كانت (العشرة آلاف) هي أُولى الأمور التي سأل عبد العزيز عنها ماجد.

ردّ عليه ماجد: هذه مجرد مساعدة لك حيث غلب على ظني أنك محتاج لما تُقوّم به نفسك فبعثت إليك بها محبةً وعربونًا للوفاء...

- عبد العزيز لم يطمئن لهذا الكلام ولم تقبله نفسه: أشكرك يا صديقي ولكن ما معنى أن تبعث إليّ شخصًا لا أعرفه.. لِمَ لم تأتني أنت؟؟!!

- ماجد يخلل أسنانه بظفره المتسخ ويدوّر نظره في السّقف ثم قال: الشاب الذي أتاك يُدعى رامي، هو من خيرة أصدقائي وسيكون عضدك في المشروع الذي ستقومان به!!

- مشروع! إن أكثر ما دعاني للمجيء إليكما والسكن معكما هو هذا المشروع التجاري الذي سبق أن أشرتَ إليه، حدّثني عنه! هيا.

- ماجد ساخرًا ينظر إلى ناصر ويكلّم عبد العزيز: إذن الدراهم هي التي أتت بك!!؟

- ناصر يتغير وجهه ويحدّ النظر في ماجد: الله وحده هو من يعلم النوايا.

ويلتفت ماجد غاضبًا حيال عبد العزيز: في القريب إن شاء الله يتضح لك المشروع... ثم انصرف!

استغرب عبد العزيز من مقولة ناصر لماجد والتي تشبه اللغز ولماذا أغضبته فخرج! كان بين الفينة والأخرى يتابع ماجد ويسأله عن المشروع ومتى هو؟ وما زال الأخير يماطله ويُمَنّيه في نفس الوقت.!

مضى شهران كاملان وعبد العزيز يعيش معهم لا يساهم بشيء حتى ولو بيسير المال، لأنه لم يكن يملك شيئًا، هكذا كانت حياته معهم يقبل بهذا الوضع أحيانًا ويلعنه أحيانًا.. وفي بعض المرات كان يأخذ ما يحتاجه من ناصر دون مبالاة لفرط العلاقة بينهما، ولأن ناصر قد أسرّ إليه مؤخرًا بأنه يملك محلًا للخضار يقتات منه على الرغم من قلة عائده لكنه يرفع به عن نفسه السُّلفة من الآخرين والحاجة إليهم.

في أكثر من مرة يَهُمُّ ناصر بإخطار عبد العزيز استباقًا لما ينتظره من المكر، لكنه يخشى أن يكتشف ذلك ماجد فيتعرض له بسوء.. وناصر لم يكن قد قويت نفسه في ترك ماجد وشيعته، مع ذلك فهو لم يكن يخاف من ماجد سوى ما يتعلق بهذه الآفة التي قد أحاطت به، ويستطيع ماجد أن يَفضحه ويُورّطه من خلالها!

تحدث ماجد مع عبد العزيز حول مشروعه الجديد.. وفي مجمله:

- أنا وكافة الأصدقاء مررنا بظروف صعبة، لكننا لم نستسلم وما زلنا نبحث عن بعض الأعمال الحرة التي تساعدنا في النهوض بأنفسنا، فأنا لديّ بعض الأعمال لولاها لمتّ من الفقر، أو لبقيت عالةً على الآخرين، وإني هنا سأعرض عليك المشروع الذي أخبرتك به في السابق لا يكلفك شيئًا! فقط عليك أن تنفذ ما نقوله لك، وأن تعتقد بوجود بعض المتاعب في بداية الأمر ولا أخفيك أنني أنا وناصر قد سبقناك فيه غير أن لكل واحد منا طريقته في ذلك..

- ما هو المشروع؟

- ماجد بهدوء شديد: التجارة في المخدرات.. ترويج.

- عبد العزيز تصطك أسنانه وتتسع عيناه: قلتَ مخدرات؟!!

- نعم سيكون هناك أشخاصٌ معينون تتعامل معهم بحيث يطلب منك الواحد منهم كمّية معينة من الكبتاجون، تقابله في أي مكان وتعطيه إياها ليعطيك المال مقابلها، وهذا النوع ليس يضر مثل الحشيش والخمر، وإنما يبعث للجسم شيئًا من النشاط ويُنبِّهُه فلا ينام لوقت معين، وأكثر من يشتريه هم طلاب الثانوية والجامعة وقد كان مسموحًا به في الصيدليات بشكل علني..

- كيف تريد مني أن أكون بائعًا للمخدرات؟

- ماجد يقترب منه ويضع عينيه في عينيه بازدراء: قلتُ لك بأن هذا النوع لا يعتبر ضارًا كغيره وليس له خطورة تذكر!

- لكنه قد يكون سببًا في إدمان شخص!!

- ينظر ماجد فيه بحدّة: هي ليست المرة الأولى بالنسبة للأشخاص الذين ستتعامل معهم!

- عبد العزيز كما لو كان مستاءً من أمر أفزعه، قال بشيء من الضعف: أعتذر لأن هذا الفعل حرام.. لا يجوز!

- ماجد يبتسم بتهكّم: لو كنتَ تريد النجاة لحافظتَ على الصلاة وقراءة القرآن (صدَقَ وهو كذوب) ثم استأنف: باب التوبة مفتوح إن أردت أن تتوب لاحقًا، وهذا العمل سيكون مؤقتًا حتى يتحسن حالك.. وعمومًا فأنا لا أجبرك على شيء.

عبد العزيز لا يدري ما يقول، وأخذ نفسًا عميقًا كادت أن تخرج روحه معه.

كان يظهر عليه التردد فهو لم يؤمن بهذه الفكرة إطلاقًا لكن نفسه تراوده على الموافقة لما في ذلك من الإغراءات المادية، وفي ذات الوقت فإنه متوجّس من الناحية الأمنية ويخاف مغبَّة السجن مرة أخرى...! قطع ماجد تفكيره وطفق يوسوس له ويمنّيه: اجعلها تجربة -مرّة أو مرتين- فإن طاوعتك نفسك وإلا فاتركها وابحث عن وظيفةٍ أخرى.

اقتنع عبد العزيز بنسبة كبيرة وقبل أن يتفرقا قال له ماجد:

لابد أن تستحدث جوالًا آخر في هذا المجال.

- حسنًا.

وعمد عبد العزيز يستشير ناصر.. قال له ناصر:

– أما من الناحية المادية فسوف تحصّل مبالغ لا تتوقعها فسعر الحبة الواحدة خمسةٌ وعشرون ريالًا، فلو كان لديك علي سبيل المثال مائتي حبة ما يعرف بـ (الشد) فستحصل على خمسة آلاف ريال، وهكذا...

– عبد العزيز يبدو متحمسًا، وكيف ترِدُني الكميات المراد بيعُها!!

– صاحبك ماجد له أعوان كثيرون وأتوقع رامي هو من سيمولك الكميات؟

– وكيف يحصل عليها رامي؟

– عمليات الترويج لا تتم غالبًا إلا عن طريق سلسلة من الأشخاص وأقدمُ الأشخاص في هذه السلسلة هو من يتصل بالمُهرب نفسه، والمُهرب هو بدوره يجلبها من خارج البلاد..!!

– كيف بدأتَ أنت في هذا الطريق؟؟

– تأثرتُ بماجد الحقير حيث مررت بظروف صعبة قُبَيْل دخولي السجن وبعد خروجي منه، وحين طرحتُ مشكلتي عليه أسرّ إليَّ بهذه الطريقة فاتبعتُه!!

- إذن ماجد قديمٌ في هذا الطريق؟

- نعم قبل أن أتعرَّف عليه، وأنا أعرفه منذ خمس أو ست سنوات.

تمم ناصر بقوله: بالنسبة لي فأنا أحاول الآن التخلص منها شيئًا فشيئًا ودائمًا ما أقوم بإغلاق الجوال، وآخر مرة كانت قبل شهر تقريبًا، لكن إذا ما تدنت حالتي المادية فإني أقوم بترويج ما يكفي، ولأجل ذلك فأنا فتحت محل الخضار الذي ذكرته لك آنفًا كخطوة أولى تساعدني في ترك الترويج إن شاء الله.

عبد العزيز يسأل ناصر ويبدو مقتنعًا تمامًا باختيار طريق الترويج: ما دام أن فيه هذه المكاسب المالية فلماذا تتركه إذًا؟!

لأنني أشعر بظلمي للآخرين وأساعد المتعاطي في تدمير حياته، وأحيانًا يأتيني ضيق شديد أشعر من خلاله بأن الكافر أقل ضنكًا مني!!

عبد العزيز ينسلخ من كل الاعتبارات ولم يعُد يفكر إلا في المال: سأبدأ في الترويج ولن أستمر فيه البتة، فقط حتى أجمع مبلغًا جيدًا من المال ثم أدخُل في مشروع مباح بإذن الله.

(ما بُنِي على باطل فهو باطل).. قاله ناصر ولم يكترث عبد العزيز.

وهكذا تم لماجد ما أراد وأدخل عبد العزيز معه في شراك الترويج من غير ما سبب واضح، تقابل عبد العزيز مع المروج رامي وكان رامي قد ظَهر في اللقاء الأول بصورة حسنة ورائحة زكية بخلاف هذه المرة فرائحته نتنة ووجهه عابس ويبدو جافًا في أسلوبه!

صَعَدَ إليه عبد العزيز في سيارته المبعثرة وابتدره رامي بقوله:

- وقتي ضيّق جدًا، والذي أرجوه منك أن تكون مطيعًا لي في مستقبل الأيام وفق ما أمليه عليك تمامًا لأن أي خطأ أو مخالفة قد نتحمّل بسببها ما لا نطيق.

- لا عليك، قل لي الطريقة بوضوح وسأطبقها بحذافيرها.

ذكر له المسميات التي يطلبها المتعاطون، وكانت رائحة فمه تملأ المكان، وعبد العزيز يبدو متضايقًا وكان حتمًا عليه أن يستوفي المعلومات حيال الطريقة التي سوف ينتهجها

في عملية الترويج... ما زال عبد العزيز يسأله عن أنواعها وتأثيرها، وهل من الممكن أن يطلب كميات كبيرة منها، وأكثر عليه الأسئلة.. وفجأة ضرب رامي بيده على مقود السيارة غاضبًا، وأخذ يتكلم على صديقه ماجد رغم أنه غائب بكلام غريب وبصوت مرتفع..!!

- تغير وجه عبد العزيز واشتد خوفه وشك أن الرجُل في حالة سكر.

- رامي يحدق في عبد العزيز ويسود المكان صمتٌ رهيب لعدة ثوان، ثم ينزل فجأة ويتحول ليفتح الباب الخلفي، كان عبد العزيز ينظر إليه ويهمّ بالهرب وتوقّعَ أنه يريد به شرًا لا جرم أنه كان غاضبًا، ويبدو في غير وعيه، انتشل أكياسًا صغيرة تحوي حبوبًا من الكابتاجون كانت موضوعة خلف المقعدة، رمى بها في حضن عبد العزيز الذي تسمّر مكانه، وقال له: اذهب إلى صاحبك (يقصد ماجد) وسَلْهُ عن كل ما تحتاج بهذا الخصوص، وذهب على أن يلتقيه مرة أخرى!

نزل عبد العزيز عند مدخل الشقة تمامًا والحبوب في يده ينظر إليها، وخلال ثوان وإذ برامي يعود للوراء بسيارته

ويسدل نافذة السيارة، ويصرخ مرتبكًا كالذي يوشك على البكاء ادخل يا غبي.. بسرعة.

اتصل رامي بماجد: يبدو أن هذا الأحمق لا يعلم شيئًا لماذا لم تخبره أنت بشيء؟ ويكرر السؤال ويطلق معه عبارات من الذم والتحقير.. واعتلَت أصواتهما في الهاتف!.

أقفل الجوال ماجد وقال في نفسه: أشك في كون ناصر لم يخبره بشيء ولكن يجب عليّ أن أراقبه جيدًا .

توجَّهَ عبد العزيز إلى ناصر مباشرة، وأراه الحبوب فأمره بإخفائها، ثم قصّ عليه عبد العزيز ما جرى وأخذ يستوضح منه عن أنواع المخدرات..

- قال له ناصر: هذا لا يعنيك، في البداية عليك أن تقوم بترويج ما يأتيك فقط أو بحسب ما يطلبه المتعاطي، هناك أنواع كثيرة ولا يوجد فروقات تُذكر بينها بقدر ما هو اختلاف وتعدد في المسميات، وفي الغالب أن من سيتعامل معك لن يحيد عن مسمّى واحد!

أردف ناصر بقوله: لابد أن تجلس معه أعني ماجد فقد يوضح لك الكثير من الأمور واحذر أن تخبره بشيء عن لقائنا هذا..!

وهمس له ناصر: ماجد ورامي كليهما لا يكتفيان بالترويج فهما يتعاطيان المخدرات من فترة ولربما وقعا في ما هو أعظم من الكابتاجون! ألا ترى أن ماجد يغيب عنّا أيامًا لا نَراه أبدًا؟!

- وهل كل المروجين يقعون في التعاطي؟!

- الغالبية يقعون، والذي أريده منك أن تأخذ حِذْرَك وألا تتهاون في ذلك إطلاقًا.

- يبتسم عبد العزيز ابتسامة الواثق: لا عليك!!

أخبره ماجد حين لقيه بأن قيمة الترويج في المرة الأولى ستكون له من غير مقابل بخلاف المرات التالية فإنه سيشتري الكمية من المموّل له: رامي، ثم يبيع بعد ذلك على المتعاطين بما يتواءم مع سعر السوق ويأخذ كل منهما (عبد العزيز ورامي) النسبة التي سيتفقان عليها، هكذا أفهمه ماجد!

امتزج في نفس عبد العزيز الشعور بالخوف والتوجس، وما زالت تخالجه نزغات الشيطان التي تدعوه للولوغ في تجربة الترويج ثم يتردد، بل لا يستوعب أحيانًا أنه سيبدأ في طريق ترويج المخدرات والتي كان يسمع بعظيم جرمها وهو صغير، لكنه كان أقرب إلى طاعة إبليس الذي صَدَّق عليه ظنّه ووهب له من الأماني والأحلام في معانقة المال ما جعلتهُ يُصعِد ولا يَلوي في سلوك هذا الطريق المُظلم..!

ليس لدي وظيفة.. ماتت أمّي.. طردني أبي.. تخرجتُ من السجن.. نبذني الأقربون لي.. انقطعت بي السبُل.. هكذا أملَى له عقلُه وأن لا بُدّ من أن يبدأ الترويج تحت وَهْم التجربة، حَلُم بالمال وتزَيَّن له الباطل!

طَفِقَ يؤدي عمله السيئ بحماسة وإتقان وما زال يتوسع في ذلك تباعًا للاتصالات التي تأتيه، وتطور الأمر إلى أن أصبح كغيره من المروجين يطلقون بعض المصطلحات المختَلفة على البضاعة بهدف التسويق وزيادة السعر.. فيلهث المتعاطون وراء هذه المسمّيات بشكل كبير جدًا.

أربعة أشهر من الترويج صنعت من عبد العزيز شخصًا كاذبًا ومُدلِّسًا سواءَ على المتعاطين أو المروجين فضلًا عن أصدقائه وأقاربه، ولقد اتصل به مهند مرارًا لا يرد في غالبيتها، اللهم في أحيان قليلة فيعتذر منه بانشغاله الدائم وأن لا مجال لمقابلته!

أثناء تلك الفترة اتصل والد عبد العزيز على أخيه أبي مهنّد ينشده ابنه الذي لم يره منذ خمس سنوات أو تزيد، ويتقصى حاله فرغم الجفوة التي كانت منه، إلا أن مشاعر الأبّوة قد جاشت في داخله، وأحسّ بمرارة الفراق.. غَشِيَته اللوعة إزاء طرده لفلذة كبده، ذلك أن التنكيل والقسوة والطرد لم تُفِدْ بشيءٍ ولم تُورِّث خيرًا..

هكذا تاقت نفس عامر لرؤية ابنه، وحصحصت الفطرة، وتجلى الغمام.. اتصل على أبي مهند:

- ما حال ابني؟!

- أبو مهند يشعر بالحرج تجاه أخيه الأكبر: أبى أن يسكن إلا مع أصدقائه، ولكنه في حالٍ طيبة ويقول بأنه وجد وظيفةً وإن شاء الله ليس هناك من بأس عليه..!

- هل يتصل بكم؟

- مهنّد هو من يكلّمه ويتواصل معه عن طريق الجّوال، والحقيقة أنه لم يأتِ إلينا من فترة طويلة!!

- هل لديك رقم جواله!!؟

- حسنًا سأرسله لك.

* * *

- ١٩ -

في ذلك الشعور الممزوج بالحب.. والشوق.. والندم.. يطلب عامر من زوجته كتابة الرقم بخط واضح في ورقة خارجية ثم إملاءه عليه، والغريب أنها قامت بمسحه من الجوال مباشرةً بعد أن أفرغته في الورقة.

أخذ النظارة ووضعها على أنفه ثم باعد الورقة عن وجهه قليلًا وبدأ يضغط الأزرار -ذات الصوت العالي- على مهَلٍ وبإحكام ليضمن صحة الرقم ونبضات قلبه تتزايد شوقًا لسماع صوت ابنه..

ألو.. نعم..

- أنا أبوك يا عبد العزيز..

- نعم؟!

- أنا أبوك كيف حالك؟!

- غلطان يا عم، ثم أقفل الخط....

نظر في الجوال وقام بإملاء الرقم الذي اتصل عليه، قام بإملائه على زوجته لتتم مطابقته بما في الورقة، وكانت

تُظهر تلهفّها لرؤية عبد العزيز وقالت: هو ذات الرقم.. حاوِل مرة أخرى.

وحاول أخرى فلم يتلق ردًا، اتصل بأخيه في وقتٍ آخر من نفس اليوم، وقال له: يبدو أن الرقم خطأ هلّا أرسلته مرةً ثانية!

تأكد أبو مهند من صحة الرقم وسأل مهندًا فوجده كما هو موجود عنده وأرسله لأخيه تأكيدًا..!

قال عامر لامرأته اتصلي أنت، ولما ناولته الجوال وجد نفس الشخص فالصوت قريب من صوت ابنه:

- هل أنت عبد العزيز؟

- أظنك اتصلت صباحًا؟؟!

- نعم.

- إذن أنت أبي؟! قالها ساخرًا!

- عامر ترتعش يده فرحًا: نعم.

- لا تتصل يا غالي مرةً أخرى.. لستَ أبًا لي.. أفهمت؟

وأقفل الخط...

غشيه الذهول وضاقت عليه الأرض بما رحُبَت، وألقى بغضبه على أبنائه الذين حوله، كان يحك رأسه الذي غالبه البياض، يكرّر السباب واللعن على عبد العزيز، امرأته بجانبه تحاول تهدئته!

وهكذا سخط عامر من جديد على ابنه بعد أن أوشك التراضي والوفاق بينهما!

تعرّض عبد العزيز لحادثة نهب من مجموعة متعاطين، فبينما كان على موعد مع أحدهم بعد أن اتفقا على السعر والكمية، أوقف سيارته في الشارع المُظلم الذي يلي إحدى المحطات الواقعة في أحد الأحياء القديمة وكان الوقت سَحَرًا، في غرار ذلك جاءه المتعاطي وكانت سيارته مظلّلة تمامًا ووقف معترضًا أمام سيارة عبد العزيز وفي ثوانٍ معدودة تأتي سيارة أخرى تقف خلف عبد العزيز مباشرة..!!

- ترجل المتعاطي لوحده واقترب من عبد العزيز وهو مطبق الشفتين، ثم قال: هات البضاعة بسرعة!

- عبد العزيز جامدٌ في مكانه لم يتحرك: ما بك؟!

- أدخل المتعاطي رأسه في السيارة، أقسم بالله أن إشارة واحدة كفيلة بإنهاء حياتك الآن، هات البضاعة.

- عبد العزيز طائعًا ذليلًا يدخل يده فوق مكابح السيارة ويعطيه الكمية كاملة، أخذها المتعاطي وهو يتلفت يمينًا وشمالًا حتى استتمت في يده، ثم همس لعبد العزيز، كن أكثر حذرًا في المرات القادمة، ثم تحركت السيارة الأولى وتبعتها الأخرى، ووقفت الأخيرة محاذية لسيارة عبد العزيز والغناء يصدح بصوت مرتفع، فُتحت النافذتين اللتَين تَليانِه وأُطفئَ المُسجّل!

قال أحدهم بلهجة جادة: أي خدمة!؟

عبد العزيز ترهقه القتَرَة والمهانة وهو في أشد حالات الخوف: (مشكور يا غالي)..

غادرت سيارتهم ببطء شديد، وارتفع صوت الغناء مرة أخرى، وأحس عبد العزيز وهو ينظر إليهم أن باطن الأرض خيرٌ له من ظاهرها، ولبث في مكانه قليلًا، ثم عاد أدراجه كئيبًا على فوات الصفقة وخسارته التي تُقدّر بالآلاف..!

لم تنتهِ على ذلك حيث نشبت مشكلة كبيرة بينه وبين رامي جرّاء ما حصل، فالأخير يطالبه بحظه من قيمة البضاعة، ووصل الحال إلى التهديد بالقتل في حال إذا لم يُعطه، بينما عبد العزيز كان يرفض رفضًا قاطعًا لأن ما حصل له كان

خارجًا عن إرادته، أدى ذلك إلى توقف عبد العزيز فترةً عن الترويج وهذا ما كان يكرهه.

استتصح ناصر وهو المبتلى الآخر بالترويج فأشار عليه بتركه وأن يعتبر هذه الهدنة هي بداية الترك إلا أن عبد العزيز كان مُصِرًّا على الاستمرار وقال بأنه في حال انقطع عنه رامي فسيلجأ لغيره.

جاءه رامي وماجد بعد يومين وأرادا -بحضرة ناصر- أن يصلا معه إلى نتيجة وبطريقة ودية.

ماجد يبدو قد نفَدَ صبره: لابد أن تعطيه المال قبل أن تتطور الأمور!!

عبد العزيز خلاف ما كان عليه من البساطة والمجاملة.. لن أعطيه ريالًا واحدًا.. ماذا عساكما أن تفعلا؟!

اشتد التلاسُن وقوي الخلاف، وكان عبد العزيز أثناءها يتذكر كلمات ناصر له بأن ماجد يملك طرائق عدّة في توريط الخصم، فأخذ يهذي ويهدد قائلًا: أستطيع توريطكما وإدانتكما بمجرد أن تحاولا الإساءة لي!!

بعد لحظات من الجدال أَدْخَلَ رامي يده في جيبه فوثب عليه ماجد والذي كان يراقبه بشدة، وأمسك يده، وأسنده على

الجدار الذي كان متكئًا عليه، استنفر ناصر وأمكن منه، ثم أخرجا المسدس من جيبه، عبد العزيز كأنما شُلَّ عن الحركة وهو يرى المشهد، إذ لم يكن يتوقع أن رامي يريد قتله.

تفرقوا بعد أن أخذ ماجد المسدس والكل منهم يروم خبثًا...

بعدها بأيام تَرِدُ اتصالات متكررة من قِبَلِ مهند فيرفض عبد العزيز الرد، أرسل له رسالة تفيد بضرورة الرد، فاتصل به مباشرة بعد أن قرأ الرسالة وكان في حالة مزاجية سيئة، قال له مهند: اتصلت بك فلم تجب واتَّصَل أبوك فلم تجب، وأخوك سعد دائمًا ما يسألني عنك فلم أفِدْهُ بشيء فانقطع عن السؤال وقد غبت عنّا عدة أشهر.. لا بد أن ألتقي بك الليلة أريدك في موضوع هام وسري..!

– سكت عبد العزيز طويلًا حتى شك مهند أنه لا يسمعه.. ألو ألو..

– تكلم عبد العزيز وكان صوته يشبه صوت المدخن الذي استيقظ للتو: ماذا قلت؟.. أبي اتصل بي؟

– نعم اتصَل بك وأقفلتَ الهاتف، هو من أخبر والدي بذلك!!

- إما أن تكون كاذبًا وإما أن يكون أبوك كاذبًا وإما أن يكون هو كاذبًا.

- هذا الأسلوب يجب أن تُغيّره معي!

- عبد العزيز يضحك بإفراط... ثم أقفل الخط..

كرّر مهند الاتصال فلم يرُد، بدأ يشك أن عبد العزيز في وضع غير طبيعي تمامًا، وأخذَ يُفكِّر بجديَّة كيف السبيلُ إليه!!؟

في غرار ذلك فقد رأى ناصرٌ رامي وهو يمر عبد العزيز ويخرجا سويًا أكثر من مرة، واستغرب عودة العلاقة بينهما بشكل سريع وغامض، بعدها بأسبوع لاحظ ناصر على عبد العزيز ما يوحي بتعاطيه..! نوم متواصل أكثر من يومين، وضحك مفرط على أتفه الأسباب، وأصبح لديه تعتعة واضحة في الكلام، وتَأسُّنٌ واضح في حالته النفسية.

آثر ناصر السكوت ومضت الليالي والأيّام لكنه لم يهنأ بحال، فمع تقدم الزمن تزداد حالة عبد العزيز سوءًا وتتردى طباعه أكثر.

لثلاثة أيام متتالية كان هناك رقم غريب يتردد على جوال ناصر فلا يَرُد، وهذا مبدؤه أنه لا يجيب على الأرقام الغريبة، لكنه في أحد الأيام اتصل عليه شقيقه الأكبر قائلًا له: لقد

اتصل بي (الضابط مهند) ابن العميد .. -علمًا أني لا أعرفه- يريد رقمك بخصوص ابن عمّه الذي يسكن معك وذكر لي قبل قليل أنك لا تردّ عليه..!!

حسنًا سأتصل به الليلة إن شاء الله.

التقيا ودار بينهما ما دار، وبعد أيام قليلة استطاع ناصر أن يُقنع عبد العزيز ليلتقي بابن عمِّه.

كان عبد العزيز في قمة الفرح وقت رؤيته لابن عمّه ويبدو منتشيًا تفوح منه رائحة الأخلاق الزاكية وتنبعث منه أحسن الكلمات وأروع الأساليب.. بل وما زال يعتذر بين الفينة والفينة إزاء ما بَدَر منه!

ناقشه مهند في كونه لم يُكلّم أباه عندما اتصل به فأقسم له بالله أن هذا الأمر لم يحصل، استغرب مهنّد ولم يجد تفسيرًا لأن الأب لم يقل ذلك مازحًا أو متوهمًا!

مهنّد يلح على عبد العزيز: اتصل بأبيك فهو متلهّفٌ لسماع صوتك.

عبد العزيز والغصة في نحره: هذا ما أتمناه منذ سنين..!!
سأتصل به غدًا إن شاء الله.

وهكذا ودَّعه مهند بعد أن اطمأنَّ عليه وتيقن بقرب الفجر وتبدّد الظلمة.

عبد العزيز بعد أن عانى ألوانًا من الغصص والآلام في حياته، ها هو بمجرد سماعه برضى والده عنه أصبح يشعر بنشوة الراحة تتغلغل إلى أعماقه، ودفء الاستقرار يلامس ضميره، فكّر في الذهاب إلى والده مباشرةً غير أن تعاطيه للمخدرات كان بمثابة السبب الخفي الذي يمنعه من ذلك..!!

قرر أن يتصل بوالده أولًا ومن ثَمّ يَعِدُه بالذهاب إليه في أقرب وقت، أخذ يقلب الجوال في يده ويفكر.. كيف لو دعاني إليه الآن فماذا عساني أن أفعل وقد أصبحتُ...

وضع أُصبَعَه على لوحة المفاتيح وبدأ يضرب الرقم ببطء شديد ويتصور ردّة فعل والده كيف ستكون..!؟ قاطعه رامي باتصاله وخرج معه ولم يتم الاتصال بأبيه في تلك الليلة!

وفي إحدى الليالي بينما عبد العزيز يصارع السهر جاء إليه ناصر - بلباس المُشفق- وأخبره بأنه قد ترك الترويج بلا رجعة، وبدأ يتحدث معه حول المخدرات ويبين له ضررها، وأن بإمكانه تركها ما دام أنه لا يزال نسبيًا في بداية الأمر، سأله ناصر:

- ألا ترى أن ماجد يغيب عنّا أيامًا لا نعلم عنه؟

- نعم، فلديه أصدقاءٌ كُثر يَفِدُ إليهم..

- أرأيت ماجد ورامي..؟ لقد أضحوا رهائن في شباك التعاطي لا يستطيعون ترك ذلك.. كانوا في بداية الأمر كما هو حالك الآن وأودى بهم ذلك مع مرور الزمن إلى أن وقعوا في المسكرات، اترك ما أنت عليه، إني لك لمن الناصحين!!

- عبد العزيز مستهينًا بما قاله ناصر، أخذ يتبسم رغم الإرهاق الذي هو فيه ثم التقم حبّة من الكابتاجون على مرأى من ناصر مؤكِّدًا أنها غير مضرة..! بينما ناصر كان يتمعَّر وجهه تدريجيًا وتظهر عليه خيبة الأمل إذ لم يكن يتوقع هذا الاستهتار والتغير الجريء من عبد العزيز..!

- قال له ناصر: الحمد لله أما أنا فلقد عزمت التغيير والاستقامة على طاعة الله، وسأنتقل إلى بيئة أفضل أو أعود إلى القرية التي ترعرعت فيها فوالله ما رأينا هنا إلا الضياع والغفلة، وإني لا زلت أؤمَل فيك الخير حتى هذه اللحظة.

قالها وبقي يناظره كالذي يرجو منه وعدًا حسنًا! وأردف:

أما تعلم أنك ستصبح في جملة المدمنين غدًا إذا أنت دأبت عليها اليوم.. وستصبح كَلًّا على الناس لا تعي ما تفعل، وتصبح

من الذين لا يكادون يُبِينون في الكلام ولن تقوى على مجابهة الرجال في المجامع.. وإن تبوأت مكانًا في المجالس فمع الصغار!!

- عبد العزيز كان يفترّ باسمًا.. وما إن رأى علامات الغضب تبدو على محيا ناصر حتى قال له: والله لا أدري كيف أصبحتُ مولعًا بها لكني سأحاول تركها، البدايات كانت بسبب ماجد لكنه أقسم لي أنها لا تسبب الإدمان وأن النوع الذي أتعاطاه يختلف عن باقي المخدرات، وأنها تريّح الأعصاب فقط وتُعدّل المزاج.. وبالفعل أراها كذلك فأنا كلما شعرت بضيق أو همّ آخذها فأنتشي ثم أطرَب وأنشَط، وأستطيع أن أتركها أيامًا وربما أستطيع الإقلاع عنها!!

- ناصر ظل صامتًا ثم نظر في عبد العزيز كأنه يتسوله: عبد العزيز ألا تُفكر في العواقب؟! أما علمت أن أبعد الناس عن الخالق -جل وعلا- هم أصحاب المخدرات، وأنهم يعيشون حياةً أخرى تمامًا، لا يجدون ما يجده الأسوياء من العيش الكريم والاستقرار النفسي والعاطفي؟!! ذلك أنهم قد سدوا عن أنفسهم بواعث الإيمان، ومناهل الوحي، وأصبحوا أسارى لأهوائهم فلم يزدادوا إلا وهَنًا ووبالًا..

- عبد العزيز يعبث بشعر رأسه وينظر للأسفل ويبدو قد وقع الكلام في قلبه.. ما الذي غيرك أنت وأتاح لك المضيّ في طريق الاستقامة؟

- الاستقامة كانت تشغل تفكيري من قبل، ولقد هيأ الله لي أحد الأخيار قبل أيام قلائل فعزّز لي ما كنت أطمح وأفكّر فيه، جزاه الله عني خيرًا، وأخبرني أن الحياة مع هؤلاء الأوغاد ما هي إلا حياة شؤم ونكد وذل!!

- وفقك الله وأعانك..

- كلمة أخيرة أود أن أقولها لك: كلما تقدمتَ في هذا الطريق الذي أنت فيه الآن ازدادت مواجعك واستعصت نفسك عن الرجوع، فهّلا غادرت معي إلى مكان آخر كي نستطيع الهجرة الحقيقية إلى الله بصدق، ونبحث عن صحبة خير تدلنا وترشدنا إلى ما فيه الفلاح في الدارين..!!

- أعطني مهلة وسأفكّر بجِدّ إن شاء الله..

- حسنًا.

* * *

- ٢٠ -

استيقظ عبد العزيز يُفكّر في كلام ناصر، وقال في نفسه: لا شيء يعيقني عن التجرد لحياة أفضل سوى المخدرات، فعلى الرغم من أن الترويج يدرّ أموالًا كثيرة إلا أنها عديمة البركة، ولم تكن لتسعدني في يوم من الأيام، ثم إن هذه المهنة محفوفةٌ بالمخاطر والكدر.. وعلى كلٍّ حال فالترويج لن أعاني في تركه.. المشكلة إنما هي في التعاطي..!

فكّر وقدّر: لو تركتُ الترويج فكيف أحصّل الأموال؟!

لابد أن أكون صريحًا أكثر مع ناصر فقد أجد عنده الحل أو في أقل الأحوال قد يفتح لي أفقًا جديدًا أتوسل به إلى الخروج من هذا الحال..

قاده التفكير إلى الاتصال بأبيه ليرى حقيقة ما إذا كان قد رضي عنه بالفعل أو لا!

قال في نفسه: لعل اتصالي بأبي يكون سببًا في توفيق الله لي وتفريج ما لديّ من الهموم لاسيما أنه سيدعو لي ويسعَد فأتشجع أنا.. ثم نَظَرَ إلى ساعته فكان الوقت متأخرًا وعليه قرر تأجيل الاتصال!

غاب ناصر طيلة اليوم إلى حيث لا يُدرى عنه وجاء ماجد متأخرًا كعادته وفي يده ورق البلوت، سأل عبد العزيز: ألا يوجد أحدٌ غيرك هنا؟!

- كما ترى..!

- أين ذهبوا؟!

- عبد العزيز يعلو صوته: لا أدري!!

- أطال ماجد نظره: أراك منتفخًا!

- عبد العزيز وقد ضاقت عيناه كالذي يتفحص الشيء لضعف بصره، وكان متكئًا، قال: لم تعُد نفسي تقبلك، أصبحت أكرهك!

- يبدو أنك تطمع في كوبٍ آخر.

- لكنني لن أبلُغ درجتك فأكون مدمنًا للحشيش!!

- ماجد تتسع عيناه ساخطًا يكاد يبطش به، قال بأسلوبٍ هادئ: ماذا تقول أيها الوقح..!!؟

- ثم رمى بالورق في وجهه، ولم يحرّك عبد العزيز ساكنًا، خرج ماجد وهو يزبد ويرعد مهدّدًا ومندّدًا!

- خرج وعاد على الفور مرةً أخرى ليدفع الباب بقوة، قال بنبرة الانتقام: أعرف تمامًا بأن ناصر الساقط هو من أوحى لك بذلك لكنه لن يفلت ولن تفلت أيضًا أنت، ولو كنتُ أعلم ما نفعتكما بشيء فأنتما لا تستحقان سوى النبذ والتسفيه..

- عبد العزيز: أشكرك فأنت دائمًا تحب لنا الخير!

قطع ذلك صوت اتصال ورَد إلى ماجد أخرجه من المكان..

عبد العزيز يتصل بناصر عصر اليوم التالي وأبلغه بضرورة مجيئه حالًا، وأحس ناصر بوجود خطرٍ ما، أمَرَ مهنّدًا الذي كان يقود السيارة بالتوجه إلى الشقة ولم يخبره بصاحب الاتصال!

غادر مهنّد ودخل ناصر ليقص عليه عبد العزيز ما جرى، عندها قرر ناصر وعبد العزيز أن يخرجا من الشقة في اليوم التالي، وأن لا مجال للبقاء فهو يعلم شدة دهاء ومكر ماجد، وذكر له أن الأخير استطاع أن يُوقع ببعض أصدقائه القدامى حين اختلفوا معه، وأنه كان يستعين ببعض أصدقائه في بعض الدوائر الأمنية فيقبضون على أعدائه، ثم يُغيَّبُون بعدها في

السجون دون أن يُمسّ هو بسوء، وأن بعض العساكر للأسف كانوا يتعاملون معه في ترويج المخدرات!

قاطعه عبد العزيز وكان يتكلم بصوت خافت: إذن لديه حصانة قوية؟!

نعم.. وأذكر في إحدى المرات نشبت بينه وبين أحدهم خصومةً وكنتُ في صفّه حينها، واستطاع أن يستدرجه إلى الشقة التي كنا فيها قبل أن تأتينا أنت، استدرجه على أمل التصالح معه، ثم جاء بشيءٍ من الأفيون المخدر على علم من بعض الموجودين، ووضعها بكل وقاحة في إبريق الشاي على غفلة من صاحبه الذي غلبت عليه الطيبة الزائدة ولقد أصبح ذلك الشاب بعدها يهيم في الطرقات بلا وعي بعد أن أفسد خلايا المخ لديه.. أكمل ناصر حديثه: كنت أعرف مجموعة كبيرةٌ من الشباب المروجين دون أن نبلغك بشيء حيث لم تكن تأتينا أيام دراستك إلا في نهاية الأسبوع!

وعمومًا فمن الخطأ أن نستدعي الماضي السيء، يجب علينا الآن أن نفكر بجدّية كيف نهرب، حتى وإن استدعى ذلك أن نبقى هنا يومين أو ثلاثة، المهم ألا يشعر بما نخطط له

فلربما أحاط بنا هو وأصدقاؤه، ولا بد أن نعامله الآن بشكلٍ سلمي، ويُستحسن أن تُظهِر له شيئًا من الاعتذار..

عبد العزيز تقوى إرادته أكثر في ترك رفاقه السيئين: لكني بالإضافة إلى وقوعي رهينة للإدمان فقد حصل لي موقف صعب جدًا وقصةٌ تكاد هي الأخطر في حياتي وما زلت أدَّكِرها بين الحين والآخر لا تكاد تنفك عن ذهني.. هي في الحقيقة بمثابة الجرح الذي لا يندمل وقد تكون عائقًا لي عن التغيّر!

(بالعزيمة والابتعاد عن البيئة السيئة والاستعانة بالله -عز وجل- تستطيع أن تتغير وتخلُص إلى حياة النور مهما وقعت فيه من الحبائل غير الجيدة) قاله ناصر.

- كلامك مريح جدًا ويبعث على الأمل.. لكن ما رأيك أن نمتطي السيارة فنتمشى قليلًا وأذكر لك الموقف الذي حصل لي وما زال عالقًا بذهني؟

في سيارة ناصر وبينما هم في الطريق الدائري يمشيان ببطء، بادر ناصر بقوله: قبل حكاية الموقف الذي حصل لك، لدي سؤال وسأزف معه بشرى تعنيك كثيرًا.. أما السؤال:

- هل اتصلت بوالدك الذي يطلب سماع صوتك منذ ما يقارب الشهر؟!

- عبد العزيز يأخذ نفسًا طويلًا: كلما أردت الاتصال به يأتيني ما يشغلني..

قاطعه ناصر: فلتتصل به الآن.

- عبد العزيز مترددًا: غدًا.. ما رأيك؟

- (بل الآن).. وسلك به أقرب المخارج، ثم توقف -من باب الأدب- وأمره بالترجّل أدعى في أن يتحدث مع والده بشفافية تامة.

- حسنًا.

في القرية البعيدة كان جوال الأب يرن في الصالة حيث الأطفال ينظرون إلى التلفاز هناك، في حين أن الأب كان يتوضأ وضوءه المعتاد الذي يسبق النوم، أخذ أحد الأطفال الجوال ببراءة وأجاب على المكالمة، الأم في المطبخ كانت ترمقه، وسمعَته يقول: (مين) ثم تلا يردد عزيز عزيز، سارعت إليه الأم، والأب لم يزل في وضوئه، انتشلت الجوال من يد ابنها الصغير وتهادت إلى حيث لا يسمعها أحد...

وبنبرة مختلفة حادّة تبدو: نعم.

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته »، قالها عبد العزيز بصوتٍ متهدّج مرتبك.

من أنت؟

أنا عبد العزيز ياعمّة، هل عرفتيني؟

نعم عرفتك، رحّبَت به وسألَته عن حاله في عجالة شديدة.. وأجابها، ثم قال لها منتشيًا متلعثمًا: أين أبي؟ أريدُ أن أتحدث إليه.

- حسنًا، دقيقة واحدة أناوله الجوال، أنزلت الجوال على الأرض لثوان معدودة وكانت لوحدها مترددة، ثم أرجعت الجوال على مسمعها قالت له: إن أباك قد رفض التحدث معك،.. قاطعها:

- لماذا؟

- لا أدري.. يبدو أنه ما زال يجد في نفسه عليك.. سكت عبد العزيز ثم استأنفت: سأحاول إقناعه إن شاء الله!

- عبد العزيز كالمضروب على وجهه: أبلغيه سلامي وكافة إخوتي.. إلى اللقاء.

أحسّت بعدها بعظيم الذنب وتأنيب الضمير لكونها أمَرَّت الوضع كما هو!

وهكذا انكسر قلب عبد العزيز وعاد إلى السيارة ممتقع اللون كأنما يحمل هموم الدنيا.

ما الأمر؟ (قاله ناصر).

ويتأخر عبد العزيز في الرد، نظر إليه ناصر فإذا عيناه تذرفان، وعلى الفور تشاغل ناصر عانيًا بالاتصال على أحد أصدقائه، فكان يتحدث مع صاحبه تارةً ويختلس النظر إلى عبد العزيز تارةً حتى اطمأن إلى توقفه عن البكاء..

قال له عبد العزيز: لقد رفض أبي أن يتحدث معي!!

والله لا عليك سيتغير الحال بإذن الله وتعود المياه إلى مجاريها، لقد بقيتُ فترة طويلة لا أتحدث مع أهلي ولا يتحدثون إليّ منذ أن حصل ذلك الموقف بيني وبين أبي الذي لم أكن أقصد أن أسيء إليه فيه، وها أنا قد تحدثت معهم قبل ثلاثة أيام، واسترضيتهم جميعًا، وزففت إليهم البشرى بتوجهي إلى الله تعالى ولزومي الطريق المستقيم بإذن الله، وسأذهب إليهم في القريب بإذن الله، وسيفتح الله لي باب الرزق الحلال بحوله وقوته..

سأله عبد العزيز: وما هي البشرى التي ستزفها إليّ حسبما وعدتني به قبل قليل؟!

البشرى هي انتقال الأخ الفاضل (مهند) من مدينة الخرج إلى مدينة الرياض قبل حوالي خمسة أشهر.

وما أدراك به؟! هل تمتَّنَت العلاقة بينكما؟!!

– نعم، لقد كان هو سنَدي بعد الله في لزوم هذا الطريق.. طريق الهدى.. وإني لألتقيه– رغم انشغاله– كل يومين أو ثلاثة دون أن تعلم، وسيساعدنا في أمور شتى بإذن الواحد الأحد..!!

كلما حلَّتْ بي ضائقة وجدت متنفسًا في مكان آخر، وما إن أسكن قليلًا حتى تعصف بي مدلهمَّةٌ على لونٍ مختلف، ولكنها الحياة هكذا.. والله أعلم بالمآل!! هكذا قال عبد العزيز، ثم أردف: لكن مهند يتودد إليك مجاملة، وإنه ليكذب في بعض الأحيان!

– لا ترم بظنونك الجزاف فهو من خيرة من عرفت، والتشبث بأمثاله مطلب لاسيما في هذا الزمن.

- آخر ما قال بأن ابي قد رضي عني ويريدني أن أفيء إليه، فلما اتصلتُ به وجدت الأمر خلاف ما ذكر لي تمامًا.

- أحسن الظن فلربما كان والدك في وقتٍ لا يسمح معه الرد عليك، وإن لدي من الثقة الشيء الكبير بأنه سيعاود الاتصال بك في وقت قريب..!

- دعني إذن أبوح لك بالموقف الذي بتُّ أشعر بعده بالهوان والضّعَة، ودائمًا ما أصبَح يبعث في نفسي الانكسار كلما أردت أن أنسى الهموم والأحزان..

- نعم، بعد أن نتوقف في هذا المقهى (كوفيشوب).

كانا متقابلين في المقهى وبدأ عبد العزيز يتحدث: لم يكن همي من الترويج إلا الحصول على المادة فقط، ولقد تيسرت لي طرقٌ من الشر من حيث لا أحتسب، وحصّلت مبالغ كبيرة من المال خلال السنة ونصف الماضية، واقتصرت على بيع الحبوب فقط، وكنت أجد من المكاسب في فترات الاختبارات أضعاف ما أجده في الأيام الأخرى.. وكان هناك شابٌ يتصل بي بين الفترة والأخرى وأعطيه ما يطلب، واشتدت العلاقة فيما بيننا مع الأيام.

وفي ذلك الحين فقد تطور بي الحال في فترة آفلة، وقمت بترويج الهيروين لعدد من الأيام رأيت فيها ما أكره من ذل الآخرين أمامي، والغريب أن أكثرهم كان يفوقني بعشرات السنين في العُمُر، وفي ليلةٍ من الليالي اتصل بي ذلك الشاب قائلًا: هذا جارنا يريد أن يتحدث إليك، وتحدث معي جاره وكان حديثه ونبراته توحيان بأنه قد استمرأ المسغبة والذل وعانى أقسى ألوان النكد والتعب في هذه الحياة، سألني هل تبيع الهيروين قلت نعم (بكل شفافية) إذ لم يكن لديّ أدنى شك في حاجة الرجل فعلًا، اتفقتُ معه على الكمّية والسعر، وتقابلت معه في وقتٍ متأخرٍ من الليل في شارع مظلم لا تأتي إليه السيارات في ذلك الوقت، جاء وأوقف سيارته ثم أطفأها بشكل غريبٍ وسط الشارع كالذي لا يعقل، كنت أرى هيام فتاة في المرتبة الخلفية، ولم أكن متأكدًا فليس ثمة نورٍ سوى أنوار سيارتي، خفته لما اقترب مني فعظام وجهه تبدو بارزة وله شارب كثّ يخالطه قليلٌ من الشيب وتبدو بعض الشعرات في وجنتيه، تظاهر بالابتسامة فانكشف عوَرُ أسنانه واصفرارها، أخذ بيدي إلى خلف السيارة ثم جثا على ركبتيه وأخذ يقبّل رجلي وأنا أتمنع تارة وأتركه تارة مستغربًا هذا الصنيع، ما زلت

أتراجع عنه وأتقيه بيديّ حتى هَمَمْتُ بالانصراف ثم أمسك بيدي وقال: أنا لا أملك ريالًا واحدًا ولكني أتيت بابنتي فخذها معك..!!

ذُهلت فلم أتكلم واختلطت الأمور في داخلي وقام يجرني باتجاه سيارته وأنا أقول له من غير وعي اتق الله هذه ابنتك وكررتُ ذلك، وما زال بي وفتح الباب فصرخَت الفتاة حيث لم تكن تعلم بأن أباها ينوي بيع عرضها، وأنه سيجعلها في هذا الموقف الضنك بعد أن خدعها واستدرجها إلى هذا المكان..!!

اقتربتُ منها حيث بدأ الشيطان يؤزني نحو الرذيلة، رأتني الفتاة وقالت حرام حرام وهي تتوسل إليَّ في موقف رهيب، جاء أبوها اللعين من الناحية الأخرى فضربها على وجهها فسقط الغطاء فكان وجهها مثل فلقة القمر، تحسَّسَتْ غطاءها لتلبسه وهي تنحب وتنشج بالبكاء الذي كان يقطّع القلب.

حينها غابت معاني الرجولة عندي وتلاشى الإيمان ومات الضمير، أمرها أبوها بالنزول كي تركب معي.. قاطعه

ناصر: كم عمر الفتاة تقريبًا؟ أجاب عبد العزيز: حوالي اثنتين وعشرين أو ثلاثة وعشرين...

تمم عبد العزيز بقوله: قمت بتهدئة الفتاة وقلتُ اركبي معي وسوف تكونين في أمان وأنا في الحقيقة أنوي السوء وأُضمِر الشرّ، نظرَتْ في أبيها الديوث تسترحمه ثم صرخ في وجهها، فالتفَتَتْ إليّ تستغيث بعينيها فحلفتُ لها ألا أمسّها، ثم تهادت إلى سيارتي ووقفَتْ عند الباب وهي تبكي، فحلفتُ لها أخرى فركِبَت وأبوها قائم عندي لا يكاد يحفظ اتزانه: هيّا أعطني بسرعة وأعطيته الهيروين الموجود ثم قال لي ليكن بيننا اتصال في الغد.. ثم مضى، ووالله لكأنني في حلم مما يجري ولقد عُرِضت لي الكثير من الأمور في ذاكرتي حينها بشكل سريع جدًا، تذكرتُ أختي الكبرى، وتذكرت أمي في قبرها، وتذكرت أبي، وتذكرت المروءة والفطرة وبدأتُ اشعر بشعور غريب.

ناصر يأخذ نفسًا عميقًا وتبدو عليه الكآبة والحزن.

أكمَلَ عبد العزيز: ذهب اللعين وركبتُ أنا، الفتاة لم تنقطع عن البكاء والتنهد، وضعتُ يدي على كتفها فأزاحتها بكل قوتها

وازداد صراخها وهمَّت بفتح الباب، فتقدمت بالسيارة كي تهاب النزول وما زالت تجأر في وجهي، وتستغيث بكلمات وعبارات لو وُجهّت إلى جمادٍ لبعثت فيه مكامن الرجولة والغيرة.

في تلك الأثناء شعرتُ بالخطر ونظرتُ في مرآة السيارة وإذ بي أرى أنوار دورية الأمن تزدهي وتُبرِق في ذلك الظلام وفي نفس الشارع الذي نحن فيه، ومن شدة ما أجده من الخوف توقفتُ ففتحَت الفتاة الباب فتلَّيتُها بقوة وسقطت، فكانت رجلاها في وسط السيارة بين العجلتين الأمامية والخلفية ولم يكن لي بدٌّ من دعسها وسمعتُ صراخها والسيارة تحطم رجليها، هربتُ ورميتُ بالجوال الذي كان معي مباشرة.

تعرضتُ لمواقف كثيرة لكن يبقى هذا هو الموقف الأخطر، أحاول أن أنساه فلا أستطيع.. أتذكر توسلات الفتاة وبكاءها فيغشاني الهمّ والحزن، وأشد من ذلك صراخها وهي ملقاةٌ على الأرض.

* * *

- ٢١ -

- ناصر وعيناه محمّرتان وقد خَبَتْ حماسته تمامًا: أتظن أنها ماتت؟!

- لا، لأن السيارة لم تصب سوى أسفل رجليها.. متأكدٌ أنا من ذلك، ورأيت الدورية من مسافة بعيدة قد توقفت عندها وحتمًا سيقومون بإيصالها على الأقل إلى المستشفى.

- مع هذا كله فنقول الحمد لله لعله صرف عنك ما هو أكبر من ذلك.

سكت ناصر قليلًا ثم أرخى رأسه على الطاولة التي تفصل بينهما لبضع ثوانٍ، ثم رفعه مرةً أخرى وعيناه قد امتلأت بالدموع، كان يحاول أن يبتسم ليخفي مرارة الحزن لكنه لم يستطع، قال:

- ألسنا قد كنّا في غنىً عن هذا كلّه قبل أن نصحب هؤلاء المجرمين؟

- بلى والله..

- أما تعلم أن أهل القرية قد نما إلى علمهم وقوعي أنا وأنت في براثن الترويج..!!

- عبد العزيز يغمض عينيه عابسًا: من أخبرهم؟؟

- لا أدري فالأخبار السيئة تنتشر بسرعة وتتسرب بطرق غريبة، كان ابن خالتي يسألني في ذلك فأكفُر بما يقول وأجحد صحة ذلك.

- هذه مصيبة جديدة والله.

- إذا كانت مصيبة فالأعظم منها أننا ابتعدنا عن الخالق -جل وعلا-، وأغضبنا والدينا وأهلينا وجعلناهم يعيشون الكدر ويعانون الهموم.. من أجل أن نستمتع نحن باتباع الملذات والأهواء، وننغمس في صحبة الفُسّاق!

- إنك حين تتحدث عن موقفك هذا فإني أتذكر مواقف عدة حصلت لي وإن كانت أدنى من موقفك لكن مرارتها لا زالت، وغصصها تتجدد ولا أخفيك أنك قد قلَّبْتَ المواجع ونكأت الجراح...

ناصر يسأل عبد العزيز: هذا الموقف وغيره أما تسببَت في دفعك للتفكير نحو حياةٍ أفضل وأن تترك الأسباب التي من شأنها أن تجلب لك الحسرة والندامة؟!

– فكرتُ كثيرًا لكني والله لستُ أجد الأسباب التي تعينني على ذلك، فمهند ينشغل عني، وعمي لا يريدني أن أذهب إلى منزله، وقد أرسل رسالةً قبل أن اخرج من السجن كما أخبرتك أنت وماجد تفيد بعدم رغبته في أن أصحب مهند فضلًا عن أن أسكن معهم رغم الإصرار الذي أبداه إليّ مهند.

– ناصر يصمت قليلًا بشيءٍ من الخجل: الآن حصحص الحق.. إنَّ تلك الرسالة كانت من تدبير ماجد وكنت أنا المنفّذ لها. كتبتها، وأعطيتها (ليلًا) لعامل النظافة الذي يعمل في السجن، وذيّلتُ اسم عمّك في آخرها على اعتبار أنه هو من كتبها وأرسلها، ذلك أننا كنا بحاجة لأشخاص عدة يشاركوننا عمليات الترويج ونجمع أكبر قدر من المال فنعطيه للمهربّ كما زعَم ماجد، ويبدو أنه خدعني قبل أن يخدعك فهذا الرجلُ لديه من الأصدقاء الكبار والصغار ما يفوق التوقع وكلهم عصابة واحدة.. وكنت أنا وأنت ضمن ضحاياه، والدليل على صحة ما أقول أنه لم يكن يأتينا في الأسبوع إلا مرةً أو مرتين يصطحب معه من شاء من أصدقائه يريد إسكاتنا وإيهامنا بأنه يسكن معنا..!

- إذن هو المتسبب في كل هذه المصائب «حسبي الله ونعم الوكيل».

- نعم، بل أشكّ بأنه هو من أحرق سيارة مهند، وقد تحدثت مع مهند قبل يومين عن ذلك، فحينما قَدِمتُ أنا وماجد إلى شقتك التي كنت تسكن فيها كان مهنّد موجودًا عندك فرجع ماجد وتظاهر بأنه مشغول، وفي اليوم التالي كانت حادثة حرق السيارةّ بما يفيد بأنه قد تابع مهند وعرف سيارته ومنزله..

- عبد العزيز يبدو غير مقتنع: قد يكون ذلك، لكن.. وأخذ يقلّب يده!

- ناصر يؤكد: أتيتُ أنا وهو بنية الجلوس معك وإقناعك أن تسكن معنا، فلماذا حين عَلِم بمهند رجع عن إتمام ما قصدناه، خاصةً أنه لا يهاب أحدًا فما المانع لو تعرّف على مهند في تلك الليلة وبقي معنا إلى أن ينصرف مهنّد؟!

- عبد العزيز مشدوهًا مما يسمع شاخصًا ببصره: قد يكون هو بالفعل من أحرق السيارة ما دام أنه وراء كل هذه المشكلات ولكنه كان موجودًا معك وقت حادثة الحريق؟!

- الحقيقة لا أتذكر وقتها..

- عبد العزيز أخذ ينظر في الطاولة التي تفصل بينهما ثم قال: اِتصَل عليّ في عصر اليوم التالي عن لقائي بكم، وكان يسألني ما إذا كنتُ موجودًا في الخرج مع ابن عمي أم لا، وأخبرته بتأخر مهند، فاقترح عليّ أن أتحقق.. وبالفعل ذهبت وشهدتُ الحادثة ثم اتجهت إليكما.

- إذن فهذا الاتصال حجّة عليه وإدانةٌ له أكثر فما الداعي لأن يتصل بك؟! هو يريد أن يتحسس خبر مهند لا غير، سكت قليلًا ينظر في عبد العزيز ثم واصل كلامه: أنا أعرفه أكثر منك، له أصدقاء كثيرون كما أسلفنا وربما أمر بعضهم بإعمال الحادثة.. وزاد ناصر: حين تحدثتُ مع مهند في اللقاء الأخير قال لي بأن لديه دليل قوي في أن ماجد هو من أحرق السيارة؟!

- عبد العزيز مستغربًا: وهل يعرفه مهند أيضًا؟!

- لا أدري، الغريب أنه ما زال يسأل عن صفاته وكيف تعرفنا عليه، وسألني عن أصدقائه الذين يمشون معه!!

- عجيب..!! أما أنا فلن أبقى مع ماجد بعد اليوم ومِن الضروري أن نتقابل مع مهند نستوضح منه وتساعداني على ترك التعاطي.

- سنخرج من الشقة في القريب إن شاء الله ولكن لابد من التخطيط فلو خرجنا عيانًا منه ربما يتصدى لنا بما نكره، وبالنسبة لمشكلة التعاطي فصدّقني أنك تستطيع تركه فأنت لم تتعمق فيه بعد.. ادع الله واستعن به أوّلًا، ثم الزم أهل الهمم الذين قد تنزهوا عن مثل هذه الأمور، وكن ذا عزيمة قوية في ترك التعاطي وأشغل وقتك بما لا يدع مجالًا للعودة مرةً أخرى..

- عادا إلى الشُقّة في وقتٍ متأخر حيث اقترب طلوع الفجر، كان الأمل يحدوهما وعزيمة الإقلاع مترسخةٌ في أعماقهما، دخلا فلم يجدا أحدًا..

- همس عبد العزيز: ما رأيك أن نخرج الآن؟؟!

- حسنًا ما قلت.. وشرعا بلملمة الأغراض.!

- أتمّا جمع الأغراض وجعلاها في حقائبهم وكانا يتوجسان في كل مرة من مجيء أحدهم خاصة ماجد، خرج عبد العزيز يتحسس فلم يجد أحدًا بالخارج فأوعز لناصر وانطلقا فرِحَيْن، ولكن الفرح لم يتم حيث تذكر ناصر جهازه المحمول فاضطُّرَّا للعودة وقُدِّر أن يكون ماجد قد سبقهما.

- قال عبد العزيز لمّا رأى ماجد: ما رأيك أن نذهب وتستعيض عن هذا الجهاز بجهازٍ آخر..؟؟

- فكّر ناصر قليلًا ثم قال: يحوي ملفات هامّة لا أستطيع الغُنية عنها.

أردف: هل لديك فكرة أستطيع من خلالها أن استخلص الجهاز دون أن يحصل شيء من الملابسات معه؟!

- سيسأل حتمًا عن الأغراض لماذا رُحّلت؟ ولتكن أقوى هذه المرة، قل: سنخرج ولا نريد أن نبقى معك! ماذا عساه أن يفعل؟ لن يُحرّك ساكنًا.. وإن استعصى أو تعنّت أرغمنا أنفَه.

- حسنًا دعني أسير إليه لوحدي فهناك بعض المواقف الخاصة بيننا تستدعي ذلك، ولأطمئنه قدر المستطاع بأننا لن نتعقّب له بسوء، فهو بطبيعة الحال يخاف أن نفشي له سرًا حال خروجنا ونُبلّغ عنه.

بقي عبد العزيز في سيارة ناصر، بينما سار ناصر إلى الداخل يتلكّأ في مشيته تملؤه الريبة، ومئات الأفكار تتلاعب في ذهنه!

انتظر عبد العزيز بالخارج نحوًا من عشر دقائق أو تزيد، وبدأ القلق يساوره إزاء رفيقه، تردد في النزول مرارًا لكنه خشي في ذات الوقت أن يسيء إلى ناصر بنزوله.

وفي تلك الأثناء بينما كان عبد العزيز ينتظر إذ به يرى ثلاثة من أسوأ أصدقاء ماجد يعرفهم، رآهم متوجهين إلى الشقة وفي وجوههم المنكر، نسي أن يُطفئ السيارة وترجَّل تاليًا لهم وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم مرارًا وتكرارًا..

كان يمشي على حافة قدميه في المدخل المؤدي للشقة كي لا يُسمع وقعُه، فإذا هو يسمع اعتلاء الأصوات داخل الشقة كلهم يطالبون ناصر ببعض المبالغ المالية، ويبدو أنهم قد استحدثوا بعض الأمور المكذوبة نسبوها إليه كي يدينونه بها.

كان يسمع ماجد وهو يصرخ بناصر كما يبدو ويهدّده بالذبح في حال لو عزَم على الخروج، وسمعه يقول: أتريد أن أقع ضحية للحكومة بسببك أيها التافه.. لن تخرج.. لن تخرج وكرّر ذلك، اقترب عبد العزيز ووضع يده على مقبض الباب يهم بالدخول لمؤازرة ناصر، وتارةً يفكر في الاتصال بالشرطة، سمع ناصر بنبرة المتوسل يقول: دعوني وسأعطيكم ما تريدون.

نعم، عرَفَ عبد العزيز بأن ناصر في موقف صعب جدًا، آثر الانتظار قليلًا فلربما يجدي التوسل حيث لا بُدّ منه في بعض الأحيان، لحظات من التلاسن وصخب الأصوات فإذا هو يسمع صوت أشبه بالركل وكان يميّز زمجرة ناصر وهو يقول لا... لا، ويفتح الباب عبد العزيز فإذا هو مُقفَل من الداخل، وطَفِقَ يولول من الخارج ويضرب الباب مهدّدًا، ولثوانٍ معدودة وإذ بالباب يُفتح، خرج إليه أحدهم مندفعًا، وكان يمسك سكينًا مضّرجةً بالدم! وهوى بها على عبد العزيز فقفز الأخير للوراء فتصيبه في أعلى كتفه، لكنه استطاع معها الهرب، ورغم الدم الذي كان يحس بخروجه إلا أنه كان أخفّ منهم جسمًا، كان يسمعهم يصطرخون ويتلاهثون مستميتين طلبًا لإدراكه.. ارتمى في سيارة ناصر والتي لم تُطفأ، وما إن تحركت السيارة وإذا بوابلٍ من الأحجار والعُلب تنهمر على السيارة، ولقد كُسِر الزجاج الخلفي لكن ذلك لا يضره دام أنه ناجٍ ببدنه.. ابتعد أكثر من خمسمائة متر، أوقف سيارة إحدى العوائل وكانت المهابة تبدو على عائلهم، طلب من الرجل قائلًا أدركوا صديقي المطعون في الشقة السفلية من تلك العمارة وأشار إليها بيده، صرخ النساء ووعده الرجُل خيرًا وهو ينظر الدم مشفقًا: الآن سوف أتصل بالإسعاف والشرطة لا تخف.

اتجه عبد العزيز يمينًا يريد أن يخبر صاحب مغسلة الملابس وكان يعرفه معرفةً قوية، وما إن أرخى النافذة اليمنى يريد أن يكلّمه وإذ بطلقة رصاص تنفذ في أعلى السيارة لا يدري كيف جاءت، انطلق بالسيارة كالمجنون وما زال ينطق بالشهادة ويستغفر بعد أن يئس من الحياة وظنّ بقرب حتفه، ومن طريق إلى آخر حتى استتم في الطريق الدائرى..

وهكذا كان عبد العزيز يَحفِد في الطريق كالهائم يريد بيت مهند فالمجال لم يعد يتسع لأي خيار آخر، توقف الدم.. لكن الألم لا يزال وكان الهاجس الأقوى في تفكيره والحظ الأكبر منه يذهب لرفيق دربه ناصر.. تارةً يتصوره بأنه قد فارق الحياة، وتارةً يتخيله في لحظاته الأخيرة وهو يجود بنفسه يصارع الموت، وفي أقل الأحوال يؤمّل أن الطعنات لم تجوز أطراف.

اقترب من بيت مهند لكنه بدأ يحس بما يشبه الغثيان ويشعر برعشة في جسده، رن هاتفه الجوال فإذا هو ماجد، لم يرعوِ في الزج بالجوال..

وصل بيت مهند فلم يرَ سيارته ولا سيارة أبيه، تحدّر من السيارة التي كان يقودها بثيابه الملطّخة ووجهه المكفهرّ، وطرَق

الباب فكلمته أم مهند من السماعة الداخلية، سأل عن مهند فأبلغَته أن ابنها أصبح في بيت مستقل نظرًا لقرب زواجه وتعذر عليها توصيف مكانه، فسأل عن أبي مهند وأجابته: لا أدري..!

ألحّت عليه بالدخول ريثما تتصل بمهند فيأتيه لكن الوقت والظرف لا يسمحان، احسّت في نبرته بأنه في غاية الجَهد والنّهَك فأمرته بأن ينتظر في السيارة على الأقل إلى أن يصل مهند.

وبالفعل فاء إلى السيارة إذ ليس له بُدّ من الانتظار لكنه لم يقوَ على الركوب حيث اتسخ مكان السائق بالدم.

غلبه الإعياء فجلس إلى جنب السيارة، وكلما مرّ عليه أحدٌ توجّس واستراب منه، وعرض عليه أن يخدمه فيأبى، تأخر عليه مهند وأحس ببداية الإغماء وكان ذلك آخر عهده قبل إن يستفيق في المستشفى..!!

وصل إليه مهند حوالي الساعة الثامنة صباحًا يصحبه زميله في العمل وكانا بالزي الرسمي مما ساعدهما على سهولة التنسيق مع الهلال الأحمر، وأدخل المستشفى

وتم تسهيل الإجراءات الأمنية فيما يتعلق بالإصابة التي حصلت له.

مهنّد هاله منظر ابن عمه وأطبَق عليه الصمت، وبدت في عينيه استفهامات كثيرة عن الملابسات التي حصلت.

لم يألُ مهند في الوقوف معه ومنحه الوقت الكافي كي يسترد عافيته.. أُعطي المُغذي وتم تضميد جرحه، أمَرَ مهند زميلَه بالانصراف إلى عمله وبقي هو إلى ما قبل صلاة الظهر حتى أفاق عبد العزيز تمامًا.

تهيأ عبد العزيز وهو على السرير وأصبح في وضع القاعد واستهل كلامه الموجّه إلى مهند وما زال أثر التعب باديًا عليه، قال: أدرِك ناصر، وكررها! سأله مهند وكان يشك أن ثمة معضلة حصلت: وما ذاك؟!

قص عليه الخبر وما زال مهند يحاوره، ويتقصى منه كل الأحداث من مبتدئها إلى منتهاها حتى ملَك التصور الكامل إزاء ما حصل، بالإضافة إلى المعلومات السابقة التي كان قد تلقاها عن طريق المباحث والذين تم التنسيق معهم مسبقًا حيال هذا الشخص (ماجد).

خَلَص مهند لوحده واتصل بمسؤوله المباشر والذي هو الآخر كان لديه دراية مسبقة عن (ملف ماجد) غير أنه طلب إرجاء الموضوع ليوم غد، فألح مهند عليه، وأخبره بأن الشخص الذي كان يتعاون معهم بات مطعونًا من قِبَل الرجُل المتهم، وأن حالته حرجة والمجال لا يحتمل التأخير!

طلب المسؤول من مهند أن يمنحه قليلًا من الوقت، ثم عاود الاتصال به وأمره أن يقود الفرقة بنفسه والتي سوف تتولى مهمة القبض على المتهمين، وهذا ما كان يتمناه مهند، كانت الفرقة مكّونة من تسعة أفراد ما بين رجال الأمن وجهاز المباحث..

رأى مهند أنه لا بد لعبد العزيز أن يصحبهم رغم ما يعانيه فهو أعرف بالأوكار والشقق التي يرودها ماجد ورفاقه لكن تفاجأ برفض عبد العزيز دون أن يبدي أي سبب مما أثار الكثير من علامات التعجب في نفس مهند !!

اتصل بمركز الاستعلامات وأبلغهم بوجود شخص مطعون في حي (الملز) وأمرهم بتقصي الخبر ما إذا كان في أحد المستشفيات القريبة أم لا ..!!

أقفل الخط وقال له عبد العزيز على الفور: أخشى أن يكونوا قد أبقوه في الشقة ومضوا عنه ولم يلتفتوا إليه وكذلك يفعلون، ومع هذا الكلام تلعثم عبد العزيز من الكمَد ولم يستطع أن يتمم كلامه..

اتصل المسؤول بمهند وأخبره بجاهزية الفرقة وأمره بالتوجه حالًا إلى مقر العمل لبدء المهمة، وما زال مهند يلح على عبد العزيز في الذهاب، وأخبره بضرورة ذلك لا سيما أنه قد استرد صحته ولم يبقَ إلا اللحظات الأخيرة وتنتهي قضية هذا المجرم الذي ضل وأضل وأوقع الكثيرين في شراك غدره.

في تلك اللحظات ورد اتصال إلى مهند يفيد بأن المدعو (ناصر) موجود حاليًا في مستشفى (الشميسي) وأنه في حالة غيبوبة.

حينئذ اضطرمت نيران الانتقام في نفس عبد العزيز وقرر المشاركة في هذه المهمة، خرجا من المستشفى وفي أثناء طريقهم قال مهند لعبد العزيز: ما عليك سوى أن تستدرج ماجدًا أو أيّا منهم لأحد الأماكن بالاتصال والتنسيق معه، ونحن بدورنا سنداهم الموقع ونتمكن من القبض عليهم.

وصلا للجناح الخاص الذي يقع فيه مكتب مهند لبدء المهمة وتذكَّر عبد العزيز أنه لا يملك أي رقم حيث لا جوال معه!

طلب مهند حينها من أفراد المباحث أن يعرِضوا عليه كافة المعلومات المثبتة عن ماجد بما في ذلك أرقام الهواتف، وجاءه أحدهم بالملف كاملًا ليتفاجأ عبد العزيز بأن رقمه ورقم ناصر ورقمٌ آخر مجهول كانت من ضمن الأرقام المُساعدة لهم في الوصول إلى ماجد، ومعنى ذلك أنهم جميعًا تحت الرقابة..! وقد أثار الموقف استغراب الموجودين دون أن تُعرف حقيقة الأمر تمامًا.

تغيرت ملامح مهند وبدت علامات الغضب عليه واقترح عليه أحد زملائه من رجال الأمن أن يبدؤوا التحرك لتتم المداهمة دون أن يتم الاتصال بأحد المتهمين أو التمويه عليهم فليس ذلك بالضرورة، وبينما كان مهند يتحدث مع زميله القريب إذ بالباب يُطرق، أَذِن له مهند بالدخول فإذا هو عبد الرحمن (الشاب الأعرج) والذي كان يُعنى بتوصيل الطلبات الخارجية وما تتطلبه أعمال الصيانة في المركز، (كان الجميع يحبه لأنه

يجيد النكتة والطرفة وأوتي ذكاءً وسرعةً في البديهة)، انتبه له عبد العزيز وهو يقترب من مهند يريد الاستئذان، فتجمد عبد العزيز في مكانه والتقت أنظارهما ثم انصرف سريعًا بعد أن أذن له مهند في الخروج.

اقترب عبد العزيز من مهند وهمس إليه: إني لأعرف هذا الأعرج، كان يأتي مع ماجد في بعض الأحيان.

مهند كاد أن يُصعق من هول ما سمع: أمتأكدٌ أنت؟!

أخذ عبد العزيز يقسم بالله أن هذا الشخص من أصدقاء ماجد.

أمر مهند من فوره أحد العساكر ليُحضر عبد الرحمن، ولما حضر الأخير انسلّ مهند خارجًا وأجرى اتصالًا ليعود ومعه أحد الضباط الكبار برتبة (مقدَّم)، أخذ المقدم يقلب في الأوراق والصمت يسود الموقف، بينما كان مهند يطيل نظره في عبد الرحمن بنظرات مخيفة رن جوال عبد الرحمن رنة واحدة فقط، فترك الضابط (المقدم) ما في يده وتقدم هو ومهند إليه بكل هدوء ، ونزع مهند الجوال من جيبه –وسط اندهاش الجميع– ونظر في اسم المتصل فإذا هو: (م. الزعيم)!

أخذ المقدم الذي يبدو في أوج غضبه بيد الرجل وخرج به دون أن يتفوه بكلمة واحدة وأشار إلى مهند بالبقاء.

دقائق وقد دب الذعر في نفوس الموجودين، تكلم صاحب الجوال معترفًا أمام مهند (وبنبرة الخائف): أنا يا مهند صديق لماجد وكنت أتواصل معه للتو أُخبره بما رأيت!

لم يتكلم مهند بحرف واحد وبقي ينظر إليه، أخذ عبد الرحمن يرجو المقدم تارةً -لكن الأخير ينشغل عنه بالتحدث عن طريق هاتفه اللاسلكي- ثم يحيل نظره إلى مهند يستحلفه على صَغارٍ وذُل .. يطلب منهما ألا يُحدِثا في الأمر شيئًا على أن يقوم هو في المقابل بإحضار ماجد وكافة أصدقائه عنوة، تحدث الضابط مع مهند على انفراد ثم غادر ليبقى رئيس الفرقة يتولى المسؤولية بنفسه ..

أخذ مهند يقلب الجوال الذي في يده، والذي كان يتصل منه عبد الرحمن، عرَض الرقم على عبد العزيز: أتعرف هذا الرقم ما إذا كان هو رقم ماجد أم لا؟!

ما زال عبد العزيز يتامل الرقم، هتَفَ به مهند بصوت المستنكر: أتعرفه أو لا!؟

أجاب على الفور: لا، وتكلم عبد الرحمن حينها: هذا هو رقم ماجد وأنا ضامنٌ لما أقول.

نظر إليه مهند: وما سر تسميته بـ (م.الزعيم)؟! فأجاب بأن الحرف (م) يرمز لماجد، بينما كلمة (الزعيم) لكونه هو زعيم العصابة!

- عصابة ماذا؟

- عصابة تقوم بعدد من أعمال الفساد، لكني لا أشاركهم في شيء سوى أن علاقتي بماجد قوية.

- مهند يتبسّم: لكنك تختان نفسك وتخون وطنك .. وتتداعَون لتمرير ما تجمعونه من الكيد بكل يسرٍ وسهولة في مأمن من رجال الأمن الذين كانوا يظنون فيك الصدق والأمانة ..

ثم أمره بأن يواعد صاحبه حالًا -يعني ماجد- فكأن الحقيقة تستبق أوانها وتتجلى له.

وبالفعل اتصل به وكانت المكالمة مسموعة: أين أنت؟

- في حي (العزيزية) ..

- الفرقة التي حدثتك عنها سوف تتجه إلى (الملز) أنا متأكد من ذلك، ابقوا في نفس المكان وسأرسل لك رسالةً في حال توجهَت الفرقة إلى (العزيزية)، سأكون متابعًا لهم، وأمره بأن يخبر رفاقه كي يبقوا معه أو على الأقل لئلا يذهب أحدهم إلى الملز.

أُودِعَ عبد الرحمن السجن بعد أن أُخِذَ منه وصف الشقة بشكل دقيق.

لم يبرح النقيب مهند حتى طلب من زميله التنسيق مع قسم الدوريات الأمنية في مركز شرطة (العزيزية) وتم التنسيق كذلك مع رجال مكافحة المخدرات..

توافدت ثلاث دوريات أمنية وسيارتان لرجال مكافحة المخدرات عند الموقع في تمام الساعة الثالثة عصرًا، وفي تلك اللحظات كان عبد العزيز يتساءل: كيف لي أن بقيتُ حقبةً من الزمن معهم؟! ثم حمد الله أن نجّاه منهم، وقاده التفكير في لحظات سريعة إلى صديقه ناصر متعجبًا كيف استبان له طريق الهدى فكان يحرص في كل يوم على إنقاذه، ولله درّه كيف كان يتعاون مع مهند والذي يمثل جهة أمنية للإيقاع بالمجرم وعصابته!!

انقسموا إلى فرقتين، فرقةٌ في الخارج بَقِيَتْ تحيط بالمكان تحسبًا لهروب المتهمين أو مقاومتهم، وفرقة أخرى قد داهمت الشقة التي كانت تؤوي ماجد وستة آخرين معه من المتهمين، وتقع في الدور الثاني، بقي عبد العزيز بالأسفل يَظهَرُ قلِقًا على كافة رجال الأمن لاسيما ابن عمه من سطوة العصابة.

كان الباب مفتوحًا ورائحة السُّكْر تصل للخارج، وصوت التلفاز الصاخب قد ملأ المكان، دخل رجال مكافحة المخدرات ثم تلاهم رجال الأمن مدججين بالسلاح.. لم يجدوا أي مقاومة تُذكر، نهضوا يسألون رجال الأمن: ما الأمر؟؟ ماذا تريدون؟!

بدأ رجال الأمن في تكبيل أياديهم، وتقدم القائد يجس في الغُرف ثم ألقى بنظره إلى أحدهم وكان يلبس بنطلونًا أخضر فضفاض،

- قال له مهند: يبدو أنني قد التقيتك وأنت تلبس ذات البنطلون؟!!

- لا أتذكر..

- أنا أتذكر، أما كنت واقفًا حيال منزلي بعد صلاة الجمعة ذات يوم تتظاهر بوجود عُطل في سيارتك حين أتيتك وعرضتُ عليك المساعدة فرفضت وقلتَ بأنك تنتظر صديقك كي يساعدك؟!!

- نعم هو كذلك.

- بعدها بحوالي الخمس دقائق احترقَت سيارتي فهلا أخبرتني كيف حصل هذا الحريق إذ أنك بقيت تنتظر صاحبك؟!

- نظر ذلك الشاب إلى ماجد بنظرات كراهية.. ولم يتكلم.

أمر مهند بإركابهم في الدوريات، وقُبيل ذلك ربت على كتف ماجد وقال له: أتعرفني أيها الزميل المخلص؟؟! ابتدأتَ في إلقاء التهم عليّ جزافًا أيام الثانوية وكنت أشَرَّ الماكرين، وما زلت في غيّك تريد أن تنقُم من عبد العزيز محاولًا أن تُوقعه رهنًا للترويج مثلك، ولا تفتأ تفسد شباب المسلمين، وظننت أن علائقك ببعض الخونة ستنفعك، كلّا.. ثم بعثتَ ببعض من غرَّرْتَ بهم لإحراق سيارتي، وأردتَ قبل يومين أن تقتل ناصر لئلا يهتك سرّك.. أما علمت أن الله أقدَر منك، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله!!؟

طَفِقَ ماجد يتلفظ على مهند بكلمات نابية جدًا ويُكذبه، ويقول بأنه لا يريد سوى اتهامه مستغلًا مكانته العسكرية، وقام أحدهم يسأل مهند بالله أن يعتقه حيث أن وراءه زوجته وابنتيه، نظر فيه مهند طويلًا كالذي يتعرّفه وكان شابٌّ أصلع قد تنفّط وجهه وكثُرَت فيه البثور: من أنت؟

- أنا خالد.

- نزلت دموع مهند حينها وهو يتفكر في نعمة الله عليه كيف أمكن له منهم بعد هذه السنوات وحمد الله في نفسه، ثم أمر بسَوقهم إلى الدوريات..

لحظات وإذ بصوت إطلاق نار بالخارج، أشار مهند للعساكر بالثبات في أماكنهم خاصةَ الواقفين بالباب، وأصبح صوت إطلاق النار يقع في العمارة نفسها من الجهة الأخرى، وأمر مهندٌ الضابطَ أن يطلب فرقة مساندة في الحال، وأثناء ذلك هاتفه العسكري المسئول بالأسفل وأخبره بأن الوضع لا يسمح بالنزول الآن لوجود أشخاص مسلحين يهاجمون الموقع، أمرهم مهند بالتخفي حالًا بين السيارات ريثما يقترب الأشخاص المجهولون وأن يبادلوهم إطلاق النار دون تردد،

لكن العسكري ذكر بأن إطلاق النار آت من جهات مختلفة وأن العمارة هي المستهدفة لا العساكر، وهنا تابع مهند بنفسه مع الفرقة المساندة على أن يبقوا منتشرين في أفواه كافة الطرُق المؤدية للموقع، سكَتَ صوت إطلاق النار بعدها إلا أن هناك توجسًا شديدًا يظهَر في وجوه رجال الأمن وكذلك المتهمين، بخلاف مهند كانت تملؤه الثقة ويعلوه التفاؤل.. أخذ يفتّش المجرمين وهم مقيدون لا يستطيعون التحرك ولما أن وصل لماجد، وكان الأخير يدوِّر عيناه في الأرض لا يرفعها ولا يتكلم، قال له مهند بصوت منخفض:

أرأيت يا صديقي كيف أن الباطل يزهق ويموت؟!؟

ماجد لا يزال مُطبِقًا..

الضابط يأتي لمهند ويقول بصوت مسموع: الوضع الآن آمنٌ يا سعادة النقيب، تم القبض على ثلاثة أشخاص بحوزتهم ذخيرة من الرصاص والأسلحة، وأُغلقت الطرق المحيطة تمامًا.

- مهند يرفع بصره للأعلى: الحمد لله، نظَر للضابط يسأله على وجه التأكد: كل الجهات آمنة؟!

- نعم.

ويشير مهند حينها بكلتَيّ يديه يأذن بالنزول وكان رامي أحد الأشخاص الثلاثة الذين تم القبض عليهم للتو خارجًا، صاح ماجد صيحة مدوية كادت الجدران أن تتصدع معها، وضربه الضابط على وجهه، ولم يكن يريد مهندًا.

ما زال ماجد يضطرب بشدة ويزمجر يطلب الفكاك، وبقي رفاقه ينظرون إليه في صمت.

وما إن رأى ماجد عبد العزيز قبل إركابه حتى أخذ يلعنه.. ويقول: فعلتها يا خائن، وتآمرتَ مع ابن عمك ضدنا (الله ينصرنا عليكم)؟!.. عبد العزيز ينظر إليه بنظرة الشفقة مطبقًا يبدو حزينًا أو خائفًا!

أُودع المجرمون داخل القضبان على أن يتم استكمال الإجراءات الجزائية وصدور الحكم في حقهم وقد بات من السهل القبض على الثلة القليلة الباقية بعد أن أطاحوا بالرؤوس منهم.

أما عبد العزيز فلم يكن يشغله سوى ناصر بعدما أيقن بقطع دابر رفقاء السوء الذين أضلوه، وقاسمه مهنّد ذات الهم.. ففي غداة اليوم التالي يمما صوب مستشفى

(الشميسي) حيث يرقد ناصر، دلفا إلى الغرفة بخطىً متباطئة، وعيون مترقّبة تبدو في حالة شديدة من الحذر، تسابقهما الأوهام والتوقعات السيئة.

كان في حالة غيبوبة، والأجهزة تجثم عليه، لم يكن بجواره أحد حيث لا صديق يَصدُقه ولا رفيق يرافقه، جاءت الممرضة فسألاها واستعجم عليهم فهمُها!

بدأ عبد العزيز يتفقد جسم صديقه فلم يجد أي أثر للطعن، كان بجوارهم أحد المرضى ومعه مرافقون، سألهم عن حالة ناصر فقالوا بأنه يتحسن تدريجيًا حسب ما أملاه لهم الطبيب وأنه يوجد به طعنةٌ في خاصرته.

استبشر مهند وعبد العزيز وبحثا عن الطبيب فلم يجداه ووجدا الطبيب المناوب الذي طمأنهم، وقال لديه طعنة غائرة في خاصرته تسببت في بعض النزيف، ولديه كسرٌ في أحد أضلاعه!!

وأردف: الأطباء هم من قاموا بتخديره حسب ما تقتضيه حالته الصحية وإن شاء الله سيخرج معافى خلال أسبوعين أو ثلاثة!

مهند وقد بدت علامات الرضا عليه: هذا صديقٌ لنا وعَلِمنا بوجوده هنا فقمنا بزيارته، ونَسأل: هل يستطيع أحدنا مرافقته؟

الطبيب: هذا المريض جاءنا عن طريق الهلال الأحمر يرافقهم اثنان من رجال الأمن ويبدو أنه قد تم الاعتداء عليه من قِبَل أطراف آخرين، (وكانت نظرة الطبيب لهما مُريبة أثناء حديثه كما لو كان يشك في معرفتهما بما حصل)!!

تمّم: وما دام أنه تحت التخدير فلا حاجة لوجود مرافق، (شكَرَهُم كالذي يبدو مشغولًا)، فخرجا...

عبد العزيز اختلف، فقد تسرب إليه من الانكسار ما يوحي بتغيُّرٍ كبيرٍ في داخله، وهَدَأةٌ كانت في عينيه تَنُمُّ عن قوةِ ما يمتلكه من العزيمة في إعمال مستقبلٍ مُشرق في حياته.. سأل ابن عمه في موقف المُريد الصادق: يا مهند إنني قد استكثرت من الذنوب، وضللتُ الطريق تمامًا، وتهتُ في هذه الحياة على غير هدى، ولقد نويتُ أن أتوب أكثر من مرة فلم أصدُق مع الله، وعدتُ لأعيش حياة الظلام والنكد والذل، فهل سيقبل الله توبتي إن أنا تبتُ الآن توبةً صادقة؟! وهل أكون كاذبًا لو وقعتُ في الذنب مرةً أخرى..؟؟

مهند يسكت فلم يُجب، وعَلِم عبد العزيز أنه يدافع عبرته، قال له مهند: سأذكر لك آية قرآنية وحديثًا نبويًا، فليس هناك من هو أصدق من الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، قال الله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فلا تظن بالله أنه لن يغفر ذنوبك، مهما تكررت ومهما كانت حتى وإن وصلت عنان السماء فالله رحيم بعباده يقبل التوبة عنهم ويفرح أشد الفرح، هذا وفي حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه- أن رجلًا أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال يا رسول الله: أحدنا يذنب، قال: « يُكتَب عليه »، قال: ثم يستغفر منه قال: « يُغفر له ويُتاب عليه »، قال: فيعود فيُذنب قال: « يُكتب له »، قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: « يُغفر له ويُتاب ولا يملّ الله حتى تملوا » [حديث حسن صحيح]..

فماذا بعدُ يا ابن العم؟! اعزم على التوبة وأقلع عن المعاصي، فإن أخطأت فاستغفر وتب فكل الناس خطاء، وخير الخطاءين التوابون كما أشار النبي -صلى الله عليه وسلم-.

آثر الخلوة بعد ذلك عبد العزيز وأرغم عقله على التفكير الصحيح الذي سينقله ليولد من جديد، تفكر في أخطائه

وخطاياه وكيف ألبَسَتْهُ ثياب المذلّة، وتذكّر كبرياءه وعناده في حق أحق الناس به وهو أبوه، وكيف أصبح بعده كالفالت الذي لا يرعوي عن فعل لذائذه وأهوائه.. حاله حال الأنعام تأكل وتشرب وتنام!!

أحس عبد العزيز كأنما أفاق من سَكرَة.. وكأنه يستوعب للتو معنى الحياة، أحسّ بشعور غريب يتدفق في كل أنحائه، طفق يستلهم بعض ذنوبه التي كان يزاولها، وموبقاته التي كان غارقًا في لججها.. لا يعلمها الناس لكن الله يعلمها..

قال في نفسه: عشتُ أكثر من ربع قرنٍ ولم أهنأ بحال، أهي الذنوب التي اقترفتُها جعلتْ من الحياة طعمًا لا يستساغ؟! أم هي غصص الدنيا التي داهمتني قسرًا فصنعت كمًّا من الأكدار عكّرت عليّ صفو الحياة كلها!

أخذ يتساءل: أما كان لي أن أتدارك الأمر قبل أن يستفحل، وماذا عليّ لو أطعتُ أبي مهما كانت قسوته، وماذا يضيرني أن لو بحثت أسباب رضاه حتى وإن أخطأ في حقنا! هذا والله لا يُسوِّغ لي أن أعانده أو أتعنَّت معه، فقد تعب وبذل من أجلنا ولقد احتمل من الهموم بسببي أنا خاصة الشيء الكثير قبل أن أسافر وبعد أن سافرت.. (وهنا غصّ بالبكاء)!!

قاده التفكير إلى بعض ذكرياته المُرّة مع أصدقاء السوء، وكيف استهواه الشيطان بسهولة فاستجاب لهم، وكانوا قد اتخذوا منه مطيةً لتحقيق مآربهم.. كان يُظهر لهم الطيبة والخُلُق الحسَن، وهي في حقيقتها سذاجة وجبن، ومراعاة لرضاهم، وحرصٌ على مشاعرهم ألا تتغير تجاهه.. في حين أن أهله لم يحظوا بمعشار ذلك.

تذكر أمّه التي واراها الثرى قبل ما يزهو على ست سنوات والتي لم ترَ منه ما يريحها، وجال به الفكر إلى شقيقه وشقيقته وكيف قصّر في حقهما وكأنهم لا يعنونه بشيء، وهناك أيضًا إخوته غير الأشقاء لم يرهم ولم يدرِ عنهم منذ سنوات بل لا يعرف بعضهم..!

ثم تساءَل: كيف السبيل إلى أن تندمل هذه الجراح.. فأنسى الماضي تمامًا؟! وأبدأ صفحة جديدة من الحياة وأعيش عيشًا كريمًا..!!

أخذ يرُدّ على نفسه: إنها التوبة الصادقة والحياة مع الله والأنس بقربه.. وأخذ يناجي ربه في خضوع ودموع، ونسمات الإيمان تتسلل إلى قلبه:

يا رب ليس هناك من يعلم حالي غيرك.. وليس أحدٌ يقبلني إلا أنت، فإن رددتني فإلى من ألجأ وعلى من أؤمِّل؟!

اللهم يا غافر الذنب اغفر ذنبي فإني نادم، واقبل توبتي فإني قادم.. اللهم إني أسألك فأنت القادر على كل شيء أن تُفرّج همي وأن تستر عيوبي وأن ترضى عني.

يا رب أنت تراني الآن وتعلم اعترافي بما كان مني من الخطأ وإقراري بما صدر مني من الزلل.. لم أستطع الصبر عن الشهوات، وغرتني نفسي والدنيا، وتلاعبت بي وساوس الشيطان.

اللهم إن كنت تعلم أنني لم أعصك كُرهًا لك، ولا تهاونًا بأوامرك، ولا تكبرًا، ولكن بسبب قلة إيماني وضعف بصيرتي اللهم فتُب عليّ بتوبة صادقة تمحو بها ما مضى من ذنوبي.. أخذ يفكر في الدخان والكذب والأغاني وعصيان والديه والمخدرات وظلمه لمن هم أضعف منه..

يا رب إني أشهد بأنك أنت الله الواحد الذي لا معبود غيره.. توقف قليلًا يفكر في معنى (لا إله إلا الله)، فكأنه للتو يعرف معناها بعد أن كان يرددها فقط، ثم عاد يناجي ربه: يا رب ويتوقف قليلًا.. يا رب إنك تعلم نيّتي اللهم فلا تطردني ولا تردني خائبًا.

اللهم اغفر لي وارحمني وتجاوز عني.

ما زال يستغفر والدمعات تتحدر من عينيه، توضأ ثم صلى ركعتين أطال فيها السجود والركوع وألح على الله بالدعاء في قبول توبته.. عمَدَ إلى المصحف وفتح على الصفحات الوسطى منه.. ثم شرع يقرأ في سورة المؤمنون، يعرض نفسه على آياتها.

أحس حينئذ بالسعادة تغمره – وقد كان يسمع بها – وشعر بأن الله -جل جلاله- قد كشف عن قلبه غشاوة الغفلة، وأنار بصيرته بما قد أودع في نفسه من الهدى، تاقت نفسه إلى طاعة الخالق -جل وعلا- وعلم أن قسوة قلبه قد بدأت في الزوال..

يا رب يا رب.. وما زال يلهج بالذكر والاستغفار الدعاء.

هكذا وُلِد عبد العزيز من جديد، لكن هذه الولادة تختلف عن الولادة الأولى، فالأولى يشترك فيها الكافر والمسلم والنساء والرجال، بل حتى الحيوانات والبهائم كلها تشترك في ذات الميلاد، ميلادٌ يخرجون معه إلى عالم الأرض في حياة مملوءة بالأكدار والأحزان، لا يدوم فيها فرح ولا يبقى معها عزّ ولا يُؤمَن فيها مكر، سمّاها الله ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]،

وجعلها دار ابتلاء وامتحان بخيرها وشرها ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء:٣٥]، لكن هناك أناسًا قد اصطفاهم الله -عز وجل- ليولدوا مرتين، المرة الأولى في الميلاد الذي يشترك فيه الكل، والمرة الثانية عندما سلكوا طريقًا جديدًا نحو الله والدار الآخرة، طريقٌ يعيشون فيه على نور من الله وهداية، هذا الطريق شاقٌ ومُتعب لكنّ به من اللذة والأنس والسعادة ما يفوق التصور.. هدفهم فيه بعيد، وصعب المُنال لأن سلعة الله غالية.

والحق - سبحانه وتعالى - قد وعَد عباده وتكفل لهم بأن من وضع خطاه في هذا الطريق سيصل بحوله وطَوله إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض متى ما علم سبحانه منه الصدق والكفاح ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] عبد العزيز وُلِدَ ميلاده الثاني في هذا الطريق الذي اختاره الله له.. طريق النور.. طريق الاستقامة.. طريق العز والفلاح والتمكين.

* * *

- ٢٢ -

استيقظ في اليوم الثاني بنفس طيبةٍ، وقلب زاكٍ وروحٍ طاهرة.. تملؤه العزيمة الصادقة في التوبة إلى الله.

ودّع عبد العزيز مهنّدًا وأباه بعد أن خنس الشيطان وزهَقت وسوسته، فتجلّت الغُمة التي كان فيها وباتت الحقيقةُ ماثلة أمامه تشهد بصدقهما ووفائهما، وأنهما قد ضربا مثالًا رائعًا في بذل الخير له وأن ما كان يتوهمه فيهما ما هو إلا مجرد ظنّ سيء ألقاه الشيطان إليه..!

اعتذرا إليه قبل أن يعتذر هو، وأمدّاه بالمال الذي يتبلغ به وأزيَد، ثم استأذن مهندًا في سيارته واستقلها متوجهًا نحو القرية التي وُلد وترعرع فيها، كان مقصوده الأول هو استرضاء أبيه والسلام عليه، لم يعد يحتاج الأمر في ذلك إلى الاتصال أو إلى جَسّ النبض بل إلى التوجه مباشرة إلى هناك والانطراح بين يديه وتقبيل كفّيه.

نعم، فالعزيمة الصادقة إنما تسير بصاحبها في طريق واحد يكون هو الأقصر في الوصول إلى الهدف، بعيدًا عن

الالتفات للطرق الأخرى أو الأفكار التي من شأنها أن تُعوّق السير أو تُبطِّئه.

ترك مدينة الرياض خلفه بذكرياتها وغُصصها وآلامها بعد أن أمضى فيها تجربة من نوعها، أفهمته جزءًا من الحياةِ وشيئًا من مغزاها، واختزلت عليه مفازات واسعة من الخبرة، وقفزت به مراحل في النضج والتفكير!

كانت الفرحة تحيط به في طريقه والأمل يحدوه وذكر الله أنيسه.

قطع شوطًا كبيرًا في طريقه -طريق الرياض/ الطائف- توقف في إحدى الاستراحات حيث الغداء وصلاتي الظهر والعصر، اشترى بعض الأشرطة الإسلامية ثم واصل مسيرَهُ، وصوت القرآن يُغذّيه بالسعادة والحبور.

في أثناء الطريق سمع نغمة رسالة في جواله الجديد الذي اشتراه في اليوم الأول ولم يكن وضع فيه الأسماء بعد..

قرأ الرسالة وإذا هو مكتوب فيها: (لقد أبلغنا والدك للتو بأنك ذاهبٌ إليه فأفرحه ذلك واستبشر وهو الآن بانتظارك) مهند.

كرر عبد العزيز قراءة الرسالة وسقطت دمعاته من شدة الفرح، استتمّ في طريقه وقرر أن يشتري بعض الهدايا لأهله فور وصوله الطائف.

ورد إليه اتصالٌ بعدها فلم يَرُدّ، تكرر عليه الاتصال فأجاب وإذ به شقيقه سعْد، وتلعثم فرحًا وشوقًا، ازداد سروره حين أخبره بأنه ذاهبٌ من الغد إلى القرية لمقابلته، أقفل المكالمة ورحل به التفكير إلى تلك التي كانت موجودة في كل مرّة ولم تعد موجودة الآن ولا في قابل الأيام، نعم تذكّر أمّه وهتفت به الذاكرة للوراء قبل طلاقها وبعده، كيف كانت تترك ضيَعِها ومشاغلها لأجل راحتهم، وكيف أنها كانت تنشط وتفرح حينما يأتون إليها فيطلبون صنفًا محددًا من الطعام يشتهونه فتصنعه لهم بدون تردد، ولا تزال تلح عليهم حتى يتضلعون به ويشبعون منه، أخذه التفكير في حالها كيف تبدو قلقَة حينما كان يتظاهر أخوه سعد أمامها بأنه مريض من باب المداعبة والملاطفة، تذكّر يوم أن كانوا يضحكون عليها حين أن كانت أخته تصحح لها قراءة بعض السور القصار من القرآن فتُتَعتِع ويستعصي عليها مجاراة ابنتها في النطق الصحيح، تذكّر حرصها وحديثها عن مستقبلهم وعن مستقبله هو خاصة فكم كانت تُؤمل أن تراه قد تنامى وأصبح رجُلًا تعتز به وتعيش معه.

انقلب شوق أسىً وتبدلت دمعات فرحه إلى دمعات حزن، تمنى أن لو كانت على قيد الحياة فيعانقها ويرتوي بالجلوس معها، ويُدخل السرور والفرح عليها.. لكنه قضاء الله وقدره قد حلّ بها قبل أن تأنس برؤيته!

ظلّ ساكتًا طوال الوقت إلى أن اتصل به مهند يريد أن يطمَئنّ عليه.. ففسّر عنه ما كان يجد وبعث في نفسه الأمل من جديد..

بقي قرابة المائة وخمسين كلم عن الطائف، وكان قد أحس ببعض الألم فتوقف قليلًا ولم يُجد التوقف، فأتمّ سيره بشيء من البطء والحذر على أمل أن يزول ما به، اتصل به شقيقه يتابعه ولم يُبد ارتياحًا حينما سمع صوته وسأله هل تحس بتعب!؟

قال: نعم، فأشار عليه أن يبيت في الطائف ثم يستأنف مشواره في اليوم التالي، وأقرّه.

اشترى بعض الهدايا في صبيحة اليوم الثاني وقام بتغليفها وقد تحسّن حاله، ثم مضى إلى القرية تسابقه التوقعات وتحاديه الآمال.. اتصل به أثناء طريقه بندر وزوجته زهرة، (وكان بندر رجُلًا مستقيمًا وإمامًا لأحد الجوامع الكبرى

في المدينة المنورة، ومعرفة عبد العزيز به كانت معرفةً ظاهريةً لم يكن التقاه إلا في أيام العزاء، ولم تكن الفرصة آنذاك سانحة لتبادل الحديث معه)، وكانا مستبشرين بعودته وأبلغاه بمجيئهما في الأسبوع المقبل!

استشعر عبد العزيز في نفسه وهو يملس فرحة أقاربه بالبعد الذي كان فيه، والغفلة التي نأتْ به عن دفء التلاحم والترابط الذي يعيشونه، فلم يعُد يحس بتلك المعاني ولا يتذوق طعمها!

هناك كان عامر يتحرى ابنه -الذي غاب عنه بضع سنين- في لهفةٍ شديدة، ويسأل ابنه سعد مع كل وهلة: أين وصل أخوك؟!

منذ الليلة الأولى وغالية لم يهدأ لها بال، تتصنع الفرح وفي الحقيقة أن الكمد مسجورٌ في جوفها، جاءت ببعض الأكل ووضعته بين يدي زوجها وقعدت بجواره وهو يأكل، بينما سعدٌ كان مستلقيًا قد غطى وجهه بقبَّعَته كما لو كان يريد أن يغفو، سألته عن عبد العزيز فقال بقي حوالي الساعة ويصل إن شاء الله وهي تنظر في ابنها الذي يمارس إحدى الألعاب الإلكترونية في جوال سعد، أخذت الجوال

على أنها ستداعب ابنها وتشاركه في اللعبة، ثم استنسخت رقم عبد العزيز وكان هو الأعلى في سجل المكالمات الصادرة، خَلَصت إلى غرفتها وضربت الرقم فلم تجد جوابًا ومازالت تعيد الاتصال حتى أجاب، سلّمت عليه وأعربَت عن فرحتها الغامرة بقدومه ثم قالت:

– ما رأيك في أن تتأخر إلى الغد وتبيت الليلة في بيت جدك؟

– لماذا يا عمّة؟

– أبوك لم يرض بعدُ تمام الرضا عنك، لكن أبا مهند هو الذي أصرّ عليه محاولًا إقناعه باستقبالك، واضطر والدك للموافقة وهو كارهٌ.. وقال لي قبل قليل: (لا أريد أن أرى وجهه)، ولذلك هو لم يسال عنك منذ أن تحركتَ إلى لحظتنا هذه! والحقيقة أنني لا أريد أن يحصل بينكما شيء من الشقاق مرة أخرى، وصدقني أنه سيرضى عنك قريبًا فلو بتّ الليلة في مكان آخر ثم أبلغناه بذلك من الغد أو بعد الغد حتمًا سيرقّ قلبه وتأتي على سماحة نفسٍ منه.

عبد العزيز يقع في نفسه شكٌّ تجاه هذه المرأة، قال لها: الغاية الكبرى من مجيئي هي استرضاؤه والقعود معه،

فقد أغضبته كثيرًا في السنوات الماضية يا عمّة وقصّرتُ في حقه، وسأصِل بإذن الله بعد قليل فإن رأيت منه السماحة والرضا فبها ونعمت، وإن كان غير ذلك فحقٌّ عليّ أن أطلب رضاه حتى يكون.

المرأة تلوك شَفَتيها: لك ما أردت وأنا سأبذل معه ما بوسعي الآن لتراه في تمام الرضا إن شاء الله!

خرَجَتْ من غرفتها وصكّت الباب بقوة، ثم ولجت المطبخ وهي في أوج حنَقِها، تطرد كل من يأتيها من أبنائها، وكان يُسْمَع للفناجين صلصلة شديدة وهي تغسلها، أما عبد العزيز فاتصل بمهند بعد أن ساوره الشك وسأله: هل كان والدي مقتنعًا تمامًا بمجيئي أم أن عمي حينما اتصل به كان يلح عليه ويحاول.. قاطعه مهند: أنا من اتصلت بعمي وليس أبي، فأبي ينوي أن يكلّمه بعد وصولك إن شاء الله!!

تردد عبد العزيز في إخباره لكن مهند باشره بالسؤال: لماذا تسأل!!

أخبره عبد العزيز بما بدر من عمته ثم قال: ربما أن أباك اتصل بأبي قبل أن تكلمه أنت؟!

مهند ضاحكًا: لكن والدي سُر بصنيعي هذا عندما أخبرته، ومعنى ذلك أنه لم يكن بباله أن يتحدّث إليه أصلًا، وحينها قال سأكلِّم أخي بعد أن يصل ابنه إن شاء الله.. وكلام عمتك غير صحيح إطلاقًا، وغريبٌ هذا التصرف حقيقةً أن يبدُر منها فالضرة مهما وصلَت بها دوافع الغيرة لا يمكن أن تتمادى إلى هذا الحد، وأنا وأنت نسمع ونرى ما يحصل من الحب والمودة بين الزوجات وأبناء ضراتهن ثم ترى الأبناء كيف يعاملون زوجات آبائهم كما لو كنّ أمهاتهم، هي أخطأت.. وهنا تكمن أخلاقك أنت؛ فأحْسِن إليها وعاملها بالتي هي أحسن فإنك إن تتحدث معها أو مع أبيك في ذات الموضوع فقد تُفاقِم المشكلة ويكون مجيئك سببًا في النزاع بينهما لاسيما أن عمي يفقد أعصابه بسرعة، وحتمًا ستندم هي على فعلها وتأتيك بأسباب المودة لاحقًا وهذا ما قال به القرآن ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤].

هذا ما كنت أنويه وسأكون بإذن الله أنموذجًا مختلفًا عما كنت عليه في السابق وأسأل الله السداد، شكرًا لك..

وصل عبد العزيز إلى القرية التي نشأ فيها وتربى وتعلّم، بعد أن غاب عنها مدة ليست باليسيرة، وجدها هي هي المنازل والطرق لم تتسنّه، رأى بعض منازل أصدقائه فحمِد الله أن تغيّر حاله وسمَت نفسه.

تذكر ناصر وأضمر في نفسه أن يُطمئِن أهله ويبشِّرهم بقدومه عما قريب ويؤكد لهم بأنه أضحى في قوافل العائدين إلى الله -عز وجل-.

الطريق ضيّق، كان يقابل فيه بعض أهل القرية فيعرفهم وهم له منكرون، لا سيما كبار السن، أصبح لديه شارب وعارض خفيف ويبدو شعره طويلًا، كانوا يطيلون النظر فيه كما لو كانوا يتفحصونه ولربما عرفه بعضهم، وفي حين ذلك فإن أمارات الاستقامة لم تكن ظاهرةً عليه بعد.

اقترب من بيت والده والفرحة تهزّه والحماسة تؤزّه، ليس لأجل اللقاء بهم أو الحياة معهم فحسب، وإنما لكونه سيعيش حياةً جديدةً مع الله فلا عقوق ولا مخدرات ولا ضياع بل سعادةٌ وطمأنينة وبرّ وصلة.

قرع الباب فسمع الصغار يتداعَون إليه، لا يكاد يتذكر وجوههم، نظروا إليه ثم عادوا إلى الداخل استحياءً عدا نايف (الأكبر فيهم) وكان قد بلغ العاشرة، ابتدره مُرحِّبًا ومُسلّمًا وكان طلق اللسان حسن المظهر يأخذ بعض الشبه من مهند، سارا إلى الداخل ليرى والده وسَط الفناء قد استحالَت لحيته حمراء وكان مقبلًا إليه مع ابنه سعد، انكبّ يُقبِّل كفه ورجله وكان يشعر برجفة أثناء السلام عليه، بكى الابن بينما كان الأب متهلِلًا جدًا تنبعث أساريره فرحًا وحُبًا، سلّم على شقيقه الأكبر وكان على سالف عهده به لم تُغيّر فيه الأيام شيئًا!

عبد العزيز لا يكاد يستوعب أنه مع والده وبين أهله.

لم يتوانَ الأبُ بعد أن أخذوا أماكنهم في المجلس- في سؤال ابنه عن سوء الحالة التي هو عليها حيث نحول الجسم وجفاف الوجه، وأجابه الابن: هي ضريبة التحرر الممقوت يا أبي، واتباع الهوى، ثم الانسلاخ من كل المبادئ والقِيَم، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لما وسعني أن أخلُد إلى أسباب الشهوات، وأستبدل صحبة الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، فلقد كان مهند وأهله ورفاقه يدعونني إلى كل ما من

شأنه الرفعة والكرامة في الدارين ويدعوني أولئك إلى سبُل الغي وأسباب الانحدار!

سعد وكان متكئًا: المهم أنك استفدت من هذه التجربة.

غالية تقطع الحديث بدخولها وكانت قد امتلأت لحمًا، ترتدي ملابس حريرية تبدو باهظة جدًا، ويزيدها في البهاء احمرار وجنيتها جرّاء النعمة التي تعيش فيها، سلَّمَت على عبد العزيز بحرارة وهو كذلك، وصافحها وقبّل رأسها، كان يتذكر كلام مهند فيبادلها التحايا ويجاذبها كلام الود والتقدير الذي يحصل عادةً بعد الفراق الطويل.

عند الباب كانت أخته سامية وأخوه عمر صاحب الثلاث السنوات، والذي يراه عبد العزيز لأول مرة.. كانا يسارقانه بالنظر فيقول في نفسه: لولا أن منّ الله عليَّ لحُرِمتُ رؤيتهم للأبد.

بقي عبد العزيز ساعة ثم انصرف ليستريح قليلًا قبل أن تحين صلاة المغرب، وعندما استلقى على فراشه شعر بما يشبه الصداع في رأسه، وضعُفٌ في أطرافه، وقال لنفسه لعله

من آثار السفر ثم نام قليلًا واستيقظ على الأذان لا يريد بحالٍ من الأحوال أن يفرّط في تكبيرة الإحرام.

أخذ يسلّم على جماعة المسجد بعد الصلاة وهو يتذكر -رغمًا عنه- بعض الماضي السيء، لكن العزيمة الصادقة تجاه المستقبل كانت أقوى، كان أكثرهم يُظهر له الفرح ويدعو له بخلاف بعض أقرانه ومن يصغرونه بعامٍ أو عامين فقد انصرفوا ولم يحفُلوا بوجوده.

كانت ضحكات الأب تملأ المكان، وكذلك سعد كان في غاية السرور جرّاء التغير الملحوظ الذي لمساه في عبد العزيز، أخذ الأب يدعو لأمهما بالرحمة، ويذكر بعض عباداتها العملية وما يظهر من أعمالها القلبية التي لم يكونوا يعلمونها من قبل ومحبتها للخير.. أثار بذلك بعض الحزن في نفسيهما، ثم أوضح أنها لا تحتاج إلى الحزن ولن ينفعها البكاء بقدر ما يحتاج الميت إلى الدعاء وإلى عملِ صالح لا ينقطع..

سأل عبد العزيز أباه: أين هو أبو سعيد إمام المسجد؟ فقد صلى بنا اليوم صلاتَي المغرب والعشاء إمامان مختلفان؟!

منذ ستة أشهر والمسجد بهذه الطريقة، فقد اشتد المرض على أبي سعيد ورُدَّ إلى أرذل العمر، فأصبح لا يعرف أحدًا الآن، (الله يحسن له الخاتمة).

عبد العزيز يتذكر التهمة التي صدّرها وكانت سببًا قويًا في نشوب الخلاف مع أبيه، وأفْضَتْ إلى طرده: أما والله يا أبي لقد اتهمنا ذلك الرجل بسرقة بيته، وها أنا ذا بعد كل هذه السنين أقول بأنه قد افترى علينا كذبًا.. قاطعه الأب: يا بني لقد قبضت الشرطة على بعض شباب القرية آنذاك، واعترفوا بأنهم كانوا خلف كل السرقات التي حصلت في القرية.. نَشِبَتْ بعد ذلك خصومة بيني وبينه جرّاء تهمته إياك وتقاطعنا حوالي الشهرين لا يكلم بعضنا بعضًا، ولم يكن هناك مصلحة من إخبارك حينها، لكن العفو العفو يا بني عسى الله أن يعفو عنا، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

تذكر عبد العزيز أثناء كلام والده أصدقاءه سعيدًا وصالحًا ومحمدًا وأنهم هم الذين كانوا يسرقون.

أغلق والد عبد العزيز المكالمة حيث كان أخوه (أبو مهند) يتحدث معه، ثم عاد الأب يسأل عبد العزيز على سبيل التقصي وجس النبض: ما رأيك أن تصبح مؤذنًا في مسجدنا هذا فينفع الله بك وتتلقى مكافأة في نهاية كل شهر!!

عبد العزيز تروق له الفكرة ولا يريد أن يقطع بالموافقة لعلمه أنه سيذهب في مكانٍ آخر- لزامًا- من أجل البحث عن وظيفة: سأنظر في الأمر يا أبي.

أخذ الناس يتناقلون الخبر بمجيء صاحب المخدرات ويحذر بعضهم أبناءهم من مخالطته، فكانت النظرات بعدئذٍ تُنبئ عبد العزيز بصحة ما أخبره به ناصر من أن اصحاب القرية قد علموا بذلك، بالإضافة إلى علمهم بسجنه، فقد أشيع الخبر حينها وتلقاه أهل القرية الصغير فيهم والكبير..!

تكررت النظرات الساخرة تجاه عبد العزيز واستمر تجاهل البعض له حتى ممن أتوا لزيارته في البيت، فبعضهم إنما كان مجيئَه مُجاملة لأبيه، هذا ما أحسه عبد العزيز ولم يُبدِه!

اتصل بمهند ليسمع منه رأيه حيال هذا الأمر فتكلم معه مهند كلامًا جميلًا، قال له:

- أوليست القلوب بيد الله؟

- بلى.

- فإن الله إذا علم صدقك أمال القلوب إليك، هذا أولًا، ثم إن رضا الله هو الغاية العظمى التي تحفد إليها ثم رضا والدك، أليس كذلك؟

- بلى.

- فما أهون الخلق إذا كان الله هو مرادك الأول، وكنت تسير في رضاه، وماذا عساهم أن يضروك أو ينفعوك إذا ما أراد الله شيئًا آخر؟!

- صدقت ولكني.. قاطعه مهند: ولتعلم أنها سنة الله فما من إنسان يلزم هذا الطريق إلا وجاءته المضايقات تتهافت، إما من الناس وإما من نفسه التي بين جنبيه، والموفق من يثبته الله ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠].

- عبد العزيز يبدو مرتاحًا: حسنًا.

- هذه تعاليم ديننا الحنيف ولكننا نحن من نقصّر في تطبيقها، وأقول: ما دام أن الواحد منا يبذل ما بوسعه من

الأسباب الشرعية، ويتفقه في الأولويات المناطة به ومن أهمها فن التعامل مع النفس ومع الآخرين في ضوء الكتاب والسنة فهو ماضٍ في طريق الأنبياء والتابعين لهم بإحسان!!

ازدادت حماسة عبد العزيز بعد هذا الكلام ولكنه كان يشعر بتعب شديد بين الفينة والفينة ومع تقدم الأيام تزداد حالته سوءًا!

مع ذلك فقد كان متفائلًا يُحب الآخرين وينشط لعبادة ربه، فكان أول الحاضرين إلى المسجد محبة واستشعارًا لا عادة ونظامًا، وكان ينهل من قراءة القرآن بين الأذان والإقامة خاصة، فبدأ كبار السن يقدمونه لاسيما والده ليصلي بهم وكان يتتعتع فيزداد الحاسدون له شنآنًا واستهزاءً!

بعد حوالي أسبوع من مجيئه وبمجرد أن وفدت أخته زَهرة وزوجها وأبناؤها أَوْلَمَ له والده وليمةً اجتمع فيها عدد كبير من الناس، ومع ساعة توافد الناس شعر عبد العزيز ببعض الغثيان، وتعب شديد يشبه ما حصل له في طريقه إلى الطائف، خرج فجأة ولحَظَه سعد ثم تبِعَه، قال أريد ماءً فاتصل سعد بزهرة وطلب منها ماءً وأحسّت في نبرته بما لا يسر،

التقتهما سريعًا في المدخل الذي ينفذ إلى مكان النساء ومعها الماء ومدّت إليه بالماء لكنها تفاجأت بسقوطه بين أيديهم، نهرها سعد أن تُحدث أي صوت، وطفق يرش على وجهه ويمسحه بالماء حيث لا يراهم أحد، وبدأ عبد العزيز يستفيق، ويحاول أن يتصنع الابتسامة خاصة أمام أخته التي لم يمض عليها معه نصف يوم وكانت فخورةً به، استنهضه سعد إلى غرفة أخرى وطلبا منه أن يرتاح قليلًا فكان ينظر إلى أخته وهي تبكي بعد أن صرعتها الشفقة ويقول هذا تعبّ عارض وسبق أن حصل لي أشباهه عدد من المرات وسيزول بإذن الله، سعد يريد أن يطمئنه: الأمر بسيط إن شاء الله وسنذهب للمستشفى غدًا لإجراء الفحوصات اللازمة ثم أشار لأخته مؤكّدًا ألا تُخبِر أحدًا بما حصل.

بقي نصف ساعة أو تزيد ثم جاء إلى المجلس وسلّم على الأضياف الذين جاءوا بعده ولم يلحظوا فيه شيء، جاء سعد إلى جواره يسأله فقال الحمد لله لا أشعر بشيء.. لكن سعدًا كان يرى فيه عدم الارتياح طيلة تلك الليلة، كان بعضهم يمزح معه، وبعضهم الآخر ممن عرف أنه على طريق هداية

كانوا يهنئونه ويدعون له فلا يتكلم إلا في النادر كما لو كان مستحيًا، حتى على العَشاء كانوا يتحدثون معه فلا ينتبه إلا متأخرًا، وكان سعدٌ متوجسًا يراقب أخاه بشدة خشية أن يصاب بشيء!!

جاء إليه صهره (بندر) بعد أن أفاض الناس من المكان، وما زال يتحدث معه ثم أسدى إليه بنصائحه القيّمة، كان مما قال:

إن من أعظم أسباب الثبات على هذا الدين، ومن أعظم أسباب الرفعة في الدارين، أن تجعل بينك وبين الله خبيئة، أعني عملًا خفيًا لا يعرفه أحدٌ من الخلق كأن تقوم تصلي كل يوم في آخر الليل فتدعو الله وتناجيه وتستغفره وتبث إليه شكواك وتجدد التوبة معه، أو أن تكون لك على سبيل المثال صدقة خفية تكفل بها يتيمًا، أو تهب وقفًا أو تتبنى أسرةً فقيرةً تتعاهدها بالأكل واللباس، أو تتبنى مشروعًا دعويًا لاسيما في إحدى الهِجَر البعيدة والمناطق النائية تعلّمهم ما تقوم به عباداتهم.. ونحو ذلك من الأعمال..

عبد العزيز ترتفع معنوياته: زدني زادك الله من فضله.

الشبكة العنكبوتية نعمةٌ قد وهبها الله لنا فكما أن أهل الشر يستخدمونها في تمرير مآربهم المحرمة، فنحن نستطيع استخدامها في كل ما من شأنه أن ينفعنا في دنيانا وأخرانا، هناك مقاطع فيديو مفيدة، ومقالات وخطب، ومحاضرات ونصائح وتوجيهات ترسلها للآخرين فيستفيدوا.. قاطعه عبد العزيز: أكره الإنترنت ولا أجيد استخدامه ولكني بإذن الله سأختار ما يتوافق مع قدرتي وميولي من الأعمال الأخرى.

(الحاصل أن العمل الخفي هو من أجلّ سمات المؤمنين وأعظمها على الإطلاق)! قاله بندر.

- عبد العزيز: لديّ سؤال مهم ولكني سأرجئه للغد فأنا اشعر ببعض التعب.

- بندر مبتسمًا: حسنًا، وسوف نقيم معكم بضعة أيام إن شاء الله.

عبد العزيز يقرر بعد أن ترك الرجُل أن لا مجال بعد ذلك لترك قيام الليل وقال في نفسه: لعل الله أن يرحمني بهذا العمل وأن يكون طريقي إلى الجنة.

ومرت ثلاثة أيام لم تسنح الفرصة فيها لاستئناف الجلسة التي جلسها عبد العزيز مع بندر، فالتعب يزداد يومًا بعد يوم بالإضافة إلى أنه ما زال يجد بعض الحواجز حيث لم يتعمق بعدُ في معرفته.

لاحظَتْ غالية أن ابن زوجها التي بدأت ترتاح له وتحبه في غير وضعه الطبيعي تمامًا، وأبدَت ذلك لزَهرة مُشفقةً عليه، وشاورتها فقامت الأخيرة وأبلغت أباها بالإغماءة التي حصلت له في يوم الجمعة، وأن حالته تتجه للأسوأ، فشَقّ ذلك على الأب وأمرَه مباشرة وهو ينظر إلي اصفرار وجهه أن يذهب إلى المركز الصحي القريب، لكن أخاه سعدًا آثر أن يذهب به إلى إحدى المستوصفات الخاصة الجيدة.

وهناك طمأنهم الطبيب ظاهرًا لكنه قال بحتمية التحويل إلى المستشفى الكبير الذي يقع خارج القرية، حيث إن هناك أنواعًا من التحاليل لا تتوفر في هذا المستوصف، ولم يكن لهم خيار آخر سوى الموافقة.

خرجا من غرفة الطبيب ثم عاد إليه سعد مرةً أخرى كما لو كان يريد أن يستوضح منه شيئًا، قال له: أخبرني الحقيقة يا دكتور.

- لا أستطيع الجزم بتحديد المرض ولكن قد يكون فيه شيء من (اللوكيميا)!!

- ماذا تعني (اللوكيميا)؟؟!!

- الطبيب متعجبًا: أي أن الدم يحوي كريات دم بيضاء كثيرة.

- أفهم أنه ليس هناك ما يدل على خطورة الأمر!

- أخذ الدكتور يقلّب يديه كالذي لا يدري: إن شاء الله.

كان هناك طبيب آخر يتحدث مع هذا الطبيب باللغة الانجليزية وفهم سعد من تعابير الوجه أن في الأمر سوءًا..

سأله الطبيب الآخر هل هو أخوك؟

- نعم.

- هل يدخن أو يقع في شيء -لا قدر الله- من الأمور الأخرى غير التدخين؟!

- ربما وقع في التدخين فقط ولكنه أقلع عنه.

الطبيب الأول قائلًا: لا تَنِيا عن الذهاب للمستشفى الذي تم تحويلكم إليه.

غادر سعد والريبة تتسلل في داخله خاصةٌ أنهما كانا يتهامسان بعد أن خرج مباشرة وينظران ناحيته!

رفض عبد العزيز أن يذهب للمستشفى الآخر مباشرة، وقال: سأنظر في وضعي خلال اليومين المُقبلين فقد يزول ما بي!

سألهما الأب فأخبره سعد بأن لديه كريات دم بيضاء زائدة -فقط- وأنهما سيذهبان من الغد للمستشفى الكبير ليطمئنا أكثر.

لثلاثة أيام كان الأمر طبيعيًا وفي كل يوم يلح عليه سعد أن يوصله للمستشفى حيث اقترب موعد سفره هو، فكان عبد العزيز يأبى بحجة أنه في تحسن نسبي، وكانت أمارات الارتياح تظهر عليه مما حدا بالأب إلى تغافُل التحويل ما دام أنه بخير.

* * *

- ٢٣ -

في اليوم الخامس على التوالي تأخر عبد العزيز كعادته بعد صلاة الفجر حيث جلسة الإشراق، حاول أن ينهض بعد أن صلى ركعتي الإشراق وهو ما زال في هيئة التشهد فلم يستطع النهوض، يحس أنه كالمشلول ثم بدأت تتقلص أطرافه رغمًا عنه وترتعش وهو كالنائم في ضعفه وعدم قدرته على التوازن، ثم ما لبث خلال ثوانٍ أن بدأ يستعيد وضعه نسبيًا، استلقى بضع دقائق وتحامل على نفسه وخرج من المسجد، وإذ بأحد الشباب مارٌ بسيارته وكان في نهاية العقد الثاني من عمره يبدو في المرحلة الثانوية، فلما أن رأى عبد العزيز توقف، ونزل من السيارة ثم سلّم عليه وأطال في عبارات التحية كالمستهتر، وهَمَّ عبد العزيز بالانصراف، فجذبه بيده، وقال: لا تصلِّ بالناس يا مروِّج.. يا فاسق.. ثم ولّى...!

على الرغم من هذين الموقفين إلا أن عبد العزيز لن ينقطع عن الذكر والاستغفار محاولًا أن يتناسى، ومشى إلى غرفته لينام، فاعتذر إليه النوم وبقي إلى قُبيل الظهر واتصل بمهند يشكو إليه بعض ما يجد خاصةً من الناحية الصحية فلم يُجبه مهند.

سمع صوت بندر وهو يتحدث إلى زوجته فخرج إليه بلا أي قيود، استأذن من أخته وخلَصا نَجيًّا ثم قصّ عليه الموقفين كليهما، فقال له بندر وكان رجُلًا هادئًا حكيمًا:

- بالنسبة للمرض الذي ألمّ بك فلا بد أن تَعرض نفسك على طبيب حاذق يطفئه عنك بإذن الله، ولا داعي للقلق إزاء هذا الأمر فكل الناس تعرِضُ لهم الأمراض.

- ذهبتُ فأحالني إلى مستشفى آخر لكنني لم أذهب بعد، لعلي اليوم أو غدًا إن شاء الله.

- أنا سأذهب معك ما دام سعد سيسافر بعد قليل.

- لا، فأنا قادر بإذن الله اذهب لوحدي.

- لك ما أردت ولا بأس عليك عن شاء الله.. بالنسبة لموقف الشاب الذي اعترضك فلا تولِه شيئًا من اهتمامك، ولا تبذل له شيئًا من تفكيرك، فهذا الشاب ومن شيعته الكثير هداهم الله، لا يملكون التصور الصحيح، ولمّا يأتهم بعد تمام النضج، ولا أخالك تسلَم حتى من أذى الكبار الذين خلدوا إلى الحياة الدنيا، فلا يجدون ما يتنزهّون به سوى القدح في الذوات والوقوف على أخطاء الناس، أهمّتهم أنفسهم واستمكن الداء في صدورهم فلا تراهم يحبون الخير لأحد.. ولكن امض في طريقك، واصبر، فأنت على خيرً عظيم.

- استمر بندر يتحدث: وهناك أسبابٌ ستقيك بإذن الله من أذاهم ومن نفسك والشيطان وتسير بك في ظل حياةٍ طيبةٍ تكفل لك بإذن الله السلامة من الفتن وتضمن معها الثبات والتمكين.

- وهذا ما كنت أريد أن أسألك عنه في المرة الماضية، ولكن المؤذن ينادي الآن لصلاة الظهر فلنكمل بعدها إن شاء الله.

- وفقك الله، قالها الرجل وهو مسرورٌ جدّا بما يلمسه من الحرص في عبد العزيز.

كان عبد العزيز مُعجبًا بكلام بندر وعزم على التعمق في معرفته أكثر والتواصل معه.

انقضت الصلاة ثم ودّع سعدٌ أهله بعد هذه الزيارة التي جاء فيها ليتلقي أخاه الأصغر، وقد اطمأن عليه، وفرح بتبدّل حاله، ثم أوصاه بالذهاب للمستشفى وناوله ورقة التحويل..

مشى عبد العزيز بعد ذلك إلى المجلس ليمازح إخوته كما اعتاد في تلك الأيام، ودَلَفت إليهم زوجة أبيه فهيّأ لها متكأ، وقبّل كفها وسلّم على رأسها، جلس إلى جوارها ثم قال لها والبشر يعلوه: لِمَ لا نراكِ كثيرًا يا عمّة! ولا تجلسين معنا؟!

سكتت قليلًا وهي تمرر يدها على رأس ابنها الأصغر ثم استعبرت!!

سألها مستغربًا: ما بك؟!!

ما زالت تمسح دموعها ثم قالت وهي تنظر في شعر ابنها: لقد كنت السبب في تطليق والدتكم..! ذلك أنه عندما بدأت المشكلة بين أبيك وأمك جاءنا أبوك وأخبرني ببداية المشكلة فاشترطتُ عليه أن يطلقها كي يخلو لي المكان، وإلا فأبوك لم تكن لديه النية في تطليقها إطلاقًا ولكني استعجلته فَفَعل..!

غادر المكان عبد العزيز متغيرًا، وبقيت عمته تغالب ندمها: ليتني سكت فلم أحرك مشاعره.

وجاء وقت الغداء فامتنع حيث النوم، وأثناء الغداء أخبرهم بندر بالوعكة الصحية التي حصلت لعبد العزيز صباح ذلك اليوم، فألقت غالية باللوم على أبيه، إذ أنه لم يبال كثيرًا فيما يتعلق بتحويله للمستشفى ودعمتها زهرة بقولها: وهذه هي الإغماءة الثانية له منذ أتينا، ناهيكم عما يحصل له في الخفاء، ثم رفعت صوتها: عبد العزيز مريض ولا بد أن يُعالج سريعًا!

قال الأب: حسنًا سأذهب معه بنفسي صباح الغد إلى المستشفى.. فاعترض بندر الذي لم يكن يتوقع شدة المرض: لا، بل أنا سأذهب معه.

بعد صلاة العصر خرج بندر بعائلته للنزهة واصطبحوا عبد العزيز معهم، وكان أكثر هدوءًا لكنه يبدو كثير السرحان، لحظَه بندر أكثر من مرة يلهج بالاستغفار ثم يتوقف قليلًا يحد النظر أمامه لحظات ثم يعود مستغفرًا.. وأثناء طريقهم إلى المنزل عائدين بعد صلاة المغرب قال له عبد العزيز:

- لم تذكر لي الأسباب التي تقيني من الفتن، وتكون داعمةً لي!

- حسنًا..

أولها- أن تلزم أهل الصلاح فهم من يسوقون لك الخير، ويدرؤون عنك الشر، ويرفعون همّتك نحو أسباب الهدى، وأن تجعل لك في كل يوم وِرْدًا من القرآن لا لتقرأه فحسب وإنما لتتدبره وبذلك يحيى قلبك، وتجد البركة في كل شأنك، وأن تداوم على الذكر والاستغفار وهذا من أعظم ما يوصلك إلى درجة الإحسان ومراقبة الله تعالى، وأن تخشع في صلاتك -تتأمل الاقوال والأفعال فيها- قدر المستطاع لأن أثر الصلاة إنما يكون بحسب حضور القلب فيها، وأخيرًا أن تُكثر من الدعاء فالله جوادٌ كريم يحب من يسأله ويُلح عليه.. فيعطيه من فضله ويوفقه في الدارين.

توقفوا عند إحدى البقّالات، وترجّل بندر ليشتري بعض الأغراض، ثم التفت عبد العزيز إلى أخته قائلًا: فلتهنئي بزوجك لا قوة إلا بالله، استفدتُ منه في يومين ما لم أستفده في سنوات.. ولا أنسَ مهندًا ابن عمي فلقد كان له الفضل الكثير عليَّ بعد الله.

قالت: لا أذكر أن بندرًا ترك قيام الليل منذ تزوجته، ودائمًا ما يأمرني بذلك.

عبد العزيز يطيل النظر باتجاه مِقود السيارة وقد أخذه التفكير إلى سالف الأيام حينما اعترض على زواج بندر من أخته، وتقرر في نفسه قِصَر نظرته.. التفت لأخته، وقال: لابد أن أزوركم في مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأُصلِّي في الحرَم.

قالت منتشية: أسعد اللحظات.

عبد العزيز يخاطب بندر بعد أن استقرّ في السيارة وهو يتحرك بهم: يبدو أنك نسيت أهم الأسباب: قيام الليل!

بندر يجيب على الفور: لا، لم أنسه فقد تذاكرناه في المرة الماضية.. هو دأب الصالحين، ويستدعي عددًا من العبادات تكون في جملته، منها أداء الوتر، وقراءة القرآن، وذكر الله، والاستغفار، والمناجاة، والدعاء، وتجديد التوبة، ويحصل به من

انشراح الصدر ما لا يتوقعه العبد.

ورد إلى عبد العزيز اتصال مفاجئ من هاتف ثابت مُصدَّرٌ بمفتاح الرياض، لم يتردد عبد العزيز هذه المرة في الرد.. ثم هَتَف بصوت عالٍ على مسمع بندر وعائلته: (أهلًا أهلًا ناصر) ويبدو فرِحًا للغاية وأمر بندر بالتوقف رغم وشكهم على الوصول، ثم نزل من السيارة وبقي يتحدث بضع دقائق وعاد يطرب من الفرح قائلًا: ناصر سيصل غدًا.. ليتني قابلت إخوانه.

بندر وزهرة شاركاه الفرح لما رأوا عليه من المعنويات المرتفعة ولم يدريا بعد من هو ناصر وما قصته!

- قال الأب متفائلًا بشفاء ابنه بعد أن رآه: لعل مرضه قد زال مع هذه الفرحة التي يعيشها.

اتصل عبد العزيز بمهند يزف إليه البشرى بخروج ناصر من المستشفى، فأخبره مهند بأنه كان معه أثناء خروجه، لكنه أراد أن يفاجئه ناصر نفسه.. استمر مهندٌ في كلامه: ولعلكما بإذن الله- تكونان داعِيَيْنِ إلى الله، فينفع بكما العباد والبلاد وتكونان من الصالحين.

عبد العزيز ممتلئٌ بالأمل: بإذن الله وسنبدأ بحفظ القرآن، وسنكون معك على تواصل مستمر..

دخل عبد العزيز على عمته في المطبخ وكانت تنظف المواعين، سلّم على رأسها وقبّل كفها كعادته، وقال: إن الذي أخرجني اليوم عندما كنتُ أتحدث معك هو أنني تذكّرت طيبة أمي وحُسن قصدها في حين أنكما كنتما تتآمران عليها، ثم استعجم عن الكلام وأطال النظر، وعينا عمته قد ترقرقت حينها بالدمع.. قالت: لم أخبر أحدًا غيرك بأنني كنتُ سببًا في تطليقها، لكنك أصبحت أقربهم مودة إلى قلبي، ولقد أنّبني ضميري تجاهك فأردتُ أن أكون أكثر وضوحًا معك، كي تسامحني على كل شيء فأنا أيضًا من حلتُ بينك وبين أبيك في بعض المواضع، ولم أكن أريد مجيئك البتة إلى هنا، أما الآن.. عبد العزيز يقاطعها حيث وجد الفرصة ليسألها: لماذا فعلتِ هذا؟

غالية تجيبه على الفور: كنتَ تعاندني أحيانًا، وتكرر عبارة أنني أثّرتُ على أبيك فتغيّر، وكنتُ ألمس فيك أنك لا تريد الوفاق بيني وبينه.

أتمّت حديثها: لربما كنتُ أنا السبب فقد قصّرت في حقكم، ولربما سمعتَ مني ما تكرهه تجاه والدتك.. فنحن نساء ويحصل بيننا أكثر من هذا، وأنت اليوم أصبحتَ ابنًا لي، أقولها ويعلم الله حجم مودتي لك.

اشتدت محبة عبد العزيز لعمّته واستشعر تقصيره كذلك معها في سالف الأيام.. (قاطعتهم زهرة بدخولها)..

استأذنها وقد تقرر في نفسه حقارة الدنيا وأنها لا تستحق كل ما يحصل بين الناس من العداوات واسباب الفُرقة والقطيعة، وأن المرء لا يمكن أن يبقي أثرًا في هذه الدنيا أفضل من حسن الخلق، والتغافل عن الزلات ومحبة الخير للناس، والإحسان إليهم.

واعده بندر على السابعة صباحًا ليأخذه إلى المستشفى بعد إلحاح شديد كي يذهب معه.

توضأ عبد العزيز وصلى ركعتين ثم استسلم لينام فكانت شواغل الذهن تمنع النوم من التسلل إلى جفونه، وما زال يصارعها بالأذكار تارة وبالصلاة تارة، وبالقرآن تارة، فكان ينام نومًا متقطّعًا تتعاقب عليه الكوابيس المزعجة فتوقظه كل مرّة، اقترب أذان الفجر وهو يصلي صلاة الوتر وما زال يستغفر بعدها ويدعو ويذكر ربه فغلب عليه النوم واستيقظ على طرق الباب كالمجنون يسمع عمته غالية وهي تقول أدرك الصلاة.. فتوضأ في عجالة شديدة ثم انطلق وهو يبكي لفوات تكبيرة الإحرام، أدرك الصلاة في الركعة الثانية، وقام ليتم ففضحه البكاء وسط استغراب الجميع

وعرفوا أن ذلك بسبب تأخره، نظر إليه أبوه وكان في الصف الأول نظرة حُبٍّ وإجلال ثم عاد يُسبِّح، هنا خنست شياطين الإنس والجن وتيقن الجميع بصدق توبته وأن البكاء غير التباكي، وأن أمارات الكذب والرياء معروفة!

لم يجلس جلسة إشراق هذه المرة، وإنما قام بتأدية أذكار الصباح فقط لينصرف بعدها إلى البيت مباشرة يطلب النوم، كي يرتاح قليلًا قبل الموعد، واستيقظ على الموعد فلم يخرج إليه بندر، وخشي أن يُزعِجه بطرق الباب فانتظر إلى الثامنة والوضع كما هو، فاتصل على جواله فضغط بندر على الزر الأحمر (مشغول) لينتظر بعدها قراب عشر دقائق، واتصل بجوال أخته فكان مقفلًا، قرر حينها أن يذهب بنفسه حالًا فقد يصادف بعض الزحام لاسيما أن نتائج التحاليل تتأخر في بعض الأحيان.

بمجرد أن ركب السيارة أحسّ بضيق شديد، لكنه لم يحفُل واستمرَّ في طريقه لاهجًا بالذكر والاستغفار، اتصل عليه بندر بعد أن خرج من القرية يعتذر منه حيث غلبه النوم وطلب منه أن يعود فأبى!

وصل المستشفى الذي يبعد حوالي ٤٠ كلم، وأخذوا عينات الدم، وأخطروه أن النتائج ستتأخر إلى اليوم التالي، فعاد وهو

يفكر في ناصر وفي وصوله بعد الظهر، فهاتَف مهندًا للتأكد، فأخبره أن وصول الطائرة تقريبًا سيكون الساعة الواحدة والنصف ظهرًا

- سأله عبد العزيز: هل سيستقبله أحدٌ من أهله؟
- لا أظن فهو يريد أن يفاجئهم.
- إذن سأستقبله أنا.
- دعني أتأكد منه على الرقم الذي أعطاني إياه بالأمس وأظنه لابن عمته حيث إنه مقيمٌ عنده.

لحظات وإذ بناصر يتصل على عبد العزيز من ذات الهاتف الذي اتصل منه في الليلة الماضية، حاول ناصر أن يمنعه عناء المشوار إلى المطار والذي يبعد حوالي الساعة ونصف عن القرية، إلا أن عبد العزيز كان مُصِرًّا..!

كان الوقت الساعة العاشرة والنصف صباحًا، وأثناء ما كان يتناول الفطور في أحد المطاعم القريبة من المستشفى، سقط العصير من يده بغير شعور فاتسخت ملابسه واستدرك يمسحها بالمناديل فلم يُجد، وأراد النهوض إلى مكان الغسيل فشعر بفتور شديد في جسمه، فظل مكانه حتى استطاع النهوض شيئًا فشيئًا.. تحامل على نفسه وركب سيارته صحيحًا لكن ثمة شعور غريب قد غَشيه وشيءٌ من الخوف،

اتصل بأبيه يخبره بأنه ذاهبٌ لاستقبال صديقه، استوضح منه فيما يتعلق بالمستشفى ثم لم يُثرِّب عليه بعدها في استقبال صديقه، وأمرَه بأن يتمهل في سيرِه.

وفي مشهد غريب - بعد أن انتصف الطريق تقريبًا - رأى أمامه كأن الأرض ترتفع فجأة فضغط على مكابح السيارة وكادت السيارة التي خلفه أن تصطدم به فاضطُرَّ للتوقف، وتباعد بسيارته عن الطريق، ثم أفرد المرتبة الخلفية واستلقى، ونام ما يقارب الثلث ساعة وكان لديه متسع من الوقت.

أحس بشيء من الاستقرار.. ثم واصل سيره..

جاوز نقطة التفتيش المرورية التي تسبق المحافظة التي يقع بها المطار، ورأى مجالًا في الطريق يسمح بزيادة السرعة فَفعل.

أحسّ بحرارة في قدميه، ورعشةً خفيفةً في يديه،لكنه آثر الاستمرار ولم يتمهّل! بل ازدادت السرعة أكثر كما لو كان يُساق إلى قدَرِه.. لحظات وإذ بالسيارة تنحرف عن الطريق باتجاه عمود الكهرباء المنصوص في طرف الطريق، حاول أن يَحرِف السيارة عن العمود وهو في كامل شعوره، فلم يستطع تحريك يديه (قد تصلبت عن الحركة) فاصطدم بالعمود ثم اتجهت السيارة بغير اتزانِ إلى الطريق مرة أخرى..

في تلك اللحظة أتته سيارة مسرعة بشدة، وتمثّل له صوتُ أُمِّه وهي تصرخ، رأى السماء كأنها تقترب منه في لحظات مهيبة وسريعة جدًا، واصطدمت به السيارة وهو مازال ممسكًا بالمِقَود ثم انقلبت به السيارة، ليجد نفسه مَلقِيًّا على التراب خارجًا عن الطريق وهو يكرر الحمد لله الحمد لله.

هرَع الناس إليه يسألونه كيف تجد نفسك؟!

يحاول أن يرُدّ عليهم وهو ينظر إليهم ويسمعهم فلم يسطع على الكلام فأومأ برأسه، حاول أن يحرّك رجله أو شيئًا من جسده فلم يستطع أيضًا، الناس ينظرون إليه خائفين، وجاء أحدهم يريد أن يرفع رأسه حيث الدم يُراق منه فصاح دون أن يتحرك لسانه!!

طفِقَ يحس بضيق في التنفس ونشوف شديد في فمه وحلقه، جاء أحدهم إليه بالماء فنهره الآخرون ريثما تصل سيارة الإسعاف وجاء أحد المحتسبين يلقّنه الشهادة، فانطلق لسانه يلهج بها وهو يسمع تكبيرات وتحميدات الآخرين، بدأ يسمع صوت الإسعاف ولغط أصوات كثيرة جدًا، أحسّ بأن الخناق يشتد عليه، لم يعُد يستطيع التنفس يريد أن يصبح أو يشير إلى الناس وهم يرفعونه على الحامل الخاص بالإسعاف.

غشيته سكرات الموت وهو في سيارة الإسعاف بعد أن كان ذكر الله هو آخر كلامه، وأخذ يجول بعينيه، وما زال يُزبِد فمه ويُرغي حتى همَلَت أعضاؤه عدا سبابته التي برَزَت للأعلى مشتدّةً، ثم فاضت روحه وسكنَت جوارحه قبل أن يصل إلى المستشفى وكانت تبدو في محيّاه البهجة والارتياح..

وكان الحادث بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية.

❋ ❋ ❋

المحتويات

قالوا عن الرواية ٥-٧
الإهداء ٩
لافتة ١٠
الفصل الأول ١١
الفصل الثاني ٢٤
الفصل الثالث ٤٣
الفصل الرابع ٤٨
الفصل الخامس ٥٥
الفصل السادس ٦٤
الفصل السابع ٧٥
الفصل الثامن ٨٤
الفصل التاسع ٩٢
الفصل العاشر ١٠٠

الفصل الحادي عشر ١١٢
الفصل الثاني عشر.. ١٢٤
الفصل الثالث عشر ١٣٨
الفصل الربع عشر ١٤٦
الفصل الخامس عشر ١٥٦
الفصل السادس عشر ١٦٧
الفصل السابع عشر.. ١٨٠
الفصل الثامن عشر ١٩٧
الفصل التاسع عشر.. ٢١٢
الفصل العشرون.. ٢٢٤
الفصل الحادي والعشرون ٢٣٨
الفصل الثاني والعشرون ٢٧٠
الفصل الثالث والعشرون ٢٩٢
الفهرس ٣٠٧